

صراطي

سيرة ذاتية

إنَّ لكلِّ إنسانٍ صِراطًا يَسيرُ عليه..
قد يُفلِحُ فيه أو يَخيب..
قد يُخطِئُ فيه أو يُصيب..
قد يحيا بعدَه وإن مات..
وقد يموت فيه ولو ما زال حيًّا!!

د. سالم بن عبد الرحمن البلوي

د. سالم بن عبدالرحمن البلوي

صراطي!!

(سيرة ذاتية)



بيانات الإصدار

عنوان الكتاب: «صراطي.. سيرة ذاتية».

اسم المؤلف: د. سالم بن عبد الرحمن البلوي.

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

رقم الطبعة: الطبعة الأولى.

تاريخ الطبعة: ١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م.

الناشر:



إهداء خاص

إلى..

إهداء

إلى وطني!!

شُكْرٌ وتقديرٌ

لأبنائي وجميع أفراد أُسرتي العزيزة، وإلى كلّ أعِزّائي وزملائي الذين شاركوني إتمامَ هذا العمل حَتّى ظهوره في هذه الصورة على اختلاف مشاربهم وتجاربهم وجنسيَّاتهم واختلافِ الزّمان وتنوُّعِ المكان وتَعَدُّدِ الأحداث التي عايشوها وعاصروها وشاركوني فيها، وإلى كلِّ مَنْ راجَعَ معي هذا العمل؛ ليخرجَ في هذه الحُلّةِ، والذي أرجو أنْ يَنال استحسانَ القارئ الكريم، ويصل لذائقته الأدبيَّة.

سالم البلوي

افتتاحيَّة

«ترى بعض العرب..

فعله بروحه مثل فعل سراج..

يَضوِيّ للعرب..

والنّار في جوف المسيكيني» !!

الملك «فيصل بن عبد العزيز»

رَحِمَهُ اللَّهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رَسُولِ الله ﷺ، وبَعْدُ..

فلا شَكَّ أنَّ لِكُلِّ وُصولٍ بِداية، وأنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ غاية. أمَّا الوُصولُ فلا يعني - بالضرورة - بُلوغَ كُلِّ ما هو مَأمُول، ولا إدراكَ كُلِّ ما تَمَنَّاه المَرءُ طِيلَةَ حياتِه، وإنَّما يعني الوُصولَ إلى أهدافٍ أَبَتْ إلَّا أنْ تكون صَعبَة، وآمالٍ بَدَت - في نظر الكثيرين - شِبْهَ مُستحيلة!!

ولعلَّ بداياتِ هذا الوُصول هي التي تُفَسِّرُ طبيعتَه وتُعَلِّلُ كَيفيتَه؛ فكَينُونَةُ الإنسانِ تأتي من أصلِه وجُذورِه ونَشأتِه؛ فالإنسانُ امتدادُ خَلَفٍ لِسَلَف.. وهو - نَفْسُه - سيكون سَلَفًا لخَلَفٍ آخَر، رُبَّما يحذو - يومًا ما - حَذْوَه.. ويقتدي بسيرته.

أمَّا غايةُ العَمَل.. فربَّما تَنبُعُ من هذا الفَهم الذي يُرجِعُ كُلَّ شَيءٍ إلى أصلِه، ويُفَسِّرُ الحاضِرَ بالماضي، ويستشهِدُ بالحاضِر لأَجْلِ استِشرافِ المُستَقبَل.

وإذا سَأَلْتُ نَفْسي: هل هذه هي الغايةُ الوحيدةُ التي جعلَتْك تَعزِمُ على كتابة هذه السِّيرة؟.. فإنَّ الإجابةَ - حتمًا - ستكون بالنفي؛ فهناك غاياتٌ - أُخرى - جَعَلَتني أشرعُ في كتابة هذا العمل، رغم ما قد يشوبه من مَأخذ التمجيد أو إطراء النَّفْس، والذي من أعراضه مُجَرَّدُ التفكير جِدِّيًّا في بَتر الضمير (أنا) من السياق الذي أَعرِضُ فيه تلك السيرة!

لم تكن هذه هي الغاية الوحيدة لكتابة السِّيرة، بل ولم تكن نصيحةُ معالي الوزير الدكتور/ «محمد بن أحمد الرشيد» رَحِمَه الله بأنْ أُدَوِّنَ هذه السِّيرةَ هي السبب المباشر الذي دَفَعَني لكتابتها، وإنَّما كانت الحافِزَ الأكبر، ورُبَّما كانت هي نُقطة التَّحَوُّل التي حَسَمت ذلك الصراعَ داخِلَ نَفْسي.. بَينَ الاستجابةِ لنصائح آخَرين بأهمية تدوين تلك السيرة.. وبين العُزوف عن الفكرة لمُجَرَّدِ التفكير في ضمير المتكلِّم (أنا)!

نعم لم تكن هذه هي الغاية الوحيدة.. ولم يكن إحساسي بالمسؤولية تِجاهَ أبنائي الطلاب في نَقْل التجارب والخبرات - التي اكتسبْتُها عَبْرَ سنين عمري - السببَ الرئيس أيضًا على أهميته، وكذلك لم تكن رغبةُ أبنائي وأفراد أسرتي - أنفُسِهِم - هي الباعث الحقيقي للشروع في تدوين هذه السّيرة!

وبينَ صَوتٍ يَدفَعُني وآخَر يَمنَعُني.. وبين ناصِحٍ يُؤَيِّدُ نَشْرَها للكافَّة وآخَر يُفَضِّلُ نَشْرَها للخاصَّة.. بين هذا وذاك.. يأتيني صَوتٌ آخَر لم يُفارِقْني يومًا ولم أُفارِقْه.. صَوتٌ اشتَقتُ إلى نَبرَتِه وإلى الاستئناس به.. صَوتٌ أَقِفُ له مُنصِتًا بكُلِّ جوارحي..

رَحِمَك اللهُ يا أبي.. أَشعُرُ بك حَوْلي في كُلِّ هدف أُحَقِّقُه.. وفي كُلِّ سَعْيٍ أصبو إليه.. أصنعُ ما أصنعُ وأعملُ ما أعملُ وأنا على يَقينٍ أنَّك قائدي في كُلِّ ما وُفِّقتُ في بَذْله من إسهامات بعد توفيق الله عَزَّ وجَلَّ، وَأنَّكَ مُرشِدِي وناصِحِي في كُلِّ ما قد أُواجِهُهُ من عَقَباتٍ وكُلِّ ما قد أُقابِلُهُ من مُستَجَدَّات!!

رُبَّما يرغَبُ المَرءُ في أنْ يعيش مرتين.. الأولى: باعِثُها أنْ يُحقِّقَ ذاتَه أو يَصِلَ إلى مراتِبَ وغاياتٍ مشروعة.. مُتخَطِّيًا الصِّعابَ والعَقَباتِ الكَؤُود كافَّة.. ضارِبًا عُرضَ الحائط أيَّ مُحاولةٍ لتثبيط الهِمَم أو عرقلةِ خُطواتِ التقدُّم. أمَّا العِيشةُ الأُخْرى: فباعِثُها رَغبةٌ دفينةٌ بأن يُدَوِّن المَرءُ أهمَّ ما مَرَّبه في حياته؛ ليبقى تَجرِبَةً حَيَّةً لأجيالٍ أخرى قادمة، أو بالأحرى ليبقى المَرءُ - ذاتُه - حَيًّا في وجدانِ أبنائِه وطلابِه وأحِبَّائِهِ.. بَعْدَ أنْ يُفارِقَ الدُّنْيا وتُفارِقَه!!

إنَّ غايتي الكبرى - مِن وراء تدوين هذه السيرة - هو أنْ أبعث برسالة عِرفان إلى والدي رَحِمَه الله، وأنْ أحاول إيفاءه بعضَ حَقِّه الذي أَعلَمُ - يقينًا - أنّي لن أستطيعَ إليه سبيلًا!!

لقد كانَ رجائي مِن العَلِيّ القديرِ أنْ يكون والدي شاهدًا على كُلِّ ما مَررْتُ به مِنْ أحداثٍ ومواقِفَ، وأنْ يكون على كُلِّ ذلك شاهِدًا ومُقَيّمًا.. عاتِبًا ومُثَمِّنًا، وأنْ يرى نتَاجَ ما صَنَعَ.. وثِمارَ ما زَرَع؛ فـ(أنا) على يَقينٍ تامّ.. بأنَّ ما لم يُدرِكْهُ الأبُ في حياتِه.. حَرِيٌّ به أنْ يراه في أبنائه!!

ولِأَجل تحقيقِ هذه الغاية يُمكِنُني - بعد الاعتمادِ على الله عز وجل، وانطلاقًا مِنَ البواعِثِ الداخلية والخارجية لكتابة هذه السيرة - يُمكِنُني أنْ أقومَ بتقسيم هذا العمل إلى أقسامٍ ثلاثة:

القسم الأول: به سيرةٌ موضوعيَّة لأصحاب حَقٍّ وحقوق، غايَتُها أنْ يُنسَبَ الفضلُ لأهله، فكانت سيرة للأجداد والآباء، ولكُلِّ مَن له أيادٍ بيضاء في وَعْيي وسَعْيي على الصِّراط.

القسم الثاني: سِيرةٌ ذاتيَّةٌ تتناولُ أهمَّ الأحداث التي مَرَّتْ عليَّ في حياتي، والتي حاوَلْتُ - جاهِدًا - تَقديمَها للقارئ بكُلِّ أحداثِها وحقائقِها، على أنَّ الحقيقة لا تكتملُ مادام المسكوتُ عنه مَسكوتًا عنه، لذلك لا أقولُ: إنَّني كَتَبْتُ كامِلَ الحقيقة، وإنَّما أقولُ: إنَّ ما كَتَبْتُهُ هو أصلُ الحقيقة.

القسم الثالث: وهو يحوي سِيرةً موضوعيَّةً (غيريَّة) بعيدة عن الذات والأنا؛ فقد صِيغت وقُدِّمَت بأقلام أساتذة وزملاء ورُفقاء دَرْب كانوا - ومازالوا - شُهودًا على العصر ومُستجدَّاته بالرغم مِن اختلاف مشاربهم وتجاربهم وجنسياتهم، واختلافِ الزمان وتنوُّعِ المكان وتَعَدُّدِ الأحداث التي عايَشوها وعاصَروها مَعي، وساعدوني على لَمِّ شتات ما فَقَدَتْهُ ذاكرتي مع الأيام!!

وحَسْبي - خِتامًا - أنْ أقول: إنِّي بَذَلْتُ قَصارى جهدي ليكونَ هذا العملُ خاليًا مِنَ التصنُّعِ والصِّناعة، وقد اخترتُ له عُنْوانًا يُعَبِّرُ عن محتواه مِنْ دون مُبالغة؛ فسَمَّيتُهُ «صِراطي».. عسى أنْ ينال استحسانَ القارئ الكريم، وأنْ يَصِلَ لذائقته الأدبيَّة، وأنْ يكون نافِعًا لكُلِّ مَنْ يَقْرَأهُ، ماتِعًا لكُلِّ مَنْ يَتَأَمَّلُهُ، وآخِرُ دَعْوَانا.. أنِ «الحمدُ لله رب العالَمين» وأنِ «اهْدِنَا الصِّراطَ المُستَقيمَ»!!

د. سالم بن عبد الرحمن البلوي

القِسم الأول

في حياةِ والدي رَحِمَهُ اللَّهُ!!

الخلائِفُ.. والصِّراط!!

اقتضت مَشيئةُ الله جَلَّ وعلا أن يَستخلفَ الإنسانَ في هذه الأرض.. قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

لقد خَلَقَ اللهُ عَزَّ شأنُه الإنسانَ لكي يكون خليفةً في الأرض؛ يَخْلُفُ البَشَر بعضُهُمْ بعضًا عَبْرَ السنين والأزمان إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرض ومَن عليها؛ قال ابن كثير رَحِمَه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾: «أي قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جيل كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ» [الأنعام: ١٦٥]...﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ﴾[النَّمْلِ: ٦٢]...»[2].

وهكذا توالَت الأجيالُ يَخلُفُ بَعضُها بعضًا في نسيج بشري إنساني مُمْتَدٍّ حتى قيام الساعة؛ فكان منهم قطعًا: الأنبياءُ والرسُلُ والصِّدِّيقون والشهداءُ والصالِحون.. وكان منهم أيضًا: العُصاةُ والكافِرون والمُذنِبون والمُقَصِّرون والطالِحون!!

منهم حضاراتٌ ومنهم جماعات.. منهم أُممٌ ومنهم أقليات.. منهم بُلدانٌ ومنهم قُرى.. منهم مَن عَلِمْنا ومنهم مَن لم نَعْلَم.. منهم شعوبٌ ومنهم قبائل.. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٢) «تفسير القرآن العظيم»، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩هـ: [١٢٤/١].

(٣) سورة الحجرات: الآية (١٣).

وغايةُ التقوى.. أن يَسيرَ الإنسانُ على صِراطٍ واضِح في الدنيا لِكي يَعبُرَ الصِّراطَ المُمتَدَّ - في الآخِرَة - فوق جهنم!!.. لذلك يتلو المسلم في صلاته - في كُلِّ ركعة - قولَه تعالى: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ﴾[١].

وقد «أَجمَعَت الأُمَّةُ من أهل التأويل - كما يقول الطبري في التفسير - على أن الصِّراطَ المستقيمَ: هو الطريق الواضح، الذي لا اعوِجاج فيه»[٢].

والطريقُ الجَلِيُّ الواضِحُ غَيرُ المُعوَجِّ هو - حتمًا - سبيلُ الله؛ لذلك سَمَّى اللهُ سبيلَه بـ«الصِّراط»، وسَمَّى ما عداه بـ«السُّبُل».. ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٣].

إن صِراطَ كُلِّ إنسان في هذه الدنيا هو دَربُه وطريقُه.. سَعيُه وسَبيلُه.. سِيرتُه ومَسيرتُه.. سواء أكان هذا الصِّراطُ مُستقيمًا أم مُعْوَجًّا؛ فإن العرب - كما في الطبري - «تستعير (الصِّراط) فتستعمله في كُلِّ عمل وُصِفَ باستقامة أو اعوجاج.. فتَصِف المستقيمَ باستقامته.. والمُعوَجَّ باعوجاجه»[٤]!!

ولذلك نَجِدُ القرآن يُقَرِّرُ - صراحةً - أن للمغضوب عليهم وللضالين صِراطًا - أيضًا - مثل صِراط الذين أنعم الله عليهم؛ فيأتي الأَمْر بالتضرُّع إلى الله تعالى بأن يَهدِيَنا الصِّراطَ الأول، مع استثناء الصِّراطَين الآخَرَين.. نسأل الله تعالى السلامة والعافية!!

---

(١) سورة الفاتحة: الآية (٦).

(٢) «جامع البيان في تأويل القرآن»، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م: [١/ ١٧٠].

(٣) سورة الأنعام: الآية (١٥٣).

(٤) «تفسير الطبري»، المرجع السابق: [١/ ١٧١].

وبِناءً على هذا.. فإنَّ لكلِّ إنسانٍ صِراطًا يَسيرُ عليه.. قد يُفلِحُ فيه أو يَخيب.. قد يُخطِئُ فيه أو يُصيب.. قد يحيا بعدَه وإن مات.. وقد يموت فيه ولو ما زال حيًّا!!

وصِراطُ كُلِّ إنسانٍ أعمالُه وإنْ قَلَّتْ.. وأفعالُه وإنْ زَلَّت، ولا زِلْتُ أقولها: «شهادةُ العمل خَيرٌ من شهادة الرجال»؛ فتلك حِكْمةٌ صاغها والدي رَحِمَه الله بأعماله وأفعاله دون أنْ يَتَفَوَّهَ بها، وهي قاعدة أصيلة بَنَيتُ عليها أركانَ صِراطِيَ الخاص.. فإنْ صَحَّ البِناءُ استقامَ الصِّراط.. وإنْ كان تقصيرٌ فثمَّةَ اعوِجاجٌ.. لكنِّي مُؤمِنٌ - والحمدُ لله - بسلامة النِّيَّةِ والمَقصِد.. ومُدْرِكٌ حَقًّا أنَّ «أوَّل انطباع هو آخِرُ انطباع».. وأنَّ «الرُّمْح مِنْ أَوَّلِ رَكزَة».. وأنَّ «قيمَة المَرْءِ.. ما كانَ يُحْسِنُهُ»!!

لقد شرعتُ في كتابة هذا الكتاب ولم أكن أدري ما أُسَمِّيه، وقد كنتُ أُمْلِي فصولَهُ على أولادي وهم يدونونه على الحاسب، وكانوا يتنافسون في ذلك بُغيَةَ سماع ما يجهلونه عن أبيهم.

وفي إحدى ليالي الإملاء بادرني أحدُهم بقوله: لقد كان طريقك شاقًّا وطويلًا، مملوءًا بالعقبات والمنزلقات والمخاطر!.. كيف استطعت تجاوز كُلِّ ذلك؟، فتذكَّرْتُ رَحمَةَ الله تعالى ولُطفَه بي؛ فلولاه سبحانه ما سِرْتُ شِبرًا ولا طِقْتُ صبرًا، ولاح بين ناظريَّ الصراطُ منصوبًا على متن جهنم، فسألتُ اللهَ اللطيف الرحمن أن يُثَبِّتَنا على الصراط، وأن يُنَجِّيَنا من النار، فما إن أَمَّن أولادي على دعائي.. حتى بدا لي أن أُسَمِّيَ كتابي بهذا الاسم.. (صراطي)؛ فاللهُ المُوَفِّقُ والمُستَعان.

صِراطُ السَّلَف!!

كانت قبيلة بلْي[(١)] القضاعيَّة مِنْ ضمن القبائل التي مَنَّ اللهُ تعالى عليها بنِعمَة الإسلام.. فناصَرُوا النبيَّ ﷺ في بَدْر - أولى غزواته - وحَتَّى عَهْدِ الخلفاء ومَنْ بَعْدَهم.

(١) قال القرطبي: «بلي بن عَمْرو بن الحاف بن قضاعة: مِنْهُم كَعْب بن عجْرَة البلوي، وَبَنُو العجلان وَبَنُو أنيف وَبَنُو غصينة، وهم كلهم حلفاء الْأَنْصَار. قَالَ الزبير: هَؤُلَاءِ كلهم أصلهم من بلي، وهم حلفاء بني عَمْرو بن عَوْف من الْأَوْس، وَهِي قبائل بأسرها من بلي فِي الْأَنْصَار، مِنْهُم المجذر بن ذياد وَطَلْحَة بن الْبَرَاء...». «الإنباه على قبائل الرواة»، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى:٤٦٣هـ)، المحقق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م: [ص١٣٧].

وقال السمعاني: «البَلَوِيُّ: بفتح الباء المنقوطة بواحدة واللام وفي آخرها الواو، هذه النسبة إلى بلي، وهي قبيلة من قضاعة، وهو بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، منها جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من حلفاء الأنصار من أهل بدر وغيرهم... نزل أكثرهم مصر، والمشهور بهذه النسبة زياد بن عبد الله البلوي، يروي عن ابن سندر، روى عنه سعيد ابن أبي أيوب وزهير بن قيس البلوي من أهل مصر... ومن الصحابة أبو عمرو عبد الرحمن ابن عديس بن عبيد بن كلاب بن دهمان بن غنم بن هميم بن ذهل بن هنيّ بن بلي بن عمرو البلوي، بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، وشَهِدَ فتحَ مصر واختط بها، وكان أحد فرسان بلي المعدودين بمصر ورئيس الخيل التي سارت من مصر إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه...». «الأنساب»، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (المتوفى: ٥٦٢هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي وغيره، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م: [ص٣٢٣: ٣٢٥]. وراجع: «اللباب في تهذيب الأنساب»، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، د.ط، د.ت: [ص١٧٧]، «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان»، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ)، المحقق: إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م: [ص٤٥]، «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب»، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ)، المحقق: إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب اللبنانين، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م: [ص١٨٠]، «معجم قبائل العرب القديمة»، لعمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشق (المتوفى: ١٤٠٨هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م: [١٠٤/١]، «معجم قبائل المملكة العربية السعودية»، لحمد بن محمد الجاسر (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: النادي الأدبي في الرياض، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م: [ص٥٣]. وراجع بطون عمرو ابن الحاف بن قضاعة في «الجوهرة في نَسَب النبي وأصحابه العشرة»، لمحمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التِّلمساني المعروف بالبُرِّي (المتوفى: بعد ٦٤٥هـ)، نقحها وعلق عليها: د محمد التونجي، الناشر: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م: [٤٧٢/١].

وتَتابَعَ نَسْلُ قبيلة بلي - عَبْرَ السنين - وفي العديد من البُلدان؛ مثل: (السعودية)،و(مصر)،و(السودان)،و(الأردن)،و(سوريا)،و(فلسطين)
،
و(العراق)،و(ليبيا)،و(المغرب)،و(الجزائر)،و(تونس)،وكذلك(الأندلس)، وبعض البلدان الإفريقية كـ(إريتريا)، وقد شاركوا في العديد من المعارك الكبرى والحاسمة، وقد ظهر منهم أبطال وقادة وشهداء وشيوخ وعلماء وأعلام[1].

وفي أثناء سفري إلى هذه الأقطار استوقفني التاريخ من خلال العديد من المعالِم التي ذكَّرَتني بأعلام قبيلة «بلي»؛ ففي أحد أسْفَاري - مثلًا - لاستقطاب أعضاء هيئة تدريس من (تونس).. زُرْتُ مدينة القيروان ومسجد الصحابي الجليل «أبي زمعة البلوي» ﵁، والذي صَحِبَ النبيَّ ﷺ في الحُدَيْبِية، وبايعه بها بيعةَ الرِّضوان.

وقد شَهِدَ «أبو زمعة البلوي» فتحَ (مصر) مع «عمرو بن العاص» الذي اتجه بالجيش إلى (مصر) و(إفريقيا)، وكان ثُلُث الجيش قوامه من قبيلة «بلي» أخوال «العاص بن وائل السهمي» والد «عمرو بن العاص»، ودخل «أبو زمعة البلوي» (إفريقية) مع جيش «معاوية بن خديج» في خلافة «عثمان بن عفّان» ومعه جماعة من أعيان الصَّحابة، منهم: «عبد الله بن عمر بن الخطّاب»، و«عَبد الله بن الزبيّر» رضي الله عنهم جميعًا.

---

(١) راجع ما قيل عن الصحابي «أبي زمعة البلوي»، وما قيل عن القائد «زهير بن قيس البلوي» من خلال (ويكيبيديا - الموسوعة الحرة).

وقد تُوفي «أبو زمعة البلوي» في "جلولة" التي تقع على نحو ثلاثين ميلًا من "القيروان"، فنُقِلَ ودُفِنَ سنة ٣٤ هجرية ومعه شَعرٌ من شَعر رسول الله عليه الصَّلاة والسّلام في قلنسوته.

وفي أثناء خروجي من مسجد «أبي زمعة البلوي».. إذا بمسجدٍ كبيرٍ أمامي، فسألتُ عن اسم هذا المسجد الذي شُيِّدَ من الطراز التراثي، فأُخْبِرْتُ أنَّهُ مسجد الصحابي الجليل «عقبة بن نافع» رضي الله عنه، فاستحضرتُ الصحابيَّ الجليل صاحِبَ رسول الله ﷺ وصاحِبَ «عُقبة ابن نافع» رضي الله عنه والقائِدَ الفذَّ «زهير بن قيس البلوي».. الذي استخلفه «عقبة بن نافع» على "القيروان" سنة ٦٢ هـ.

ولما قُتِلَ «عُقبة بن نافع» في حربه مع الروم وجيش «كسيلة» الزعيم الأمازيغي سنة ٦٤هـ.. خرج «زهير بن قيس البلوي» من "القيروان"، وأقام في "برقة"، واحتلَّ «كسيلة» "القيروان"، ولمَّا تولى «عبد الملك بن مروان» الخلافة سنة ٦٥هـ ولَّاه (إفريقية)، وأَمَدَّه بمُقاتِلِين، فتَوَجَّه بهم لقتال «كسيلة» والروم، والتقى الجمعان في موقع يُدْعَى (ممش)، وغَلَبَ المسلمون وانتصروا انتصارًا كبيرًا، وانهزم الروم والأمازيغ الموالون لهم، وقُتِلَ "كسيلة"، وانكسرت شوكته، وكانت هذه الواقعة من الوقائع الحاسِمَة بقيادة «زهير بن قيس البلوي» رَحِمَه الله.

وعقب ذلك.. أرسل الروم جيشًا من "القسطنطينية" و"صقلية" في مراكب إلى "برقة" على الساحل الإفريقي، فعاد «زهير البلوي» إليها وقاتلهم، فقُتِل «زهير» في المعركة، وقُتِلَ معه كثير من أصحابه، وكانوا من أشراف الصحابة والتابعين، ودُفِنَ «زهير» في مسجد الصحابة في مدينه "درنة" الليبية.

وفي سفري لـ«إسبانيا».. شَاهَدْتُ هناك عَبَقَ التاريخ الإسلامي في "قرطبة" و"الحمراء"؛ فرأيتُ إِرْثَ الأجداد الحضاري، المتمثل في المدن والمساجد، وشاهدتُ كذلك مشاهِدَ لأعلام من قبيلة «بلي»، ومنهم «أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي» الذي وُلِدَ في مدينة "مالقة"، والذي

بنى أكثر من ٢٥ مسجدًا، وكان إمام مسجد وخطيبًا، واشترك في جيش سلطان الموحد «يعقوب المنصور» لأجل الدفاع عن دولة (الأندلس)، وبعد ذلك توجَّه إلى مدينة "بجاية" بـ(الجزائر)، فتلقى فيها من العلوم الشرعية الكثير.

ولِعِشْقِهِ للجهاد.. انضَمَّ إلى جيش «صلاح الدين الأيوبي» للدفاع عن "القدس" في بلاد (الشام) ضد الصليبيين، وبعد ذلك.. أدى مناسك الحج وعاد إلى بلده "مالقة"، وتُوفي بها عام ٦٠٤ للهجرة، ومن مؤلفاته: كتاب (ألف باء) في أنواع الأدب والمحاضرات واللغة.

وفي (الأندلس) كذلك.. الشاعر «محمد بن حسن البلوي»، والذي استوطن - مع قومه «بلي» - "وادي ريه" بـ(الأندلس).

ومن مفاخر قبيلة «بلي».. أَنْ قال عنهم «ابن حزم الأندلسي»: «إنهم قبيلة عُرِفَت بتمسكها بعاداتها وتقاليدها، وتمسكها الشديد باللغة العربية».

وقد تَتابَعَ التاريخُ العريقُ لقبيلة بلي(١)، وتَعاقَبَت الأجيالُ والأجيال، مُستمِدَّةً من الماضي العريق ما يَجعَلُها تتعايشُ مع الحاضِر وتستشرِفُ المستقبلَ.. والذي كُنتُ أحدَ أبنائه.

---

(١) راجع تاريخ قبيلة بلي على موقع «youtube» من خلال العناوين التالية: «مَن هي قبيلة بلي»، «نسب قبيلة بلي وقبيلة جهينة»، «بلي في عصر صدر الإسلام»، «قبيلة بلي في العهد النبوي»، «سفراء النبي صلى الله عليه وسلم من قبيلة بلي إلى بني خزيمة»، «قبيلة بلي وأسباب دخولها مصر وملاحظات على القبائل العربية في مصر في السنوات الأولى من فتح مصر»، «تاريخ قبيلة بلي في قصيدة»، «نساء كريمات من قبيلة (بلي) القضاعية»، «قبيلة بلي القضاعية الحميرية أحفاد الصحابة والتابعين الكرام»، «قوة قبيلة بلي»، «تاريخ قبيلة بلي»، «قبيلة بلي في الأندلس»، «الأندلس وفضل قبيلة بلي القضاعية على العرب والمسلمين»، «القبيلة الوحيدة المشاركة في الحرب العالمية الأولى قبيلة بلي»، «وثيقة عثمانية تُثبت محاربة شيخ قبيلة بلي ضد البرتغاليين وطردهم عن بلاده»، «قبيلة بلي القضاعية حكمت يثرب وطردت اليهود إلى خيبر وغزت إفريقيا وأول مَن نشر اللغة العربية فيها».

إنَّ هذا التفاعُلَ الذي يجمَعُ بين الماضيَ والحاضرَ والمستقبلَ – هو الذي يَصنَعُ الحضارَة، ويَرسُمُ معالِمَ التاريخ، وهو الذي يُرسي رَفِيعَ القِيَمِ والأخلاقِ النبيلةِ في نُفُوس الأجيالِ اللاحِقَة، ويكون - حَقًّا - مَورُوثًا شامِخًا تتناقَلُه أجيالٌ وأجيالٌ عَبْرَ قُرون طويلة.

وبالرغم مِن أنَّهُ لا يَتَسَنَّى للمَرْءِ مِنَّا أن يُخالِطَ الأجدادَ أو أن يَتَشَرَّبَ عاداتِهم وتقاليدَهم وطُرُقَ تربيتِهم.. لكنَّهُ قد يُدرِكُ طبيعةَ هذه الطُّرُق والعادات والتقاليد من خلال مُخالَطَتِه ومُعايَشَتِه للآباء وذَوِي القرابة، والذين انتَقَلَتْ إليهم هذه الموروثات عن طريق المُعايَشَة أو المُخالَطَة أيضًا، أو قد يكون هذا الانتقالُ عن طريق القِراءة والمُطالَعَة.. وَرُبَّمَا يكون - أيضًا - عن طريق الجِينات الوراثية!

لعلَّها - مثلًا - جِيناتُ كَرَمٍ وَرِثَها أبي رَحِمَهُ اللهُ من «سالِم بن حمدان الفريعي البلوي» جَدِّي رَحمَةُ اللهِ عليه.. إذْ كان يأتي بالتمر على الإبل من نخيلِهِ بمحافظة "العيص" لمَضَارِبِ قومِهِ باحِثًا عن الجائِعِ ومُستَهدِفًا المُحتاج.. إنَّها جِيناتٌ طَيِّبةٌ تَحمِلُ من حُبَّ الناسِ لجَدِّي رَحِمَه الله - ومن القِيَمِ والعاداتِ الاجتماعيةِ والذكاءِ الاجتماعي - ما جَعَلَ والدي يَسيرُ على نَهْجه ويَقتدي به، حَتَّى صارت سِيرَةُ الأبِ كَسِيرَة الجَدِّ رَحِمَهما الله؛ فَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهلِهِ.



«سودان» جدي لأمي



والدي رَحِمَه الله





الكاتِب في العشرينات

ولَعَلَّ جِيناتِ الكَرَم التي وَرِثَها الأبُ عن الجَدِّ هي التي تَدفَعُ الأبناءَ إلى حَتمِيَّةِ مُواصَلَةِ ذلك البَذْلِ والعطاء على نَفْس النَّهج، ورُبَّما على نَفْس الطريقة؛ فيسعى الأبناءُ - لا إراديًا - في تقليدِ الآباء والأجداد في عاداتهم وتقاليدِهم الاجتماعية.

ولَعَلَّ رَوابِطَ الرَّحِم - التي وَصَلَها الجَدُّ رَحِمَه الله مع قبيلة جُهَينة القضاعية العريقة - هي التي أَلْزَمَت ابنَه البار «عبدالرحمن بن سالم الفريعي البلوي» بأنْ يُواصِلَ الوفاءَ مع أرحام والِدِه من هذه القبيلة، التي زَوَّجَ الجَدُّ بناته وأخواته لأكثر من اثني عشر فخذًا منها، فضلًا على أنَّهم أخواله.

إنَّ الإرثَ الذي يَرِثُه الأبناءُ - قَدَرًا - عن الآباءِ يَستوجِبُ أنْ يكون المَرءُ حريصًا - كُلَّ الحِرص - على سُلوكه وتعاملاتِه أمام أبنائه؛ فـ«مَن شابَهَ أباه فما ظَلَم»، ومن هنا تظهر المسؤولية في أن يَزرَعَ الأبُ في نُفُوسِ أبنائِه ما وَرِثَه عن أبيه وأجدادِه من خَيْرِ الصِّفاتِ وأحسَنِها عملًا، لا قَولًا فَحَسْبُ؛ حتى يَستَنُّوا بسُنَّتِهم مع أبنائهم.. في العبادات والمعاملات.. والعادات الطيِّبة.

ولعلَّ البيئةَ المُحيطةَ لها - أيضًا - تأثيرها الكبير في نُفُوس السَّلَفِ وفي سُلُوكياتِهم؛ فبيئةُ الصحراء - بما فيها من قَسوةٍ وشِدَّةٍ ومُعاناةٍ - تُعطي المَرْءَ - من الصِّفات - ما يَتَناسَبُ مع هذه البيئةِ القاسيةِ والمُلهِمَةِ في الوقت نَفْسِه. هذا بخلاف بيئة المدن، التي قد تُكسِبُ الإنسانَ صِفاتٍ أُخرى، ما كانَ ليكتَسِبَها إذا نَشَأَ في بيئة مُختلفة.

تلك البيئةُ.. هي التي رأى فيها طبيبٌ ألماني مُتَنَفَّسًا لمَن يعاني من كَدَر الحياة ومتاعِبِها؛ فقد أخبرني سعادة السفير «صالح بن محمد الغفيلي» سفير (المملكة) في دولة (الإمارات) سابقًا أنَّ طبيبًا ألمانيًّا قال له: أنت ابن الصحراء.. فعلاجُك في أمرين: إمَّا أنْ تخرج إلى الصحراء وتصرخ

بصوتٍ عالٍ - وأعتقد أنه يقصد (الهجيني)[1] - وإمَّا أنْ تَأخُذَ الخَيَارَ الآخَر، وهو الكتابة.. فاختار معالي السفير الخيار الآخَر، فألَّفَ عِدَّة كتب في موضوعات متنوعة ورائِقَة.

ولعل المظاهرَ الشكلية - التي يَفرِضُها الواقعُ الزَّمَني على السَّلَف - لها أيضًا تأثيرٌ كبيرٌ في نُفُوس الخَلَف؛ فترى الخَلَفَ يُحاوِلُون الاستئناس بنَفْس تلك المظاهر الشكلية.. حتى وإن ظَهَرَ - في واقِعِهم وزمانهم - ما يُغنيهم عن تلك المَظاهر!

ولعل اختلافَ الظروف والأزمنة والأحداث.. هي التي أَوجَدَتْ بعضَ الاختلافات اليسيرة - غير الجوهرية - بين جِيلٍ وآخَر، وبين شخصيةٍ وأخرى؛ فثَمَّةَ اختلافٌ - رغم التشابُه - بين شخصية الجَدِّ وشخصية الأبِ رَحِمَهما الله؛ فقد عاشَ جَدِّي مع قبيلته في الجزيرة العربية - كسائرِ القبائل - مَرْحلَتَي: الجُوعِ والجَهْل والتناحُر وعدم الاستقرار الأَمْني، ومرحلةَ الوحدة ولَمِّ الشَّمْل ببناء الدولة السعودية بعد أن قَيَّضَ اللهُ الملك «عبد العزيز» رَحِمَه الله لهذه البلاد ليستَتِبَّ الأَمْنُ فيها وتُصبِحَ (المملكة العربية السعودية) مَقصِدَ العالَمِ الإسلاميِّ كُلِّه، وذلك بفَضْل وُجود جُلِّ البِقاع المباركة فيها - وعلى رَأسِها بَيتُ اللهِ الحرام والمسجدُ النبويُّ الشَّرِيفُ - والتي ضَمَّتها إلى جناحها واستظلَّتْ بِظِلِّها الظَّليل.. وحَمَت حدودَها واحتَمَت بُحُرمَتها!!

أمَّا والدي رَحِمَه الله والذي وُلِدَ عام ١٣٥٥ هـ الموافق ١٩٣٦م.. فقد كانت نشأتُه في ظُروف مُختَلِفَة.. نَعَم مَرَّتْ عليه مرحلةُ شَظَفِ العَيش، ومرحلةُ الطَّفْرَة في عَهد الملك «خالد بن عبد العزيز» رَحِمَه الله حيث كانت هناك دولة تتقدم وتتطوَّر.. وكانت هناك أحداثٌ عالَمية تُؤثِّرُ - قَطْعًا - في العالَمِ كُلِّهِ.. وقَطْعًا أَثَّرَت في نشأة الوالِد رَحِمَه الله وفي شخصيته وطِباعِه وأسلُوبِه الخاص.. لكنها لم تستطِع أن تُؤثِّرَ في ذلك

---

(١) الهجيني: أحد أنواع الحُداء الشعبي الشائع في شبه الجزيرة العربية وسيناء والشام.. وهو شعر غنائي موزون مُقَفًّى يتناول شتى مناحي الحياة، ويُغنى بلحن يتناسب مع حركة سير الإبل وتنقل أخفافها.

الجِين الذي وَرِثَهُ عن جَدِّي رَحِمَه الله - والذي تُوفِّي آخِرَ عهد الملك «سعود» غَفَرَ الله له - من العِزَّةِ والكَرَم والرُّجُولة والشَّهامة والوفاء والنُّبْل والبَذْل.. وغيرها من الصِّفات المُلهِمَة المُستَمَدَّة من رُوحِ العَصْر ومن القيادة السياسية للبلاد، والتي أَلهَبَتْ حماسة الكثيرين في أن يَتَفانَوا في بَذْل الغالي والنَّفيس من أَجْلِ رِفْعَةِ وتَقَدُّمِ (المملكة) في عَهْد الملك «خالد» رَحِمَه الله.

وليس بالضرورة أن يَحمِلَ الابنُ - عن أبيه - نَفْسَ الجِينات الوراثية بنَفْسِ الطريقة ونَفْسِ الأُسلوب.. ليس بالضرورة - كذلك - أَلَا يَحِيدُ الابنُ عن صِراطِ والِدِه ليرسُمَ لنَفْسه معالِمَ صِراطٍ آخَر نتيجة تَغيُّرِ الزمان وزيادة الآمال المُستقبليَّة، وليس بالضرورة - أيضًا - أن يكون مُختَلِفًا اختِلافًا جَذريًّا عن سابقه!

فإذا عَلِمنا أن الإنسان ما هو إلا امتدادُ سَلَفٍ لخَلَف.. فإن هذا لا يعني أنه امتِداد في كُلِّ شيء؛ فقد يَسيرُ الإنسانُ على نَفْس صِراطِ أسلافه.. وقد يَحيدُ عن الصِّراط.. قد يَمزِجُ بين الماضي والحاضِر.. لكنَّ الثَّابتَ أن هناك من العوامل المشتركة والصِّفات المُتَشابِهَة بينَ السَّلَفِ والخَلَفِ الكثير والكثير.

وإذا كانت الحَلْقاتُ المُتَّصِلَة المُنْفَصِلَة بين السَّلَفِ والخَلَفِ تأبى أن تتشابَه تَشابُهًا حَرْفيًّا أو أن تلتقِيَ على صِراطٍ بعَيْنِه.. فإنها لا تستطيع أن تَنْفَكَّ من طِباعٍ مُتَأَصِّلَة ومَوْرُوثٍ أَصِيلٍ يَجعَلُها تَستَقِيمُ - مُرغَمَةً - على صِراطٍ واحِد!!

كما أن الصِّراطَ - الذي استقامَ لشَخْصٍ طِيلَةَ عُمرِه - قد يَعتَرِيه بَعْضُ التغيير ولو كان محدودًا؛ وذلك لاعتِباراتٍ مُختَلِفَة أو لِظُروفٍ جَدَّت؛ فـ«لَيْسَتِ اللَّيْلَةُ كالبارِحَةِ»، و«ليس مَن شاهَدَ كمَن سَمِع»!!

إنَّ النهضة العِلْمية والفِكْرية والثقافية التي حَظِيَ بها أبناءُ الأجيالِ اللاحِقَة لم تَكُن مُتاحَةً لأبناء أجيالٍ أُوَل؛ فلم يَنَلْ أيٌّ من الجَدِّ أو الأبِ حَظَّهما من التعليم بسبب عَدَمِ وُجُودِ تلك النهضةِ في زمانهما، لكنهما قد استطاعا أن يخوضا غِمارَ الحياةِ بما اكتَسَباه من مَوْرُوثٍ وعاداتٍ تأصَّلَتْ فيهما وأيَّدَتها فِطْرتُهما التي فَطَرَهُما اللهُ عليها.

ومِنْ هنا تأتي الفَوارِقُ بين جِيلٍ وآخَر؛ حيثُ تَتَفاوتُ بينهما الفُرَصُ المُتَمَثِّلَةُ في الاستقرار الأَمْني والنهضةِ العِلْميةِ والثقافيةِ والفِكرية.. وكُلِّ ما مِن شأنِه أن يُرسِي قواعِدَ الحضارةِ والتقدُّمِ والرُّقي، والذي كان لِزامًا على الأبناء - الذين تَوَفَّرَت لَهُم مِثْلُ هذه الفُرَص - أن يغتنموها، وأن يَحمَدُوا اللهَ جَلَّ شأنُه عليها، بل وأن يُثَمِّنوا جُهودَ مَن ساهموا - بقيادتهم وبَذْلِهم وعَطائهم وتَفانِيهم - في توفير ذلك الأمْن والاستقرار والتَّقَدُّم.. بأن يسيروا - مثلَهُم - على ذاتِ دَرْبِ الهُدى والرَّشاد.. وأنْ يَخُطُّوا - كسَلَفِهِم - لأنفسهم وأبنائهم وأوطانهم.. مَعالِمَ طريقٍ قَويم.. وصِراطٍ مُستَقِيم.



صِراطي.. مع والدي!!

فَرْقٌ شاسِعٌ كبير.. بين أُولى خُطواتي على صِراطِ الوالد.. وبين آخِر خُطواته - رَحِمَه الله - على صِراطي!!.. بين صَوتٍ جَهْوَرِيّ حازِمٍ يُنادي: «وين سالم؟!».. فأَهُبُّ من مقامي - مُسرِعًا - وقدماي تتحديان سُرعةَ الصَّوْت خَوْفًا وفَزَعًا ومَهابةً وإجلالًا.. وبين استماعي لذات النداء.. بصوتٍ مُغايرٍ أجش آخِرَ أيامه.. فيُلَبِّي قَلْبي وتُلَبِّي كُلُّ جوارحي نداءَه هذا.. «لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ والدي».. لَهفةً وحنينًا ونَجدةً واشتياقًا!!

في أُولى خُطواتي على صِراطه.. لم أكن أُدرِك تمامًا مقاصِدَه وغاياتِه المنشودة.. ولم أكن أَعلمُ أنَّ النَّبتةَ التي غَرَسَها جَدِّي رَحِمَه الله في والدي قد أَخَذَت مِنْ ثرى الأرضِ وغَيثِ السماء ما جَعَلَها تتجَذَّر وتَنْمُو وتُثْمِر وتَقوى في صميم تكوين والدي الذي غذَّاها من خِبراتِه وفِراسَتِه وصَلابَتِه وحِكْمَتِه.. فَتُؤتي أُكُلَها كُلَّ حين بإذن رَبِّها.. وتُطْعِم أبناءَها سَنابِلَ كُلِّ خير.. وترعاهم وتُرَبِّيهم وتصنعهم وتُهدِيهم حدائقَ ذاتَ بهجة!!

ما كُنتُ أعي - حِينَئذٍ - أنَّ الحَزْمَ تربية.. وأنَّ النظرةَ كلام.. وأنَّ الإشارةَ دلالة.. وأنَّ الكَلِمَةَ خَطَرٌ عظيم!!

ما كُنتُ أُدرِكُ - تمام الإدراك - أنَّ هناك أُناسًا - بيننا - يَحْيَون وهم أموات.. وأنَّ منهم مَن يموتُ وهو حَيٌّ!!

ما كان وعيي وإدراكي - قَبْلَ وفاة والدي رَحِمَه الله - على قَدْر وعيي وإدراكي بعد وفاته؛ فقد يكون فَقْدُ عزيزٍ سَبَبًا في أنْ يَعِيَ المرءُ ويَعْلَمَ

ويَدري ويُدركَ كثيرًا من الأمور عندما يَربِط بين ذكرياته مع ذلك الفقيد وأحداثٍ أُخرى مُشابِهة تَمُرُّ في حياته!

وقد تكون قناعاتُك الخاصَّة نحوَ شخصٍ ترى أن له يَد فَضْلٍ عليك – دافِعًا لك في أن تَحذوَ حذوَه.. بل وأن تُدَوِّن من سِيرته معك ومع غيرك ما يَجعلُ الآخَرين يَحظَون بقَدْرٍ وافٍ من الخبرة والدُّرْبة التي تكون مَعينًا لهم يَنهلون منه كيفما شاءوا!!

وليس شرطًا أن يكون ذلك الفقيد العزيز قد نال شَهادةً هنا أو هناك لكي يكون مثالًا يَحتذي به الآخَرون؛ فمع أن والدي رَحِمَه الله لم يَحظَ بفرصة التعليم.. فإنه كان حريصًا - كُلَّ الحِرص - على تعليم أبنائه، رغم شظف العيش الذي ألجأه إلى الخروج للبادية بَحْثًا عن الرزق؛ فهذا - برَأيي - أحد أبرز الأسباب التي دَفَعَتْني للكتابة عنه في هذه السطور.

لقد زَجَّ بي لمواجهة معترك الحياة والغُربة لأتلقى تحصيلي العِلْمي - بل والاجتماعي - باعتباري الابنَ الأكبر الذي يَحرِصُ على تعليمه؛ ليكون رِدْءًا له وعَونًا في مختلف الأعمال التي يرى للتعليم فيها أثرًا عمليًّا ونافِعًا!!

إنَّ انتمائي إلى والدي وعَيشي بداخله يجعلني أتوقف أمام سِرِّ شَغَفِه بالتعليم رغم عدم تلقيه يومًا له؛ فكيف له أن يقترض من صندوق التنمية العقاري لبناء مبنى بـ"الخشيبة"[١] عام ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م بمزرعته، وهو المبنى الوحيد المبني على صندوق التنمية العقاري؛ فقد

(١) الخشيبة: مدينة من مدن "وادي القرى"، تُعرَف في المصادر بـ"سقيا يزيد" أو "سقيا الجزل" تمييزًا لها عن سقيا "غفار" التي تقع على الطريق بين "المدينة" و"مكة". وتقع "سقيا يزيد" جنوب مدينة "العلا" في نقطة التقاء "وادي العلا" بـ"وادي الجزل"، ويُعرَف موقعها اليوم باسم "الخشيبة". وكانت السقيا مدينة لقبيلة "بلي" ولا تزال، وقد عَدَّها «المقدسي» أحسن مدينة بناحية "وادي القرى"، وذكر أن النخيل والبساتين متصلة من قرح إليها. وبمدينة السقيا يلتقي طريق الحج الشامي وطريق الحج المصري الداخلي.

توقف الاقتراض بعدَه على جميع القرى، وأن يطالِبَ الإدارةَ التعليمية بإنشاء المدرسة داخل المبنى ليتلقى فيها أبناؤه وأبناءُ القرية تعليمَهم؟!

هل كانت خَشيَتُه على أبنائه من بُعْدِ المسافة بين منازلهم والمدرسة هي الدافِع وراء ذلك؟، أم كانت مُعاناةُ الابن الأكبر في مُواصَلَةِ سنواته الدراسية من ذلك البُعد هي السبب؟!.. أهي عاطِفَةٌ تَمَلَّكته رغم شِدَّته.. أم هي نظرةٌ استباقية لشكل القرية بعد أن يَنتشرَ فيها التعليم؟!!

إنَّ الواقعَ المستقبليَّ خَبَّرَني أنَّ الوالِدَ رَحِمَهُ اللهُ قد عَرَضَ أرضًا له تَخُصُّه لإنشاء مدرسة حكومية، وذلك عندما جاءت لِجانٌ لتبحث عن قطعة أرض لبناء مدرسة، فأعطاهم والدي رَحِمَه الله أرضًا مساحتها (مائة متر في مائة متر) لبناء تلك المدرسة الحكومية!



أهي رغبةٌ منه في أنْ تكون له صدقةً جاريةً؟.. أمْ هي قناعةٌ بأنَّ عليه دورًا مجتمعيًّا يجب أن يُؤَدِّيَه تجاه التعليم بالقرى؟!

أهي سُنَّة وَرِثها عن أبيه أو جَدِّه ويُريد من أبنائه أن يَستَنُّوا بها؟.. أم تُرى هي معالِمُ صِراطٍ يُريد أن يَخُطَّه لِمَن بعدَه بالفعل لا بالقول؟!

لا زِلْتُ أذكر تلك الأفعال كأنها البارحة.. ولا زِلْتُ أذكر - أيضًا - المناسبات الاجتماعية التي عاصَرْتُها معه.. وكذلك بعضَ المشاهد التي تستدعيها ذاكرتي بَينَ حين وآخَر..

ولعلَّ لهذه المشاهد تأثيرًا كبيرًا على أنْ أكون مُوَفَّقًا - إلى حَدٍّ كبير- في رَسم مَعالِم صِراطي وَوُجهَتي التي سِرْتُ إليها، واضِعًا نُصْبَ عينيَّ جُلَّ المشاهد التي شَاهَدْتُها وعَلِمْتُ بها..

ما زالت المشاهِدُ باقيَةً في عقلي وذهني ووجداني؛ فتلك مناسباتٌ وموائِدُ تُعَدُّ.. وهذه مجالِسُ شِعْرٍ سُلطانُها ونابغتُها أبي.. وهناك ضيوفٌ قادِمونَ، تُسابِق بَسمَتُهم حَفاوةَ الاستقبال.. يَحْمِلُونَ سُمْعَةً طيّبةً لأبي تَرَسَّخَتْ في قُلوبهم مِنْ خلال استماعهم إلى أشرطته المُسَجَّلَة والمُنتَشِرَة بين القبائل العربيَّة.. وأمَامَهُم مَسؤوليَّةٌ كُبْرى يَحْمِلُها الأبناءُ - وأنا منهم - تتَمَثَّلُ في كيفية المحافظة على هذه السُّمْعَةِ العريقةِ.. وَها[1] الوِدَادِ الكبيرِ!!

---

(١) كلمة "ها أو هـَ" المستقلَّة أو المُتَّصِلة باسم الإشارة "هذا، وهذي، وهذه، وهذانِ، وهاتانِ، وهؤلاء...": هي كلمة عربيَّة أصيلة في اللُّغة العربيَّة واللُّغات السَّاميَّة، فإذا اتَّصَلَت باسم الإشارة فهي أداة تعريف مثل "ألْ" الموجودة في الاسم الموصول "الذي، والتي"، وإذا استقلَّت "ها أو هـَ" عن اسم الإشارة فهي نائبة مَنابه بمعناه، فتكون كلمة "ها أو هـَ" بمعنى "هذا أو هذهِ أو هذانِ أو هاتانِ أو هؤلاء" حسبَ معنى سياق الكلام، وقد وردت هذه الكلمة في القراءات القرآنيَّة بالمدِّ والقصر كما ذكر ذلك ابن الجزري في كتاب النشر، ووردت في الحديث الشريف، ووردت في الشعر العربي، ووردت في النقوش الثموديَّة واللِّحْيانيَّة بمدائن صالح، الحِجْر، العُلا، ووردت في النقوش الصفويَّة ببلاد الشام، و لا تزال بعض القبائل العربيَّة تستخدمها إلى يومنا هذا كقبيلة بِلْي و قبيلة جُهَيْنة وطيِّئ وغيرها، وكذلك بعض البلاد العربيَّة كبلاد الشام، ووردت هذه الكلمة في اللغة الآراميَّة واللغة العبريَّة، ولا تزال "ها .هـَ" أداة تعريف في اللغة العبريَّة إلى يومنا هذا. انظر: «الحكاية في النحو العربي، وأسطورة هاء التنبيه»، خالد إسماعيل حسَّان، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م: [ص١٢٩، ١٦٧].

وما يَزِيدُ مِنْ أهميَّة هذه المسؤولية أنَّ تلكَ المجالسَ وتلكَ الحفاوةَ وتلكَ الرُّوحَ الصامدةَ.. لم تُفَرِّق - في الحفاوة - بين مرحلة شَظَفِ العيش ومرحلة الطفرة في عهد الملك «خالد بن عبد العزيز» رَحِمَه الله!

إنها العقيدةُ الراسِخَة والإرثُ المحمود الذي حَمَلَه الخَلَف عن السَّلَف، والذي جَعَلَهم يصنعون ما يصنعون عن طِيبِ نَفْسٍ وخاطِر.. وجَعَلَ شعورَهم بالمسؤوليةِ والأمانةِ باعِثًا لهم أنْ يكونوا على قَدْرها مهما كانت الظروف والأحوال.

إنَّها عقيدةٌ حَمَلْتُها أنا أيضًا وتَحَمَّلْتُ تَبِعاتِها عندما شاهدتُ - بعينيَّ - ما جعلني مُلزَمًا بضرورة الحَمْل وحتمية التحمُّل، والعمل الجاد والصبر الجميل.. لم أنسَ يومًا تلك الضرورة وتلك الحتمية عند بَيع والدي لأي أرض تخُصُّني، وأذكر منها أرضَين زراعيتَين وأرضَين عقاريتَين، فلم يتردد في بيعها كُلِّها، بل في بيع أغلى الأراضي لديَّ.. والتي امْتَلَكْتُهَا وبَنَيتُ عليها بنائي وآمالي وأنا على أعتاب الزواج.. لقد باعها - وَقْتَها - بثلاثين ألفًا مِنْ دون أنْ أُحَرِّكَ ساكنًا!!

إنَّها الحتميةُ والضرورةُ التي دَفَعَتني إلى أنْ أُزيحَ عن كاهِلِه هَمِّي عندما سَأَلَني وَقْتَ زواجي عن احتياجاتي، فتظاهرتُ بعدم حاجتي لأيِّ شيء رغم فاقتي.. فقد استأجرتُ شقةً لم أَملِك قِيمةَ إيجارها، وكانت خاليةً من أيِّ أثاث.. وتَحَمَّلْتُ أنا وزوجتي أعباءَ الحياة!!

لم يكن هذا الحِمْلُ وذاك التَّحَمُّلُ منِّي - حينَئذٍ- عن صلابةٍ وقُوَّة؛ بل كان عن قناعة بأنِّي تابِعٌ لأبي، وتحت إِمرَته، وأنَّه - قطعًا - لن يُؤذِيَني وأنا نَجْلُه، وأنَّ ثَمَّةَ - حتمًا - غايةً لا أُدرِكُها ولا أَعرِفُ حقيقتَها!

وما بَينَ أرضٍ وأخرى في أماكن مُتفرِّقة.. قَرَّرتُ أنْ أنتقل من "جدَّة" إلى محافظة "العُلا"[١] لأكون جِوارَ والدي في وعكته الصحية.. وقررتُ شراءَ عمارة ليسكنها أبي وزوجتاه وأبناؤه، وأنا وزوجتي معهم في نَفْس العقار، لكن لم يتيسَّر لي سوى شراء بَيتٍ بإحدى المزارع بـ"العُلا".. وتمَّ تقييم المزرعة التي بها البيت بمبلغ أربعمائة ألف ريال، تُدفَع على أربع سنوات، والمزرعة مُكَوَّنَة من: مزرعة رئيسة، ومزرعتين منفصلتين.. فقررتُ أن أبيعَ المنفصلتين لاستكمال الأقساط.. وكان إجمالي ما قد جَمَعناه بعد بيع المزرعتين: ثلاث مائة وخمسة عشر ألفًا..

وقَبْلَ حُلول أَجَلِ سداد قِسط السَّنَة قُمْتُ بسؤال والدي: «كم تبقى من المبلغ؟».. فقال: «تبقى ستة عشر ألفًا».. فأُسقِطَ في يدي!!.. لا لِصَرْفِ المبلغ، بل لِحِرْصي على الوفاء بالسداد في الموعد.. وتقبَّلْتُ الخَبَرَ بابتسامة ودَبَّرتُ باقي المبلغ بـ(التي واللُّتيّا)[٢]، وواصلتُ سدادَ الدُّفْعات.. التي كانت آخِرها بعد وفاة الوالد رَحِمَه الله!!

عندما أتذكر تلك المواقف والذكريات.. أَقِفُ أمامَها مُتأمِّلًا؛ «فإنَّ التَّأمُّلَ أصلٌ في إدْراكِ الأمُورِ كُلِّها».. ما سِرُّ ثباتي وانصياعي لِأَمْر والدي وَقْتَها؟.. أهي شِدَّتُه التي تأبى نَفْسي معها الاعتِراض... أم هي هَيبَتُه التي جَعَلَتني أقول له: لَبَّيْكَ مِنْ دون أنْ أسأله عَمَّا يفعل... أم هي استِجابةٌ فِطريةٌ لمَن ربَّاني وعَلَّمَني؟! ذلك يقتضي بمُتأمِّلِهِ جادَّةَ الصَّواب.

وقَبْلَ أنْ أَصِلَ إلى إجابة عن ذلك المُثير.. تستدعي مُخيِّلتي بعضَ الصور والمشاهد المتنوعة التي عايشتُها معه، وبخاصَّةٍ ما يتعلَّق منها

(١) سيأتي - بالقسم الثاني من الكتاب - حديث عن تلك المحافظة باعتبارها من أعرق المحافظات بالمملكة العربية السعودية.

(٢) مَثَل يعني: «بكل ما أُوتيت من جُهد».

بالعمل والتخطيط والبناء؛ فقد كان تعدُّدُ المِهَنِ التي عَمِلْتُ بها مع والدي - وتنوُّعها - عامِلًا مُؤَثِّرًا في نجاح أسلوبه معي بشكل عملي..

لقد تأرجَحَت تلك المِهَن ما بين زراعية ومعمارية ومَهام متنوِّعة؛ فمن قيادة المُعِدَّات الثقيلة والخفيفة (كالشيول).. إلى البناء والتصميم والتشييد والتخطيط.. ثُمَّ إلى (التراكتور) والحراثة ورعاية الأرض، ثُمَّ إلى مَهام أُخرى كثيرة يُسنِدُها إليَّ، حتى ولو كانت بسيطة.

وقُبَيْلَ وُصولي إلى الإجابة.. أَتَذَكَّرُ كيف كان والدي رَحِمَه الله يُسَلِّحُني - في كُلِّ مَهَمَّة - بالموروث الذي اكتَسَبَه هو من جَدِّي وقبيلته، والمُتَمَثِّل في القِيَم والعادات البدوية التي أكسبَتْهُ عظيمَ حُبِّ الناس واحترامَهم لِشَخْصِه بين شتى القبائل العربيَّة.. حَتَّى أَصِلَ - بعد ذلك - إلى درجة نسيان أنَّ هناك سُؤالًا.. أو أنَّ ثَمَّةَ إجابة!!

لقد كان تعلُّقي بالمَهام التي كَلَّفَنيها والدي رَحِمَه الله كتعلُّقِ طالِبِ العِلْمِ بأستاذِه.. وتَعَلُّقِ الحائرِ بمُرشِدِه.. وتَعَلُّقِ الجندي - في معركته مع الحياة - بقائِدِه!!

في أثناء تِجارتي بالسيارات المستعملة.. كَلَّمَني والدي رَحِمَه الله لأُحْضِرَ له سيارة (جيب نيسان).. وإذْ كانت معي سيارة (جيب تويوتا) موديل ٨٩ أَرَدْتُ أنْ أعطيَها له.. لكنِّي وَجَدْتُ أنَّها لا تُناسِبُهُ، فقرَّرْتُ أنْ أبيعها، ولكن لم يحالفني التوفيق.. فقرَّرْتُ أنْ أتركها لدى أخي «سليمان» بـ"الشرقية"؛ ليبيعها، ثمَّ يُرسِل ثمنها إليَّ؛ لأُكْمِلَ المالَ المطلوب، وأشتري سيارة أخرى..

وفي أثناء مغادرتي منزل أخي مُتَّجِهًا إلى المطار للذهاب إلى دولة (الإمارات العربية) الشقيقة.. وبينما نحن في منتصف الطريق تقريبًا.. إذا بأمطارٍ تقذف بشِدَّة (كفرات) السيارة - وكانت من البالون - بِوابِلٍ من المياه التي أَخَلَّت باتزان السيارة..

وبينما نحن نسير.. مازَحْتُ أخي قائلًا: «لو صار للسيارة شيء فهي في ذِمَّتِك، و...».. وما أَكْمَلْتُ جُملَتي تلك حتى انقَلَبَت بنا السيارة وسط طريق يَعُجُّ بالسيارات المُسرعة!!

وبينما أخي يَتَشَهَّد لم أتمالك نَفْسي من الضَّحِك.. وبخاصَّة عندما أَتَذَكَّر مقولتي التي ما أتمَمتُها!!

وبينما كان الخوفُ وهَولُ الحادث يُحاوِلُ أنْ ينالَ مِنِّي.. إذا بي أتذكَّرُ أنَّني صائِمٌ.. فتهدأ نَفْسي وتطمئن.. ثُمَّ أواصِلُ الضَّحِك!!

استقرَّت السيارة على الجانب الذي يليني.. وإذْ بَلَلٌ على قدمي، فحسبته دمًا، فتَبَيَّنَ لي أنَّهُ زيت ناقل الحركة، ثُمَّ خرجتُ أنا وأخي من نافذة باب السائق فوجدنا جمعًا كبيرًا من الناس يقولون: الحمدُ لله على السلامة..الحمدُ لله على السلامة..

فقُمْتُ وقُلْتُ للناس بصوتٍ عالٍ: «اعدلوا السيارة.. اعدلوا السيارة اللهُ يُسلِّمكم»، وأعاننا الله على عدل السيارة بلحظة، فركبنا مباشرة، فشغلت المحرِّك واتجهتُ للمطار، وأثناء ذلك سألني أخي: «ما الذي جاء ببرج الاتِّصال في هذه الجهة؟»، فقلتُ له: «البرج في مكانه، ولكنَّ برج رأسك هو الذي تحرَّك عن مكانه، صَبْرًا قليلًا، فسَيَعُودُ بإذن الله»!

وبعد وصولي للمطار ثُمَّ إلى "دُبَيّ" اتصلتُ بأخي لأطمئن عليه.. وأثناء عودتي إلى الوطن ظَلَلْتُ أُفَكِّرُ فيما سأقوله لأبي.. ولكن آنسني - في تفكيري - أنَّه قد رَبَّانا على الصِّدْق؛ فـ«الصِّدْقُ مَنجاة».. فقرَّرتُ أنْ أبوحَ له بحقيقة ما حَدَث!!

وبنظرة السائِل المُستَغرِب المُستَنكِر.. أَجَبْتُ عَيْنَي والدي عن السؤال الذي لم يَنْطِقْ بهِ لِسَانُهُ.. وأخبَرْتُهُ بما صار لي ولأخي في الحادث.. وكُلِّي ثِقَةٌ في أنَّ كلامي سَيَمَسُّ حاسَّةَ الأُبُوَّةِ فيه ويجعَلُهُ رقيقًا معي.. حريصًا

على الاطمئنان عليَّ وعلى سلامتي، ولو بكلمة «حمدًا لله على السلامة».. ولَكِنَّ ذكاءَه الاجتماعي.. وشخصيتَه الجذَّابة الآسِرَة أَبَتْ إلَّا أنْ تكتفي بتَفَحُّصي بِعَينٍ مُطمَئِنَّة واثِقَةٍ في قضاء الله وقَدَره.. وأنَّ «ما شاءَ اللهُ كانَ.. وما لم يشأْ لم يَكُنْ»!!

فَرْقٌ شاسِعٌ كبيرٌ أيضًا.. بينَ أنْ تحيا حياتَك لوالدك.. وبين أنْ يحيا حياتَه لك!!.. بينَ أنْ تجعل نَفْسَك ومالَك وطاقتَك تحت إِمْرَتِه.. وبينَ أنْ تَضنَّ بها عليه، بعد أنْ كان سببًا في أنْ تكون رَجُلًا تَمَّ صُنْعُه على مَواقِدِ العِفَّة ومَوائِد الكَرَم!!

وليس سهلًا على كُلِّ شَخْصٍ أنْ يَتَقَبَّل المفاجآتِ الصادِمة التي قد يصنعها والدُه.. ولكن ليس صعبًا أنْ يَتَقَبَّلَها بصَدْرٍ رَحْبٍ إنْ آمَنَ حَقًّا أنَّه مِلْكُ والده؛ لأنَّه مهما فعل.. فلن يستطيع أنْ يُوَفِّيَه حَقَّه!!

اشتريتُ سيارة (جيب صالون) بالدَّين بمبلغ خمسة وتسعين ألفًا.. وانتقلتُ بها - مع زوجتي وبعض أبنائي - من "العُلا" إلى مزرعة والدي بقرية "الخشيبة".. فإذا بأحد الأشخاص يلحق بنا (يطلبني) بإعطائه مِفتاحَ السيارة؛ ليُعطِيَني مِفتاح سيارته (الهاي لوكس)، لأنَّ والدي قد باع له سيارتي!!

لم أَعِ - وَقتَها - ما قاله.. فسألتُه: «والدي باعَكَ سيارتي؟!».. قال: «نعم».. فقلتُ له باسِمًا: «تَفَضَّل المِفتاح»!!

إنَّ كُلَّ موقف مَرَّ بي في حياتي مُرتَبِطٌ ارتباطًا وثيقًا بموقف مَرَرتُ به في حياة الوالد رحمةُ الله عليه؛ فكُلُّ ما تَحَلَّيتُ به مِنْ إصرارٍ وعزيمةٍ وإرادةٍ وغيرها مِنَ الصفات التي ساهَمَت فيما أنا عليه اليومَ وما حَصَّلتُه من معارف – كُلُّ ذلك إنَّما يَنبُعُ مِن مَعينِ المواقِف والتَّجارِب التي عاصَرتُها معه!!

فَرْقٌ آخَرُ ظاهرٌ.. بين مُعامَلَةِ والدي لإخوتي الذكور وتربيته لهم تربيةً قوية.. وبين مُعامَلَتِه وتربيته لي تربيةً أقوى باعتباري الابنَ الأكبر.. وهي إنْ كانت معهم لا يمكن وَصْفُها باللين ومعي بالشِّدَّة إلا أنه يمكن وَصْفُها - على حَدِّ قول «محمد أنور السادات» رئيس (مصر) الأسبق في مَعرِض حديثه عن (الديموقراطية) التي يحتاجها العرب - بأنها: «ديموقراطية لها أنياب».. لكنها كانت معي أنيابًا على مائدة (الديموقراطية)!!

ومع أنَّ (الديموقراطية) كانت بعيدة - كُلَّ البُعد - عن حياة آبائنا أو حياتنا معهم.. فإنجزا حياتي - بصفة خاصَّة - مع والدي قد تَحَرَّرَت من بعض القيود التي قد تَفرِضُها (الديكتاتورية)!!

بعد إفاقَةِ والدي رَحِمَه الله من غيبوبةٍ استَمَرَّت عشرين يومًا بمستشفى التخصصي بـ"جدَّة".. أَسْنَدَ لي مهمة تزويج أخي غير الموظف، فقُلتُ: «تَمَّ بإذن الله»..

ورغم الضائقة المالية التي كُنتُ بها إلا أنَّ مُعَلِّمَةً خَيِّرَةً زميلةَ زوجتي ومن أهل "العُلا" اسمُها الأستاذة «زهرة بنت أحمد الغيثي».. قد أَقْرَضَتْنَا ثلاثين ألفًا.. وقَبْلَ ذلك أَقْرَضَتْنَا في موقفٍ آخرَ، فلها مِنَّا الشكرُ والتقديرُ، وأسألُ الله تعالى أنْ يجعل ذلك في موازين حسناتها.. فتلك الأستاذة تُعَدُّ إحدى النماذج المميزة للمرأة السعودية.. ثُمَّ جَمَعتُ من والدي ومن إخوتي مبالغَ أخرى لِنَكُونَ جاهزِين.. وقَبْلَ موعد الزواج فاجأني أبي بطَلَب.. أنْ أترك منزلي لأخي العريس، وعندما سألتُه عن السبب لأوَّل مَرَّة في حياتي.. قال كَلِمَتَهُ التي غَيَّرَتْ مَسارَ حياتي كُلِّيًّا، وصِرْتُ بعدَها شخصًا لم أعهدْهُ مِنْ قَبْلُ.. قال: «أنت لك جُنحان.. وأخوك ما له جُنحان»!!

خَرَجتُ من المنزل طائِعًا راضيًا أنا وزوجتي بارك الله فيها.. خَرَجْتُ وأنا أَشعُر أنَّني وإن كنتُ فَقَدْتُ المنزل.. إلا أنَّني - بكَلِمَته تلك - قد امتَلَكْتُ الفضاء!!

ما زِلْتُ أَذكُرُ تلك الكَلِمَة التي حَوَّلت مسارات حياتي من النقيض إلى النقيض.. من زَيفِ الظاهِرِ إلى صِدْق الباطِن.. من حُبِّ الأنا إلى عِشْقِ الآخَر.. من ذُلِّ الطَّمَعِ إلى عِزِّ القناعة.. من ضَعْفِ الشَّكِّ إلى قُوَّةِ اليقين.. من قَصْدِ الحقِّ إلى ابتغاء التَّحَقُّق.. من أَسْرِ الدنيا إلى سِرِّ الملكوت.. من أرض ضاقت عليَّ إلى أرضِ الله الواسِعَة!!

وما زِلْتُ أَذْكُرُ قولَه: «وين سالم؟» عند دخوله المستشفى.. وكَأَنَّ «سالمًا» طبيبُهُ الخاص الذي يَعْلَمُ عِلَّتَهُ وطُرُقَ علاجِهِ!

وما زِلْتُ أذكرُ أَوَّلَ وآخِرَ دمعة ذَرَفَتْها عيناي عَقِب دخوله في غيبوبة بمستشفى التخصصي للمَرَّةِ الثانية بعد عام.. فبينما كان الأطباء مُصطَفِّين حَوْلَه مُحاوِلِينَ إفاقَتَه.. وفي صَحوة مَوته.. سألتُه عن هذا وذاك.. فإذا به يتذكَّرُ الدكتور «صالح» الذي عالَجَهُ بالمَرَّةِ الأولى.. فأكمَلْتُ تعريفي له برئيس الأطباء والمدير المناوب، اللذَينِ ذهبا لتجهيز غرفة العناية!!

وبينما كُنْتُ أهْمِزُ رِجْلَيْهِ فإذا به يقول: «والله يا سالم إنَّ الله راح يُصلح لك عيالك»!!.. فلم أتمالك نَفْسي من أَثَرِ الكلمة في نَفْسي، فشَعُرْتُ أنَّهُ راضٍ عنِّي؛ فبكيتُ بُكاءً لا أدري كيفَ أَحَسَّ بهِ أو شَعَرَ بهِ.. فإذا به يقول: «لا تُحْزِنِّي.. لا تُحْزِنِّي» بنبرة قويَّة!!

لم أَدْرِ - وَقْتَها - هل كانَ أَمْرُه هذا إشفاقًا عليَّ وتعزيةً لي.. أمْ كانَ نهيًا وزَجْرًا كي لا أكونَ ضعيفًا مهما كان الموقفُ عصيبًا؟!!

إن قِلَّةَ حِيلتي - في تلك اللحظات - هي التي أَلجَأَتْني إلى البكاء خِلْسَة؛ فماذا عساه أن يفعل «سالِم» وقد أدرك أنَّ أباه على أعتاب حياته الأخرى؟!.. إنَّهُ يَشْحَذُ طاقَتَهُ وهِمَّته التي كانت... لكنها لا تستجيب.. يَستَحِثُّ قَلْبَه وعَقْلَه لفِعلِ شيء كان قَبْلًا ولا إجابة.. تستدعي عيناه أحدًا غيرَه يُسعِفُ ولَكِنْ لا مُجيب.. فما استجابت لـ«سالم» حاسَّةٌ واحدةٌ من حواسِّه التي سَخَّرها - مع كل ما يَملِك - لِخِدْمَةِ أبيه في

سالِفِ الأيام.. لم تستجِبْ لـ«سالم» سوى حاسَّةٍ واحدةٍ فقط ليست - أصلًا - مِنْ حواسِّ الإنسانِ الخمسِ.. البكاءُ!!

لقد كان قولُه: «لا تُحزِنِّي» آخِرَ ما سَمِعْتُ، وقَبْلَ أنْ يأسِرَني البكاءُ تَمالَكْتُ نَفْسي بعد أنْ شَعُرتُ بأنَّه يريد أنْ يُوصي.. وأخبرني الأطباءُ أنَّه لا أملَ، وأنَّهُ لا شيءَ أمامَهم سوى نقله من الطوارئ إلى غرفة العناية المركزة، ثُمَّ وضعه على جهاز التنفُّس الصناعي الواصِلِ إلى القصبة الهوائية؛ حيثُ إنَّ الرئة أصبحت وظيفتها صِفْرًا، فأخذتُ أُردِّدُ على مَسامِعه ما تَوَقَّعْتُ منه سَماعَه.. مُمسِكًا يَدَه التي أرخاها في سلام.. ولسانُ حالِه يقول: «الآنَ أموت وأنا مرتاح»!!

وبَعد وضعه على التنفس الصناعي بيومين.. بتاريخ ١٤٢٣/١/١٩هـ الموافق ٢٠٠٢/٤/٢م فاضت رُوحُهُ إلى بارئها عَزَّ وَجَلَّ.. فبَكَت أرضٌ مِنْ تحتي وسماءٌ مِنْ فوقي.. وتغيَّرَت ألوانُ الأشياء مِنْ حَولي.. واختَفَت مَعالِمُها، فما عُدْتُ أُبصِرُ شيئًا، وأحْسَسْتُ يُتْمًا ووَحدَةً ووَحْشَةً لم أعهدها مِنْ قَبْلُ.. ثُمَّ تَذَكَّرْتُ آخِرَ ما قال.. فجَعَلْتُها مَهمَّةً أخيرةً وَجَبَ عليَّ تَنْفيذُها.. فَطَرَحْتُ الحُزْنَ أرْضًا.. وقُمْتُ بواجِبات الجنازة!!

بَعْدَ ذلك قُمْتُ - مع إخوتي - بسداد دَينِه الخاصّ ودَينِه العام المتعلّق بقيمة المنزل الذي بناه والدي عن طريق البنك العقاري، وكان البيتُ آيِلًا للسقوط بسبب عدم معرفتهم - وَقْتَها - بأساسيات البناء.. فصدر له قرار إزالة مع بقاء قيمته دَينًا على الوالد..

وقد تَقَدَّمْتُ إلى وَزارة المالية طالِبًا إعفاءَ الوالد مِنْ هذه القيمة، وعَلِمْتُ أنَّ الحَلَّ الوحيد بِيَدِ الملك «فهد» رَحِمَه الله.. وكان حِينئذٍ بـ"جنيف"، فاضطررتُ للسَّفَر إلى (سويسرا) في تاريخ ١٤٢٣/٥/١٩هـ الموافق ٢٠٠٢/٧/٢٩م، فعَلِمْتُ أنَّ الملك «فهد» رَحِمَه الله يُجري عملية.. فلم يُسمَح لي بالدخول!!

بعدَها قابلتُ الأمير «عبد العزيز بن فهد» رئيس الديوان.. وسلَّمْتُهُ معروضَ طلب الإعفاء، وذَكَرْتُ له أنَّ الوالد رَحِمَه اللهُ قد أعطى من حَقِّه الخاص أرضًا لبناء مدرسة حكومية، عسى أنْ يشفع ذلك له في الإعفاء، فطمأنني وبَشَّرَني بالإعفاء الذي تَمَّ بعد ذلك بفضل الله وعونه.

وبَعْدَ أنِ اطْمَأنَنْتُ لهذا الإعفاء شَعُرتُ بسعادة غامرة.. وأحسسْتُ أنَّ أبي قد ابتسمَ لي وهو في قَبره.. بل وتَبَسَّمَتْ لِيَ الدنيا بأَسْرِها.. وشَعُرْتُ أنَّ طاقةً وحماسةً قد اعْتَرَتْنِي.

وفي أثناء وجودي في "جنيف" كان خادِمُ الحَرَمَين الشريفين الملك «سلمان بن عبد العزيز» - وكان حينَذاك أميرًا لـ"الرياض" - كانَ في "جنيف" يتلقَّى العزاء في ابنه «أحمد» رَحِمَه الله، فذهبتُ لِأُعَزِّيَه، وبينما أنا جالِسٌ في مجلِسه العامِر.. سَمِعتُه يتحدثُ عن الحياة الأولى، وأنَّ الناس كانوا يشربون الماء من الغدران بوضع طرف العمامة كـ(فلتر).. أمَّا الآن فهم يشربون مياهًا مُحلَّاة ومُصفَّاة..

وقد أحالني هذا الحديث الشَّيِّق وتلك المقارنة المُمتِعَة إلى تَذَكُّر تلك الحياة الأولى التي عاشها والدي رَحِمَه الله، وكيف كانَ يُعاني هو وغيرُه شَظَفَ العَيش.. حتى وإن كان في أبسط الأمور وأهمها، والتي تُبقيه - وغيرَه - على قَيدِ الحياة!!

إنَّهُ لَفرقٌ كبيرٌ.. بين حال الناس قَبْلَ السبعينات، وحالِهم بعد تلك الفترة.. فبَعْدَ فَضْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ كان للدولة فضلٌ كبير فيما نحنُ فيه الآن مِنْ يُسْرٍ وتيسيرٍ، ونَماءٍ وتنمية؛ فقد امتدَّتْ يَدُ التعميرِ لكُلِّ مكان.. وشَمِلَ الخيرُ والنَّماءُ جميعَ الأرجاء.

وبفضل الله تعالى استطاعت الدولة السعودية أن تهتمَّ بأبنائها على كافة المستويات، وأسهمت في رِفعةِ الوطن والارتقاءِ بشأنه بين غيره من سائر البُلدان، حتى صارت (المملكة العربية السعودية) لها من الموارد - والقُدرة المادية - ما يُحَقِّقُ طُموحَ أبناء الشعب السعودي وآمالَه، وبخاصَّةٍ الخِدْمات الأساسية التي ما كانت لتتوفر لجيل السبعينات لولا هذه الجهودُ المُبارَكةُ التي لَفَتَت أنظارَنا إلى حال الأجيال السابقة - ومنهم جيل والدي رَحِمَه الله - وكيف كانوا يُعانون في سبيل توفير هذه الاحتياجات!!

لقد كانت كُلُّ حياتي مُرتَبِطَةً ومُتعَلِّقَةً بأبي رَحِمَه الله.. فكُلُّ مَوقِفٍ يَمُرُّ بي أَتَذَكَّرُه فيه، وكُلُّ حادِثة تَحدُثُ في حياتي له فيها قَولٌ أو فِعلٌ أو إشارةٌ، وكُلُّ حديثٍ أَسمَعُه يكون له معي فيه نصيبٌ وذِكرى!!

وكانَ مِنَ المُعَزِّينَ في مَجْلِسِ خادِمِ الحَرَمَينِ الشريفَينِ الملكِ «سلمان ابن عبد العزيز» حَفِظَه الله أحدُ وزراءِ دولة (البحرين)، وكان مَلِكُ (البحرين) جلالة الملك «عيسى بن حمد آل خليفة» موجودًا - وَقْتَها - في "جنيف"..

فسأل الملكُ «سلمانُ» هذا المسؤولَ: «أَجِئتَ في إجازة أم جِئتَ مع المَلِك»؟.. فقال المسؤولُ: «بل في إجازة»، فقال الملك «سلمان»: «انتبه أن تذهب للمَلِك.. استمتِع بإجازتك»، فابتسمنا - جميعًا - مع احتفاظنا بسَمْتِ المُناسَبَة.. غَيرَ أنِّي تابَعْتُ خادِمَ الحَرَمَينِ الشريفَينِ بعَينٍ قد أحسَّتْ أنَّ لهذا الكلام ما بعدَه.. فقد وَجَدتُ أنَّه يستدعي من ذاكرته ما يتعلَّقُ بالحَدَث الحالي..

ذَكَرَ الملكُ أنَّهُ أخذ - ذاتَ مَرَّة - إجازةً، وسافر مع الأُسرَة إلى "باريس"، وكان المَلِكُ «خالدٌ» رَحِمَه الله في قَصْرِهِ بـ"جنيف"، فذهب إليه ليُسَلِّمَ

عليه، فإذا الملكُ يقول له: «يا سلمان.. لا تذهَبْ؛ لأنَّكَ سَترافِقُني إلى ليبيا»!!

ومن هذا الحديث تعلَّمنا من المدرسة السلمانية، وأدركنا أهمية الأسرة ودورها في المجتمع، وكذلك عَرَفنا المعاني السامية لطاعة ولي الأمر، كما لفتَ انتباهَنا بشدَّة حِرصُ الملكِ حَفِظَه الله على أنْ يَلفت أنظارنا إلى أهمية الإجازة، وما ذلك إلا لحرصه الأكبر على أهمية العمل.

إنَّ المرءَ لَيَسْتدعي مِنْ ماضيهِ وذكرياتِه وتَجارِبه وخبراتِهِ ما يجعله قادرًا على مُجابَهةِ الحياة والتعلُّم مِنْ دروسها.. ثُمَّ يُحاوِلُ - بعد ذلك - أنْ يُضيفَ إلى تلك الخبرات وتلك التجارِب وتلك الذكريات – ما يَجعَلُه قادرًا على مُواصَلَةِ السعي والتَّحَمُّل.

ولا شكَّ أنَّ رحلة "جنيف" - وَحْدَها - قد أكسبَتني كثيرًا مِنَ الخبرات والتجارِب والذكريات؛ فقد سَنَحَت لِيَ الفرصةُ أنْ أُقابِلَ صاحِبَ السُّمُو الملكيّ الأمير «نايف بن عبد العزيز» وزير الداخلية آنذاك رَحِمَه الله، حيثُ رأيتُه يَقضي حاجاتِ الناس، مُنصِتًا لهم في هدوء ورزانة عجيبَيْنِ.. فإذا نَطَقَ فإنَّما يَنطِقُ عن حِكْمةٍ وحِنْكةٍ، فتُقْضَى الحاجاتُ.. وتنقَضِي الحوائجُ بإذن الله.

وممَّن شَرُفتُ بمُجالَستِهم هناك: سُمُو الأمير «عبد الرحمن»، وسُمُو الأمير «متعب بن عبد الله»، وسُمُو الأمير «محمد بن فهد»، وكذلك التقيتُ بسُمُو الأمير «سعود بن فهد»، وبغيرهم من الأمراء الأفاضل.

وبعد أن عُدْتُ إلى أرض الوطن - بعد قضاء أسبوع لا يُنسى في (سويسرا) - سَعَيْتُ إلى استرضاء كُلِّ مَنْ كانت له صِلَة بالوالد رَحِمَه الله، وكأنِّي تَخَيَّلْتُ ما يُريدُه أبي رَحِمَه الله وهو في قَبْره؛ فذهبتُ - بعد استرضاء زوجاته - وبخاصَّةٍ المُطَلَّقات - إلى بعض العُمَّال وكانوا اثني عشر عاملًا يعملون لدى الوالد رَحِمَه الله ظَنًّا مِنِّي أنَّه كان شديدًا

عليهم، وحِرصًا مِنّي على استرضائهم، فقُمْتُ بزيارتهم جميعًا بقرية "بني عبيد" بمحافظة "المنصورة" بـ(مصر)، فوَجَدتُ منهم تسامُحًا كبيرًا، وظَلَّ أحدُهم يُعَدِّدُ مَحاسِنَ الوالد وأفضالَهُ حَتَّى ارتاحَتْ نَفْسي وهَدَأَت خواطري، وعَلِمْتُ أنَّ شدَّةَ أبي معهم ما كانت إلا تقويةً لهم، وأنَّ قسوته معنا لم تكن إلا زَجْرًا وحَزْمًا.. فتَذَكَّرْتُ قَولَ الشاعر:

فَقَسا ليزدجروا.. ومَن يَكُ حازِمًا..

فَلْيَقْسُ أحيانًا على مَن يَرحمُ!!

إنَّ القَسوةَ - التي نَظُنُّها قَسوة - مِنْ آبائِنا وأُمهاتِنا ما هي إلا قَسوةٌ رحيمة.. قَسوةٌ تصنعُ الرِّجال وتُؤَهِّل النساءَ لأن يكونوا - جميعًا - على قَدْر المسؤولية تجاه أبنائهم وأوطانهم.

إنَّها القَسوةُ الحانيةُ التي تَضَعُ المرءَ مِنَّا في مَصافِّ العلماء والقادة وخُدَّام الأوطان في كُلِّ وقتٍ وحين.. إنَّها القَسوةُ التي ذَكَّرتني بأحد الأساتذة الكِبار بجامعة القاهرة ومَجْمَع اللغة العربية، والذي زَارَه والِدُه يومًا قادِمًا من إحدى القُرى.. وكان والدُه قاسيًا جدًّا في تربيته لأبنائه..

وبينما كان الحفيد يلعب.. قال الوالدُ القَرَويُّ لابنه أستاذِ الجامعة: «أنا رجل لا أقرأ ولا أكتب.. وطَلَّعت من تحت يدي دكتور جامعة.. إنت بقا ناوي تطلَّع ابنك إيه؟!».. فصُعِقَ سعادة الأستاذ من هَولِ الكلمة!!

إنها التربيةُ في أسمى صورها وأرقى معانيها.. إنها الذكرى التي تَظَلُّ عالِقةً في أذهان الأبناء ووجدانهم.. إنها النَّبْع الذي تجري من خلاله أنهارُ العطاء والبَذْل والنَّماء.

لقد ظلَّت ذكرى والدي رَحِمَهُ الله وأقوالُه وأفعالُه باقيةً في ذهني ووجداني، واستمرَّ السَّعيُ - على صِراطِ الوالد - في أثناء سَيري على

صِراطي.. فأَوقَفتُ عنه جُزءًا من مزرعة "صدر" فيما يُقارِب المائةَ نخلة والباقي تركتُه لإخوتي، عِلْمًا بأنَّني مستور الحال، فعوَّضني الله بالكثير وبارك لي فيه.

وإنَّه لَعَهد عليَّ أن أبذُلَ جُهدي لكي تستمرَّ الرسالةُ التي حَمَّلَني إيَّاها.. فهأنذا أقوم بدوري بتحميلها أكبرَ أبنائي حتى يقوى - هو أيضًا - على تَحَمُّل هذه المسؤولية وتلك الرسالة.. حتى وإن كنتُ - لا أزال - على قيد الحياة!!

قد ماتَ قومٌ.. وما ماتَتْ مَكارِمُهُم..

وعاشَ قومٌ.. وهُمْ في النَّاسِ أمواتُ!!

(فيلا) الأحلام!!

بينما كُنْتُ مع والدي رَحِمَه الله بالمستشفى التخصصي في "جدة".. وكان في غيبوبة تامَّة.. كَلَّمَني الأخ العميد «منصور سعد منقرة» وأَخبَرَني أنَّه تَسَلَّمَ (فيلا) مِنْ (فلل) الإسكان وباعها بتسعين ألفًا، ونَسِيَ أنِّي قد أَوصَيتُه أَنْ يُخبِرَني إذا بدأ توزيع الإسكان؛ إذْ إنِّني مُحَوِّلٌ قَرْضي على الإسكان، وخَشِيْتُ - حينها - أَنْ يَفُوتَني التَّخصيص؛ فحَثَثْتُه على أهمية التأكُّد من وُجود اسمي في الكشوفات؛ فإِنَّ ثَمَّةَ أَمَلًا فيها.. وإِنْ فاتَ الأوانُ فاللهُ يُعَوِّضُني عنها.

وبِفَضْل من الله وَجَدَ اسمي آخِرَ الكشوفات.. فحَمِدْتُ اللهَ حَمْدًا كثيرًا.. ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إلى "المدينة".. ونَزَلْتُ شارع «محمد بن عبدالعزيز» الواقِع بين الإسكان و"الخالدية"..

تَوَقَّفْتُ بسيارتي المُستأجَرَة - في الصباح الباكِر قَبْلَ الدَّوام - بِأَحَد المطاعم، وتناولتُ الفُطور.. ثُمَّ جَلَسْتُ أَتَأَمَّلُ الإسكان الواقع بالجِهَة المُقابِلَة، وأُمَنِّي النَّفس بالحُصُول على مَوقع جَيِّد لـ(الفيلا) خاصَّتي.. بل وارتَفَعَ سَقْفُ طُمُوحي وآمالي.. فتَمَنَّيتُ الحُصُول على تلك (الفيلا) المقابلة الواقِعَة - مُباشَرَةً - على الشارع الرئيس، الذي يَحمِلُ اسمَ الأمير «محمد بن عبدالعزيز» بِعَرض ٤٠ مترًا، ورغم استبعادي لتحقُّق ذلك الأَمْرعلى أرض الواقِع.. إلا أنَّني حَقَّقْتُ الأَمْرَ في خيالي!!

لقد تَصَوَّرْتُ أنِّي بالفعل حَصُلْتُ عليها وأَنَّ هؤلاء الرِّجال الجالسين هناك في ظِلِّها قد جاءُوني - ضيوفًا - لِأَقُصَّ عليهم أنباءَ صِراطِ والدي الذي يَرقُدُ على فِراش المَرَض، ولكي أُعلِمَهم - عَمَلِيًّا - كيف كان صِراطُه في إكرام ضُيوفه وأصدقائه!

قد يكون الواقع - الذي يحياه المَرْءُ مِنَّا - مُخالِفًا لِطُموحِه وآمالِه.. وقد تجري الرِّياحُ بما لا تَشتهي السَّفِنُ.. قد يمضي كُلُّ شخص في طريقٍ يَعلَمُ أنه صعب التحقيق.. لكن - ومع كُلِّ ذلك - قد يَبني هذا الشخص في خياله مُدُنًا بأكملها، وقد يُحقِّقُ ولو جُزءًا من تلك المدن على أرض الواقع لو آمَنَ بأَنَّ كُلَّ شيء قد يتحقَّق.. حتى وإِنْ كان - في ظاهره - بعيدَ المَنال!

بعد عَودَتي إلى أرض الواقع.. جاءت إدارة الصُّندوق، وكانت أرقام (الفلل) داخِلَ أسطوانة تُلَفُّ باليد ونُشاهِدُ بها الأوراق التي بها مواقع (الفلل).. وحين جاء دَوري سَمَّيْتُ اللهَ وأَدَرتُها، ثم فَتَحَ الموظف بابًا صغيرًا بالأسطوانة، فالتَقَطْتُ - بلا تَرَدُّد - رقم (الفيلا) فإذا بها (الفيلا) التي بَنَيْتُها في خيالي!!



فلل الإسكان قبل تحويلها إلى تجاري

ما بَعْدَ الخَيال!!

لم أَتَصَوَّر لِلَحْظة.. أَنْ تكون تلك (الفيلا) من نَصيبي.. لقد كان ذلك تعويضًا من الله، الذي فَوَّضْتُ كامِلَ أَمْري إليه تبارك وتعالى، ودَعَوتُه - مُخلِصًا - أَنْ يَهبَني من لَدُنْه فَضْلًا ونِعْمَة، واستَشْعَرْتُ أَنَّ هذا العطاء يَعكِسُ رضا الوالدَين وصِلَةَ الرَّحِم.

لم أَكْتَفِ بتحقيق تلك الغاية.. فسَعَيْتُ إلى غاية أُخرى لها ما بَعْدَها؛ فقد وَضَعْتُ تخطيطًا هندسيًّا لـ(الفيلا) لِتَتَحَوَّل من سَكَني إلى تِجاري، حتى أصبح أُنموذَجُ التخطيط - بعد سَنَة واحِدَة - قاعِدَةً للحالات المُماثِلَة.

لقد خاض معي هذه التَّجْرِبَة - خُطْوَةً بِخُطْوَة - الأخ «سامي محمد منقرة»، وباشَرَبَعضَ المَهام بنَفْسِه.

ولِكَون (الفيلا) تَقَعُ على شارِع تِجاري.. فَكَّرْتُ في أَنْ أُنشِئَ مَحلّات تِجارية، وكانت (فلل) الإسكان مبنية من حوائط حاملة يَصعُب فَتْحُها من جِهَة، ومن جِهَةٍ أُخرى لا نَعلَمُ كيف يُمكِنُ أَنْ يَتِمَّ الفَتْحُ هندسيًّا!!

ولِرَغبتي المُلِحَّة في تنفيذ الأَمْر.. اتَّجَهْتُ للمكاتب الهندسية، وحاوَلْتُ أَنْ أَجِدَ حَلًّا، وكانت شَرِكَة الجزيرة شريكة مع شَرِكَةٍ أجنبية في بناء الإسكان من قَبْلِ عشرين عامًا وَقْتَها؛ فبَحَثْتُ الفِكْرَةَ مع المهندسين، فَوَجَّهني أَحَدُهم إلى مكتب هندسي في "الرياض" قام بعمل دراسة إنشائية لفتح الحوائط الحاملة التي تُبْنَى كامِلَةً من الحديد والخَرَسانة، وكانت تلك الدراسة موجودة ومحفوظة بالأمانة، ولكن تَمَّ نِسيانُها مع الزَّمَن..

أَحضَرْتُ المُخَطَّط وتَأَكَّدْتُ أَنَّ معي تصريحًا بأنَّ (الفيلا) كلَّها تِجارية؛ فليس هناك إشكال، أمَّا بالنسبة لفتح بوابات خارجية فهذا الأَمْر ليس معي تصريح به.. على كُلِّ حال بَدَأتُ العمل بالمكان أمام الجميع الذين اعتقدوا أَنَّ معي تصريحًا؛ حتى الأمانة ذاتها اعتَقَدَت ذلك!

ثم وَصَلَ الأَمْرُ إلى معالي الأمين، وكان رَجُلًا فاضِلًا ومَسؤُولًا ومُحَنَّكًا، فقابَلْتُ معالِيَه، وأَخبَرْتُه أنَّ لَدَيَّ رُخصَةً تِجارية، وأنّي قُمْتُ بِفَتْح حائط (الفيلا) على أساس دراسة هندسية تَمَّ إعدادُها للإسكان من عشرين عامًا، وقُلْتُ له: إنَّ تلك الدراسة موجودة عِندَه في الأمانة؛ فأَدْرَكَ -بحِنْكَتِه- الأَمْر، فأحال تلك المُعامَلَة للوكيل لِعَمَل دراسة تكون قاعِدَةً للحالات المُماثِلَة، وبَعْدَ الدراسة صَدَرَ القرار!



الفيلا بعد أن أصبحت تجارية

لقد أصبح الشارعُ كلُّه مَليئًا بالمَحلَّات التِّجارية التي جَعَلَتِ (الفلل) تتحوَّل من مُجَرَّد (فلل) عادية.. إلى (فلل) تِجارية، وارتَفَعَ سِعْرُها من تسعين أَلْفًا.. إلى ما يُقارِبُ المليونَي ريال سعودي، وارتفعت قِيمةُ الإيجار من ثمانية عشر أَلْفًا إلى أكثر من عشرة أضعاف!!

مَورُوثُ والدي!!



والدي على أحد هجنه الأصيلة

إنَّ العباد هُم شُهود اللهِ في أرضه.. وإنَّ الشِّعْر لَيختصر مسافاتٍ كثيرة من التعبير؛ فهو ديوان العرب، وهو الذي حَفِظَ لنا اللغة العربية العريقة، وعَبَّر عن معانيها، وبخاصة الشِّعْر الجاهلي المُتَقَدِّم، وقد قيل عنه: «الذي يزهد في الشِّعْر العربي فكأنما يزهد في القرآن الكريم».

على أن ما سوف أتطرق إليه في هذا الجزء هو موروثٌ من الشِّعْر الشعبي ممَّا قيل في والدي رَحْمَةُ اللهِ عليه، وَلْيُسامِحْني الشعراء في اختصاري لبعض الأبيات من قصائدهم.

قال الشاعر «منيف مناحي منقرة»:

يا ليت أبو سالم يعوّد شبابه	ويشيب منّا في المقابل ثمانين
ما هو برخصٍ فالأهل والقرابه	اقرابنا غالين والأهل غالين
مير الأصابع تختلف ما تشابه	واشباه ابو سالم تراهم قليلين
هذا الكريم اللي ما ينصك بابه	ريف وربيع الضيف طلق الحجاجين

وقال «رشيد المطرفي البلوي» رَحِمَه الله:

فنجال ابوسالم على الكيف مشهاه	مزينه طيبه وعرف المعاني
الكل قادر بالكرم يذبح الشاه	لكن فيه مميزات ثواني

<u>وقال «محمد بن جريبيع المرواني الجهني» رَحِمه الله:</u>

يـا مَـن يعلـم عـن زبـون الونيـه يا الله بعـلـمٍ يـشـرح القـلـب والبــال
يالله تــرده بالحـيــاة الهـنيــه حيث انك القـادر على كـل الاحـوال
ويالله تـمهـل لـه لـيـالي بطـيـه حيث انه احـسـن مـن ثلاثـين رجـال
نـفـداه باللي مـا لـهـم مقبـليـه شهـب الوجيـه اللي يشحـون بالمـال
لـه ناب مـن سكـر وبـه سـم حيـه يضحك لمن يضحك وصلفٍ لمن عال
الابلـج اللـي لــه يدين سـخيــه لأهل الشرف في مجلسه فال وعقال

ومن طريف الأبيات ما قيل في والدي رَحِمَه الله عندما استضافه «عبد الله فالح الربيض البلوي»، وكان برفقة والدي «رشيد المطرفي البلوي» رَحِمَهم اللهُ جميعًا.. ولكن «رشيد» - أثناء جلوسهم - تَعِبَ من ضغط أو سكر.. ثُمَّ حملوه للمستشفى، فتأثَّروا جميعًا لما أصابه.. ولكن والدي - من باب ممازحة المعازيم - نادى بالغداء وقال: «رشيد إنْ مات الأرض تشيله.. وإنْ حيا الله يحفظه»!!

<u>وقد فتح بابًا للشاعر الكبير معزيهم؛ فمما قاله «عبد الله فالح الوابصي البلوي» رَحِمَه الله:</u>

لا بأس يا ملفا ضيوف ومعـازيب يا مـدلـه القـلـب الحـزين الغـريـبي
كـلٍّ يريد ابو محـمـد مـن الطيـب إلى دعـيـتـه لـو مـا اكـل يستجـيـبي
أما الفـريعي مـن طـوال المخاليب خــويـهــم مـذبـوح والا صــويـبــي
يـا مـا بدا سبـارهـم بالمـراقـيـب وغاروا على الطرش القطين العزيبي
لـركابهـم عـادات يـم الأجـانـيـب مـا هـم مـن اللي يدعـسـون القـريبي
وحطوا على المركى رجال معاطيب يـا مـا يبين خـال الـولـد والنـسـيـبي
خلك مع اللي عارفيـن المواجـيـب بالـضيـق خـلان الـرخـاء مـا تـثـيـبي

<u>ومما قيل بالفصحى أبيات الدكتور «منصور صالح البلوي»:</u>

رقَّ زهــرُ الربــى ومــال وانتشى الخيرُ واستطال
أشــرق الـصـبـحُ في مسـاءٍ بـه الـنــورُ في اكـتـمـال
إن نــثـرنــا قــصــائـدًا هـا هـنـا يـطـربُ المـقـال

الـفـريـعـي شـعــارهُ رايــةُ العـزِّ لا جِــدال
قــهـوةُ العــزِّذكــركـم نكهـةُ الفـخـرِ والجلال
مـن قــديـمٍ وعــزُّكـم في ارتـــفـــاعٍ ولا يـــزال
شـامـخًا في سـفـوحـه أينعت أطيبُ الخصال
يلـبـسُ المجـدَ فـردكـم مـثـلمـا يـلـبـسُ العقـال
وسـيـوفُ القضــاءِ في الـحـربِ أنتـم لـهـا النصـال
وأمـاني الضعيفِ كـنتم لــهـــا مــلـــجـــأً ومـــال
إن ذكــرتُ الكــرامَ يومًـــا (أبو ســالــمٍ) مثـال
غــرسَ العــزَّ دوحـــةً فــرعُــهـا وارفُ الظـلال
أصـلُــهـا ثابـتٌ ومــن طلعِـهـا الجـودُ والرجال
راحــلٌ تـــاركٌ أســــودًا كــأن لـــم يــكُ ارتــحـال

وقد جاراه الشاعر «سعود كايد البلوي» بقصيدة ثناء القريض تقديرًا للمادح والممدوح حيث قال:

صالَ رجعُ الصدى وجال لا ارتـجـالٌ ولا سِـجــال
أدهــشـتــنـي قـصـيـدةٌ كـالـجـواهــرِ كـالــلآل
حـيـن مـنـصـورُ صـاغـها أصبـحــت غُـرَّةَ الـهلال
فــخـرُهـا ثـقـلُ وزنــهــا صـخـرُها فوقهُ انثيـال
زفَّ شــــلالــهــــا ونـــالَ ثـــنـــاءَ القــريــضِ نـــال
ودعـــانـــي إلى المــعـــاني بـحـــزرٍ وباخـــتـــزال
شـــاعـــرٌ بـعـد شـاعــرٍ لــم يـغـادر بلا مــنـال
في مـــديــح الــذي لـــهُ ينحني حـاجـزُ المُحال
ســالـمِ العــزِّ وابـنِ مَـن عُــدَّ في سـاحـةِ النـزال
أســدًا مـــن عـــريـــنـهِ رائـدَ القـولِ والفعـال
رحـــمـــةُ اللـــه يـــا أبـــا ســـالـــمٍ دعــوةُ المـآل
يــحـفـظُ اللـــهُ ســالمًـا نبضةً منك في الوصال

ومن الأبيات قصيدة نبطية للشاعر «محمد عوده القويعاني»:

سلام في مبداه شديت الابيات وادركتها في محكمات العراوي

لها من الماضي شواهد ووقفات ولها من الحاضر فعول وعزاوي

ولها من الليله من القمة إثبات نبراس عز من اول الوقت ضاوي

أنا أشهد ان الطيب عند الفريعات معمور منهاجه وعده رهاوي

أخص بالذكر المعازيب بالذات عيال ابو سالم كبير الهقاوي

شيخٍ له بمشارف الطيب رايات وانشد بلي ويجيك بالعلم راوي

يقول ابن سالم زعيم المهمات ما تطلع القسمه معه بالتساوي

يفرق بمقياس الفعايل مسافات ويكفخ مع الحر الجسور النداوي

ترك لنا الله يرحمه بعد ما مات رجال في نهجه تحث الخطاوي

الكل منهم حاضره مثل ما فات مراجل وطيب وشموخ وعزاوي

مثل الكواكب تحت زرق السماوات يوم المواقف ودها نجم ضاوي

من دونهم تقصر مضامين الابيات وما يقصرون عن المراجل نهاوي

وهذه قصيدة نبطية أيضًا للشاعر «عيد بن جديع المعيقلي»:

وريث عودٍ يالله ان ترحم العود عودٍ على المعروف وصى عياله

الكل منهم في مواقيفه يزود رباه عودٍ وافٍ في خصاله

بو سالم اللي بيننا تقل موجود ما مات من خلف عيالٍ مثاله

من ساس قوم مزبنه كل مضهود اقلهم شبلٍ يظلل ظلاله

فعل الفريعي له مواثيق واشهود لا دارت سواة الرشا والمحاله

ذولا عقدانا سيوفهم تحمي الذود عز لـ (بلي) في كل هيه وقاله

ولـه أيضًا:

عيـال الكريم النـادر الطيب المحبوب

كبير المقـام وعـالـي الـقـدر والـهـامه

كبير الاسم والصيت والقدر والماجوب

زعيمٍ شمخ مجده سما ورفت اعلامه

ابو سـالـم اللي وقـفـتـه تنصـر المغـلـوب

وريـف الضيـوف وعزها من اول ايامه

وهذه بعض من أبيات مرثيتي في والدي رَحِمَه الله:

ابـوي مـا ورث قـصـور ودنـانـيـر	**لا شـك سـمعـتـنا بنـاهـا سـرايا**
الـطـيبـة مـا تنشـري بالـقنـاطـير	**والمـال لـو يـكـنـز مـداه الفنايا**
مـا هـي جـديدة تـوهـا بالتبـاشـير	**مورثـة مـن عـود يرذي المطـايا**
صبحـان ريف الضيف وقت المعاسير	**وبيـتٍ بلـي سـاس هـش البنـايا**
مـا هـي تفـاخـر قلتها لحاجـةٍ غـير	**والفعـل يكفـي عـن كثير الحكـايا**
جـعـل البقـا في روسـكـم يا المنـاعـير	**شـوفي لـكـم بالـدرب يجـبر عـزايـا**
صفـوا عصـاكـم واحتمـوا يا المغـاوير	**وفي دربها المـرسـوم ابنـوا الركـايا**

أُمِّي.. قِمَّةُ صِراطي وأَساسُهُ!!

أُمّي.. ما زلتُ أَراني طفلًا بين يديها، لا تنتهي حاجتي إليها؛ فهي مبتدأ صراطي ومنتهاه، وهاديتي لخطاه، هِيَ مَنْ أخذ بيدي حتى أقامني على هذا الصِّراط بثبات، وغَرَسَ في قلبي هِمَمًا كالجبال الراسيات.

إنَّ الكلام البديع والوصف البليغ لَيعجز أن يشكرَ عطاياها، وأن يَحمَدَ سجاياها؛ فلا أقلامي بالِغَةٌ ذُراها، ولا أوراقي محيطةٌ بسماها؛ فهي عندي جَنَّةُ الدنيا ونعيمُها، وقد أَحْسَنَ وصدق مَن قال عن الأُم:

هِيَ الدُّنيا ولا دُنيا سِواها *** أَتَبْقى الأَرضُ إِنْ زالَتْ سَماها

يا الله! ما أَجمَلَ كلام أمِّي! وأنا أكتب هذه الأسطر كلَّمتني وهي تقول: «كيف حالك يا وليدي؟ عساك بِخير يا بُوي»، تُبادل بين مُصطلحين (يا وليدِي.. يا بُوي) ببصيرةٍ خاصَّة؛ فللّهِ الحمدُ والمِنَّةُ؛ فلها كلماتٌ شفاء للنَّفْس، منها «سالم هو ذراي».

إن حُبَّ أمِّي شباب مُتجدِّد، هي تشيخ كُلّما مَرَّتِ الأعوام، ولكنَّ كلامها لي لا يشيخ، لا أقول: إنَّ رِضا الأُمِّ يُبْنَى على كلامها الطيِّب؛ لأنَّها بطبيعتها مِعطاءةٌ عطاءً غيرَ مَجذوذٍ؛ فلا ضجرَ منها، ولا تأفُّفَ.

فأُمِّي قضيَّتُها الكبرى وقِصَّتها الجميلة أبناؤها؛ فلا ترتاح إذا أحدٌ منهم شكا أَمْرًا ما معنويًّا كانَ أو ماديًّا، لا تبخل بعافيتها ولا دموعها التي تظنُّها كفيلةً بأنْ تُقاسم أبناءها فيه الألم... وهي دائمةُ الدعاء أنْ يُوفِّق اللهُ أبناءها وأبناء أبنائها، وهي كريمة بذاتها، فتسعدُ حين ترى إكرامَ أبنائها لأي إنسان، وتحثُّهم على ذلك.

ما أجملَ صفات أُمِّي الحبيبة! فهي مُخلصةٌ وصادقةٌ بحُبِّها وبكرمها وبسلامها وبتوديعها للناس كافَّة.. فكيف بأبنائها؟ إنَّها بحرُ عطاءٍ لا يَنضَب!!

كُلَّما أثقلتني أمورُ الحياة لَجَأْتُ لأُمِّي؛ فعندها تزول الآلام والمتاعب، وعِنْدَها - أَيضًا - الدِّفْءُ والحنان والدَّلال والسعادة والبركة.. فكلَّما أحببتُ استرجاعَ أنْ أكون طفلًا مُدلَّلًا جِئتُ إليها، فأُمازحها قائلًا: «يا أمّي، أختي سلمى أعجلتني أنني لم أحصل على كفايتي مِن الاهتمام والرعاية، كما أنّني تغربتُ عنكم، وأنا طفل... إلخ».

يا الله.. إنَّ في نطق كلمة "أُمِّي" إشباعًا لروحي وشفاءً لصدري، وطُمأنينة لقلبي.

وأكاد أُجزم أنَّ حياتي كُلَّها تقريبًا - بكُلِّ ما فيها من صِعاب وتَجارِب وصراعات وتحديات - كانت أُمِّي الحبيبة هي المُشَجِّعُ والمُطمئِنُ، والمأوى والملاذ.. بها وبِثِقَتِها وبدعائها كُنتُ أَرتادُ الصِّعابَ بلا خوف أو تخاذُل.. بصوتها الذي أسمعه في أسفاري كنتُ أشحذُ هِمَّتي في مُغالَبَةِ صِعاب الغُربة.. برغبتي الشديدة في الارتماء بين أحضانها كُنتُ أُسابِقُ الزَّمنَ من أجل العودة إليها بعد تحقيق شيء يُثلج صدرَها ويمنحني رضاها!!

أسألُ الله أنْ يُبارك في عُمر أمّي الحبيبة، وأن يُمَتِّعَها بالصِّحَّة والعافية، وأنْ يَجزيها عنِّي وعن ذُرِّيَّتها خَيرَ ما جزى أُمًّا عن أولادها، وأنْ يحفظ لنا بابَ الجنَّةِ والخيرِ والدُّعاءِ والتَّوفيقِ والبركةِ، وأنْ يرزقنا رضاها، إنَّهُ سبحانه وتعالى سميعٌ مُجيبٌ.

ولعلي هنا أغتَنِمُ هَذِهِ الفرصة وأهمِسُ بأُذْنِ كُلِّ ابنٍ من أبنائنا بهذه الكلمات: دائمًا ما يَقِفُ المرءُ مِنّا عاجِزًا أمامَ مُحاوَلَةَ الوصول إلى وَصْفٍ مُعَبِّر ودقيق عن مكانة الأُمِّ بصفة عامة، ومكانة أُمِّه بصفة خاصة؛ فلكلِّ امرئ مِنّا تقديراتُه المتباينة لعطاء الأُمِّ وتضحياتها من أَجْلِ أبنائها، ولكن هذا التباين لا ينسحب إلى الحديث عن العطاء بين الأفضل والأسوأ، وإنما ينسحب هذا التباين إلى الحديث عن العطاء الحَسَن والأحسن، أو الرحيم والأرحم.. أو العظيم والأعظم!

إنَّ معانِيَ العطف والحنان والدفء والرحمة والتضحية - وغيرها الكثير - تنهارُ أمام موقف واحد تقوم به الأُمُّ أو الأبُ في حياة أبنائها، ولذلك جاءت النصوص القرآنيَّةُ والأحاديثُ النبويَّة مُعظِّمةً لحقوق ومكانة الوالدَين بصفة عامة والأُمِّ بصفة خاصة، كما تَحُثُّنا النُّصوص على بِرِّهما، وتُحَذِّرُنا مِن عُقوقِهما، وتُبَيِّنُ مكانَتهما وتوقيرهما واحترامهما وطاعتهما والإحسان إليهما.

لقد جَعَلَ اللهُ تعالى رِضاهُ مِنْ رِضاهما، وسَخَطَهُ مِنْ سَخَطِهما؛ فقَرَن عِبادتَه بالإحسانِ إليهما، والشِّرْكَ به بعُقوقِهما؛ قال تعالى: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»[1]، وقال أيضًا: «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»[2].

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الكَبَائِرِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ»[3].

وقد حَظِيَتِ الأُمُّ في الإسلام باهتمام خاص؛ لأنَّها إعجازٌ مِنَ الله، وأقدسُ معاني الإنسانيَّة، وأعظمُ هِبات الله في الحياة، فجُعِلَتِ الجنةُ عندَ قَدَمِها[4]، وجُعِلَ حَقُّها في البِرِّ والصُّحبةِ أشدَّ وآكَد[5]؛ لما تتحَمَّلُه الأُمُّ مِنَ مشاقِّ الحَمْلِ، والوِلادة، والرَّضاعةِ، والحَضانةِ، والتربيةِ، والرعايةِ، وغيرِها..

---

(١) سورة النساء: الآية (٣٦).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٢٣).

(٣) متفق عليه: «صحيح البخاري»: [١٧١/٣] و«صحيح مسلم»: [٩١/١]، واللفظ للبخاري.

(٤) وقد أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ فَجِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ. قَالَ: «أَلَكَ وَالِدَةٌ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «اذْهَبْ فَالْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلَيْهَا». ينظر: «المستدرك على الصحيحين»، للحاكم: [١١٤/٢]، وقال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ». ووافقه الذَّهَبي. وينظر: «السنن الصغرى»، للنسائي: [١١/٦]، وقال الألباني: «حَسَنٌ صحيحٌ».

(٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ». متفق عليه. ينظر: «صحيح البخاري»: [٢/٨]، و«صحيح مسلم»: [١٩٧٤/٤]، واللفظ للبخاري.

وهذه الأعباء قد لا يُدركها الأولاد ولا يتذكَّرونها ولا يُقَدِّرونها لِصِغَرِهم وعدم وعْيِهم، بل إنَّهم لا يُدركون أنَّ الأُمَّ هي المخلوق الوحيد الَّذي يموت ولا تزال تنبض بالحياة لرضيعها؛ وهذا من رحمة الله تعالى إذ جعل ثدي الأم حيًّا عند موتها يستقي طفلُها منه الحياة.

إنَّ الله عزَّ وجلَّ عظَّم حقَّ الوالدَين وأَمَرَ بحُسْنِ صُحبتهما والإحسان إليهما حتى وإن كانا على خلاف دِين ولدِهما، بل وإنْ جاهداه على أن يكفر بالله، قال الله تعالى: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا...»(١).

بل إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يرتضِ أن يكون الوالِدان ممَّن يَفتدي بهم المجرم نفسَهُ من نار جهنم يوم القيامة؛ فقال سبحانه: «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ»(٢).

فاللهَ اللهَ بأُمهاتكم وآبائكم.. استوصوا بهم خيرًا؛ فإنَّ الفلاحَ معقودٌ بِبِرِّهم والإحسانِ إليهم، وإن التوفيقَ من ثمرات رضاهم.

اللهمَّ اكتبنا من أهل البِرِّ والإحسان والفلاح والرضوان يا رب العالَمين.

(١) سورة لقمان: الآية (١٤، ١٥).
(٢) سورة المعارج: الآية (١١: ١٤).

القِسم الثاني

سيرتي الذاتية!!

طُفُولَةٌ شابَّة.. وطِفْلٌ تَأبَّى!!

في الخامسِ من شهر ربيع الأول عام ١٣٨٥هـ.. الرابعِ من شهر يوليو عام ١٩٦٥م.. وُلِدتُ بـ"تبوك" كابنٍ أوَّل لأَبٍ مُكابِدٍ يأخُذُ الدنيا غِلابًا، وأُمٍّ مُكافِحَةٍ تَعلَمُ أنَّ الحياةَ دَقائِقٌ وثوانٍ!!

ومن الموافقات الطريفة التي عِشتُها في أمريكا أنَّ يومَ ولادتي يُوافق تاريخ الاستقلال الأمريكي (Independece Day) الرابع مِن يوليو (Furth of July)، وهو يوم احتفال كبير ومشهد احتفاء مَهيب تشهده (الولايات المتحدة) يُقامُ فيه الاستعراض العسكري والألعاب النارية في جميع المدن، وهو يوم عطلة فيدرالية، وكنت أقول فيه ممازحًا زملائي مِن العرب والأمريكان: «إنَّ أمريكا بكل ولاياتها ومدنها تحتفل بعيدها وتاريخ ميلادي في كل سَنَة»!!؛ فثَمَّةَ اجتماعٌ لمُقتضى الزمان والمكان والحَدَث!!

جِئتُ إلى دُنيا أبي وحياةِ أُمِّي.. كأيِّ طِفلٍ وُلِدَ لِيَستكشِفَ مَعالِمَ هذه الدنيا، ويَتَلَمَّسَ صِراطَه في تلك الحياة.. لم يَكُنْ لي أَخٌ وَقْتَها أو أُخْتٌ أَغارُ منها أو منه.. إلى أنْ صارَ لي - بفضل الله - إخوة من البنين والبنات.. أَشِقَّاء وغير أشِقَّاء.

وكان أبي رَحِمَه الله رَجُلًا بكُلِّ ما تعنيه الكَلِمةُ من مَعانٍ ودَلالات.. فكان صَبُورًا لأقصى دَرَجات الصَّبْر في أقسى دَرَكات الحياة.. صَنَعَ - بذكائه الاجتماعي ومهاراتِه الفِطريَّة - قاعدةً عريضةً جدًّا من المعارف والأصدقاء في كثير من البُلدان التي زارها بُحُكْم مِهنته ومَهارته في قيادة السيارات على اختلاف أنواعها وأشكالها ومهامها؛ فقد كان رَحِمَه الله من أوائل الذين أجادوا قِيادةَ السيارات في وقتٍ قَلَّ فيه مَن يمتلك سيارة.

لقد ساعَدَه ذلك على أنْ ينتقل من بَلدَة إلى أُخرى بكُلِّ جِدٍّ ومُثابَرة في طَلَبِ الرِّزْق، وإنَّهُ لم يكن لِيستَقِرَّ في مِهنة واحدة بِعَينِها؛ فانتقل من مِهنَة إلى أُخرى، ومن بَلدَة إلى التي تَلِيها، وكَأَنَّه رَحَّالةٌ استَهوَتْهُ مُشاهَدَةُ ومَعرفةُ كُلِّ ما هو جديد ومُستَغرَب في تلك البلاد التي رَصَدَتْ بها عيناه ووَعَتْ بها مَدارِكُه أَحْوالًا بها ومَواقِفَ أكسَبَتْهُ - من الخِبْرات العَمَلية - ما جَعَلَه يُؤمِنُ - حَقَّ الإيمان - أنَّ العمل عبادة.

وكانت أُمي - أيضًا - امرأةً مُكافِحَة تُحسِنُ التدبيرَ وتُتقِنُ المَهام.. إذْ تسعى في قَضاء حوائج جيرانِها بلا كَلَلٍ أو مَلَلٍ.. وقد اتَّخَذَت من الجِدِّيَّةِ التي تَرَبَّت عليها لدى والِدَيها بيتًا تنطلقُ منه إلى دُروبِ الحياة؛ فهي واثِقَةٌ - كُلَّ الثِّقَة - بقُدْرتِها وقُوَّتِها - بإذن رَبِّها - على تَحَمُّل الكثيرِ مِنَ الأعباء التي أثقَلَتْ كاهِلَ كثيراتٍ من نِسْوَة جِيلها؛ فكانت آلامُ الولادة - بالنسبة لها - ليست إلا شيئًا طبيعيًّا لا يُسْتَحَقُّ الالتفاتُ إليه؛ فرُبَّما تَذهَبُ - كعادتِها - إلى عَمَلٍ ما.. ثُمَّ تَعُود حاملةً على يَدَيْها أخًا لي أو أُخْتًا!!

وبجانب هذه القُدْرة على تَحَمُّل الصِّعاب.. ظَلَّتْ أُمِّي - أطالَ اللهُ عُمُرَها - حانِيَةً على أبنائها وأبناء أبنائِها، مُضَحِّيَةً بِوَقتِها وجُهدِها من أَجْل خِدْمَتِهم ورِعايَتِهم أيَّما رِعاية، وبَذْلِ العطاء بَذْلَ الكريم.

لقد كانت قَسْوَةُ الحياة - حينذاك - لها أثرٌ كبيرٌ في تَحَلِّي أبي وأُمِّي بهذه الصِّفات التي قد لا تُتاحُ لِأجيالٍ أُخرى.. بسبب ذلك الرَّخاء الذي أَنْعَمَ اللهُ تبارك وتعالى به على رجالِ ونِساءِ (المملكة) بفضل المساعي الجادة لِوُلاةِ الأَمْرِ الذين حققوا للدولة السعودية الطَّفْرَةَ في مُختَلَفِ مَجالاتِ الحياة.

فعندما تُشارِكُ المرأةُ زَوجَها في العمل والزراعة وغيرها من سائر الأعمال.. فإن ذلك يَعكِسُ تلك القَسْوَةَ والمُعاناةَ التي كانا يعيشان بها وَقْتَ أن جِئتُ لهذه الدنيا!!

وإنَّني لَأَنظُرُ - مُتَعَجِّبًا - إلى تلك الصِّفات التي اتَّصَفَ بها مَن هُم مِثْلُ أبي وأُمِّي، وإلى التربية الفِطرِيَّة التي رَبَّونا عليها، مِنْ دون أنْ يلتحق أحدٌ منهم بمدرسة أو بأي مُؤَسَّسة تعليمية!

أنَّى لِرَجُلٍ أنْ يَعْلَمَ ويُعَلِّم - بفِطرته - أنَّ الصِّدْقَ مَنجاة؟ وأنَّ قَوْلَ الحقّ شِيمَةٌ من شِيَمِ الرِّجال؟! وكيف لامرأةٍ أنْ تَعْلَمَ وتُعَلِّم - بفِطْرتها أيضًا - فَضْلَ الصِّدْق وأهلِه.. وعَدَمَ المُحاباة في قَوْل الحق مهما حَدَثَ.. مِمَّا جَعَلَها مَحبوبةً بَينَ الجيران؟!

لقد كانت مَرحلةُ طُفولتي - المُبَكِّرة - مَزيجًا من هذا الخليط من صِفات الأَبِ والأُمِّ اللذَيْن تَشارَكا - معًا - قَسوَةَ الحياة.. وتَقاسَما - معًا - تَربِيَتي بالفِطرة النَّقِيَّة السَّلِيمَة.. وبالتربية السَّوِيَّة المُكتَسَبَة من الأجداد والجَدَّات.

قد تَستدعي ذاكرتي - عن تلك المرحلة - صَوْتَ أبي الذي كان يَنهَرُني عن فِعْلِ الخطأ أو التفكير فيه.. وصَوْتَ أُمِّي التي كانت تَدفَعُني إلى النَّوْم مُبَكِّرًا مُخَوِّفَةً ومُحَذِّرةً إيايَ من شَيءٍ عظيم اسمُه (العافية) إنْ لم أَستَجِب - طَواعِيَةً - للنَّوْم!!

لقد كُنْتُ أتخيَّلُ تلك (العافية) أنَّها حيوان ضخم ومُخيف يَهرُبُ منه الجميع، وكُنْتُ أَحلُمُ أنَّه يرتقي المبنى، ويقتحم فِناءنا الذي نَبِيتُ فيه!!!

لم يكُن لأبي أو لِأُمِّي سابِقَةُ إنجابٍ تَجعَلُ أيًّا منهما على دِرايةٍ تامَّة بِحُقوق الطفل ومُتطلباتِه.. لَكِنَّ المَورُوثَ الذي اكتسباه من الأهل، ومُخالطتهما مَن هُم على نَفْس فِطرتهما من الجيران والمعارِف.. كانَ له بالِغُ الأَثَر في اتِّصافِهما بمِثْل تلك الصِّفات.

وتنقضي مَرحلَةُ الطفولة المُبَكِّرة بكُلِّ ما فيها من ذكريات ومواقف قد تكون في الوعي أو في اللاوعي، لتأتي مَرحَلَةٌ أُخرى اتَّفَقَ فيها أبي وأُمِّي - فِطْريًّا لا إراديًّا.. ضِمنًا لا حقيقةً - على أنْ يتعاونا على صُنْعي بما اكتسباه من سابِق تَجرِبَة ودُرْبةٍ ومِراس.. فكان الجَلَدُ والصَّبرُ والشِّدةُ وحَرارةُ الطِّباع من أبي رَحِمَه الله.. يُقابِلُها العَطْفُ والحنانُ والثِّقَةُ والجِدِّيَّةُ من أُمِّي أطالَ اللهُ عُمُرَها.

لقد تَقاسَما تربيتي على صِفاتٍ ما كُنْتُ لِأُربَّى عليها لو كُنتُ الابنَ الثاني أو الثالث؛ لِأَنَّ الابنَ الأوَّل غالِبًا ما يكون هو الأب الثاني والأخ الأكبر ومَن يَجِب أن يُؤَهَّلَ لِأُمُورٍ لم يَكُنْ لِيَعْرِفَها إلَّا عِندما يَكْبُر!!

ما زِلْتُ أَذْكُرُ شِدَّةً في فِناء منزل "تبوك".. فما أَنْ رآني والدي أسقطُ على رأسي بسبب كُرَةٍ (بلاستيكية) حتى أخذ مني الكُرَة ومَزَّقَها أمامَ عينَيَّ.. فأَصبَحتُ أتجرَّعُ مَرارةَ الأَلَم مَرَّتين.. مَرَّة على سُقوطي ومَرَّة أُخرى على تَمزيق الكُرَة!!

لقد كانت نَظْرَتي إليه - وَقْتَها - تأبى أن يَفعَل بي ما فَعَل.. أو أن يَغضب مني ذلك الغَضَب.. أو أن يُعاقِبَ كُرَتي البَريئةَ على سُقُوطي!!

لكني عندما أُفَكِّر اليومَ في مِثْلِ ذلك المَوقِف.. أُدرِكُ أنَّها رُبَّما كانت فَلْسَفَةً أَبَوِيَّةً استَخدَمَت الشِّدَّةَ طريقًا لِيَنهرَ الابنَ عن أن يَستَسلِمَ يومًا ما للسُّقوط!!

لقد خَلَقَ هذا الموقِف - في داخلي - شعورًا مُستَقِرًّا بالقناعة والرِّضا والصَّبْر؛ فصِرتُ - من بَعْدِه - لا أُبالي لِفَقْدِ شيءٍ.. ولا أَحزَنُ على ضياع شيء فاتَني، أو حُرِمْتُ منه قَدْرَ وُسْعي وطاقتي.

إن عدم معرفة الآباء والأمهات - في ذلك الوقت - بأساليبِ التربية الحديثة.. ما كانَ لِيَمنَعَهم من أنْ يُمارِسُوا تلك التربية بفِطرتهم التي نَشَأُوا بها وتَربَّوا عليها.. بل لم تَكُنْ تلك الشِّدَّة مانِعَةً من أن تَظهر منهم صِفاتُ العَطف والحُنُوِّ على أبنائهم.. بل وأيضًا على أصدقاء أبنائهم..

فما زِلْتُ أَذْكُرُ- أيضًا - زياراتِنا لِأَقرِبائنا في البادية.. ولا زِلْتُ أَذكُرُ لَهفةَ الأطفالِ وهُم يُحيطون سيارةَ أبي لِيُوَزِّعَ عليهم الحَلوى أو السُّكَّر، وهي عادةٌ لم تَكُن مَقصورةً على أبي رَحِمَه اللهُ فقط، بل كانت سِمَةً وعادةً من عادات معظم الجيران المُحِبِّين للأطفال!!

أَذْكُرُ- كذلك - السيارةَ التي كان يَقُودُها أبي رَحِمَه الله من "العُلا" إلى قرية "مغيرا" التي يمتلك فيها جَدِّي لِأُمِّي خَمْسَ - أو سَبْعَ - نَخْلاتٍ يَتَصيَّفون منها في تلك القرية التي تَبعُدُ حوالي ١٥ إلى ٢٠ كيلومترًا عن "العُلا"..

أَذْكُرُ خَوْفي من رَفْضِ أبي اصطحابي معه؛ فكُنْتُ أَرْقُبُ تَشغيلَه للمُحَرِّك ثم أَقفِزُ بحَوْض السيارة، وأَنْدَسُّ - مُختَفيًا - بَينَ الأغراض حتى يَصِلَ إلى جَدِّي وجَدَّتي.. فأَخرُجُ من السيارة بِجُرأة تُقاوِمُ شِدَّةَ أبي.. مُتسَلِّحًا بِوُجُود جَديّ اللذَين أتقوَّى بهما إنْ عارَضَ أبي حُضوري.. بل - رُبَّما - كان والدي يَعْلَمُ بِوُجودي داخِلَ السيارة.. ولَكِنَّه كان يَغَضُّ الطَّرْفَ عَنِّي ليرى كيف أتصرَّف؟!

أَذْكُرُ تلك العادة التي يَعرِفُها أهلُ البادية جَيِّدًا وحُقَّ أنْ يتعرَّف عليها سائِرُ الأجيال.. وهي عادةُ الحُضور وَقْتَ الصيف إلى النخيل؛ حيثُ يشتري بعضُ أهلِ البادية بعضَ النَّخْلات، والبعضُ الآخَرُ يَستأجر، بينما يَنزِلُ مَن له نَخْل - ولو قليل - إلى نخيله، وينزل آخَرون عند أقربائهم الذين يُعْطُون لهم نَخْلَةً أو نخلتين، ورُبَّما أقل؛ حيث كانت تلك الفترة وَقْتَ جُوع واحتياج..

أَذْكُرُ المِنطقةَ الغربية فقط.. حيث نخيل "المدينة المنورة"، و"خَيبر"، و"العُلا"، و"يَنبُع النخل"، و"العيص".. فإلى مثل تلك الأماكن - وغيرها كبعض الموارد والعيون البسيطة حيث تُوجد بعض النخلات الخاصَّة التي لا تكفي إلا أهلَها - ينزل الناس و(يحضرون)؛ فيُقال: «البدو احضروا».. أو «نزلوا».

وتكون تلك (الحضرة) من أَجْل أنْ يَجِدُّوا النخيل، ثم يأتون بالتَّمْر فيعجنونه ويضعونه - أو يحشونه - في (شَنَّة) أو (مِجلاد)، ثم يُغادرون بالمجاليد أو القُرَب التي يأخذونها على الإبِل، ليعودوا إلى منازلهم فيما يُعرَف بـ(الصَّدرة).

والبدو - حين يحضرون أو يُصَدرون ليقتاتوا من التَّمْر - يكون استعدادُهم لهذا الحَدَث التراثي كاستعدادهم لاستقبال العيد، ويكون أطفالُهم مُتشوِّقِين لمجيء تلك العادة، ومن بينهم طِفْلٌ شقيٌّ وعنيد!!

أذكُرُ (الحيسة).. تلك الحلوى التي كانت أُمِّي باركَ اللهُ فيها تقوم بإعدادها عندما تأخذ نصيبَها من نخيل جَدِّي رَحِمَه الله، ثُمَّ تقوم بتقسيمها بين الجيران كعادتها في الكرم، وفي أنْ تكون اجتماعيةً إلى أبعد الحدود.

ومن بَرَكاتِ هذه الأَكْلَةِ أنَّها كَفَتْ عددًا كبيرًا من أصحاب النبي ﷺ: فقد أخرج «البخاري» في صحيحه: قَالَ إِبْرَاهِيمُ: عَنْ أَبِي عُثْمَانَ واسْمُهُ الجَعْدُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: مَرَّ بِنَا فِي مَسْجِدِ بَنِي رِفَاعَةَ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَرَّ بِجَنَبَاتِ أُمِّ سُلَيْمٍ دَخَلَ عَلَيْهَا فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَرُوسًا بِزَيْنَبَ، فَقَالَتْ لِي أُمُّ سُلَيْمٍ: لَوْ أَهْدَيْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَدِيَّةً، فَقُلْتُ لَهَا: افْعَلِي، فَعَمَدَت الى تَمْرٍ وَسَمْنٍ وَأَقِطٍ، فَاتَّخَذَتْ حَيْسَةً فِي بُرْمَةٍ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا مَعِي إِلَيْهِ، فَانْطَلَقْتُ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لِي: «ضَعْهَا» ثُمَّ أَمَرَنِي فَقَالَ: «ادْعُ لِي رِجَالًا - سَمَّاهُمْ - وَادْعُ لِي مَنْ لَقِيتَ» قَالَ: فَفَعَلْتُ الَّذِي أَمَرَنِي، فَرَجَعْتُ فَإِذَا البَيْتُ غَاصٌّ بِأَهْلِهِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى تِلْكَ الحَيْسَةِ وَتَكَلَّمَ بِهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَدْعُو عَشَرَةً عَشَرَةً يَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُ لَهُمْ: «اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَلْيَأْكُلْ كُلُّ رَجُلٍ مِمَّا يَلِيهِ» قَالَ: حَتَّى تَصَدَّعُوا كُلُّهُمْ عَنْهَا، فَخَرَجَ مِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ، وَبَقِيَ نَفَرٌ يَتَحَدَّثُونَ، قَالَ: وَجَعَلْتُ أَغْتَمُّ، ثُمَّ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَ الحُجُرَاتِ وَخَرَجْتُ فِي إِثْرِهِ، فَقُلْتُ: إِنَّهُمْ قَدْ ذَهَبُوا، فَرَجَعَ فَدَخَلَ البَيْتَ، وَأَرْخَى السِّتْرَ وَإِنِّي لَفِي الحُجْرَةِ، وَهُوَ يَقُولُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ

النَّبِيِّ، إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ، وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ} [الأحزاب: ٥٣].

لقد كان الأهالي - ومنهم أُمِّي - يأخذون التَّمْر ويُخرِجون النَّوَى منه ثمَّ يعجنونه، ويضعونه في القِدْر، فيُسخِّنونه، ثمَّ يَصُبُّون عليه السَّمْنَ، ويَخلِطُون معه الدَّخن أو الطَّحين - ورُبَّما السمسم - ثمَّ يُقَلِّبونه فيَشعُرُ الأطفال بِطَعْم (الحيسة) مِن مُجَرَّد اشتِمامِهم للرائحة التي لا ينساها مَن هُم أمثالي من أطفال ذلك الزمان.

إنَّ عقليةَ الطفل - على قَدْر بساطتها - تعي وتُدرِكُ أشياءَ قد لا يَعقِلُها أُناسٌ كِبار؛ فالطفل لا ينسى طَيِّبَ الكلامِ أو الثناءَ أو الهدايا أو أوقات اللهو والمَرَح والمناسبات الاجتماعية... ولو كانت قليلة!!

ورغم الشِّدة التي حاصَرَتني طفلًا نشأ في كَنَفِ أَبٍ شديد وأُمٍّ حازِمة وبيئة بدويَّة قاسية.. إلَّا أنَّني استطعتُ - طفلًا - أنْ أحظى بقَدْرٍ لا بأس به من تلك الطفولة المَرِحَة.

إنَّ الطفولة الشابَّة ما كانت أبدًا لتمنع طفلًا - أبى وتأبَّى أنْ يرضى بالقليل من حقوقه طفلًا - من أنْ يُحاول إرضاءَ نَفْسِه، ولو بالقليل في ظِلِّ هذه النِّيَّة المُبَيَّتَة من الأَبِ والأُمِّ بأنْ يُعاملاه مُعاملةَ الطفل الرَّجُل!!

لقد حَاوَلَ ذلك الطفل أنْ يَعيش طفولَتَه خُفْيَةً خَشيةَ أنْ يراه والداه فيَصغُرُ في عينيهما.. فعندما الْتَحَقْتُ عام ١٣٩١هـ - ١٩٧١م بالصف الأول الابتدائي كنتُ أسابِقُ زملائي من أَجْلِ الجُلوس بالصف الأوَّل.. وكُنتُ - طفلًا أيضًا - أُسابِقُهُم وأَسبِقُهُم إلى الوقوف بمُقَدِّمة الطابور الصباحي.

قُلتُها لنَفْسي وكَوَّنتُ قناعةً بها: «ما زِلْتُ طِفلًا.. تأبى عليَّ طفولتي - ويأبى عليَّ تكويني الطُّفُولي - ألَّا أعيشَ هذه الطفولة وذلك التكوين وتلك البَراءة»!!

لا ضَيرَ - مُطلَقًا - في أنْ أُمارِسَ تلك الطفولة المَرِحَة وتلك المُنافَسَة الطفولية.. فإنَّها أَقَلُّ وأبسط حقوقي طفلًا ما زال بالصف الأوَّل أو حتى في الثاني الابتدائي.. حتى وإن أَخْفَيْتُ تلك المشاعر البريئة عن أبصار والدي.. الذي أبى - هو الآخَر - إلَّا أنْ أكون رَجُلًا، وأنا طِفلٌ!!

لقد كانت المرحلة الابتدائية - وبِخاصَّةٍ مرحلة الصف الأوَّل والثاني الابتدائي - من أكثر مراحل الطفولة هُدوءًا واستقرارًا؛ إذْ كنتُ أعيش في كَنَف أفراد أُسْرَتي وفي رعايتهم، كما أنِّي أتذكَّرُ كثيرًا من مَلامِحِ تلك المَرحَلَة.. فما زِلْتُ أَذكُرُ أوقات المَرَح في فِناء المدرسة.. أَتَذَكَّرُ تلك الكراسي الخشبية مُتقنةَ الصُّنْعِ التي تَتَّسِعُ لأربعة طلاب.. وأَتذكَّرُ الطابورَ الصباحيَّ بالمدرسة.. الإذاعةَ المدرسية.. النشيدَ الوطنيَّ.. أشعَّةَ الشمس التي كانت (تُظلِّلُ) علينا بحرارتها في الشتاء.. وغير ذلك !!



مقاعد أجيال الثمانينات والتسعينات

إنَّ دوام الحال - دَوْمَا - من المُحال.. فقد بَدَأَتْ مُعاناتي بعد انتهاء الصف الثاني الابتدائي، وذلك عندما رَحَلَت أُسْرَتي - كُلُّها - من مدينة "العُلا" إلى البادية؛ حيث بَدَأَتْ معي رِحْلَةُ الغُربة عن الوالدَين وإخوتي وكأنَّني في يُتمٍ مُبَكِّر.. فقد جعَلَني والدي رَحِمَه الله أُقيمُ لدى أُسْرَة من أقاربنا، ثُمَّ أُقيمُ مع أُسْرَة أخرى، ثُمَّ أخرى.

لقد زَجَّ بي - والدي رَحِمَه الله - إلى مُعتَرَكِ الحياة مُبكِّرًا بلا سابق تهيئةٍ أو بَوادِر إدراك أو مُؤَشِّرات اعتِراك!!

فما أَنِ الْتَحَقْتُ بالصف الرابع الابتدائي.. حتى وَجَدتُني في موقف نادِرًا ما يتعرَّض له طِفلٌ في مِثْل هذه السِّن الصغيرة؛ ولكنه كان موقفًا له ما بَعْدَه في قابِل الأيام.

لقد أَخَذتُ دراجةً هوائية من أحد زملائي لِأذهَبَ بها من حي "المنشية" إلى وسط حي "الحميدية" بـ"العُلا".. وكانت الطرق - وقتئذ - غَيرَ معبَّدة..

وأثناء سيري بالطريق.. مَرَّت بجانبي سيارة أمير "العُلا" وَقْتَها الأستاذ «أحمد السديري» رَحِمَه الله.. وكانت قيادتي للدراجة ضعيفة جِدًّا؛ حيث كُنْتُ أَرُوحُ بها يمنةً ويسرَةً حتى كاد سائق السيارة يَصْدِمُني..

وبعد أن تجاوزَتْني السيارةُ أخيرًا.. بَصُرتُ بها تَقِفُ أمام أحد الجنود؛ فعَلِمْتُ أن الأمير يُكَلِّمُه بشأني.. فأَقْبَلْتُ على ذلك الجندي غيرَ عابئ رغم أنَّه كان بإمكاني أن أُغَيِّرَ مَساري بلا أيَّة صعوبة، فاستوقفني الجندي.. ثمَّ سَحَبَ مِنِّي الدراجة.. وقام بحَجْزِها بالشرطة!!

وعندما عُدْتُ إلى صاحب الدراجة.. أخبرته بما جرى، وطمأنتُه بِأَنِّي سأسدد كامل قيمة الدراجة على دُفعات يومية من مصروفي الخاص، حتى تَكتَمِلَ القيمة التي قَدَّرناها بخمسين ريالًا.. وبَقِيْتُ أُسبوعًا كاملًا أُسَلِّم مصروفي لصاحب الدراجة.. إلى أن ذَهَبَ والدُه إلى الشرطة.. وأَخْرَجَ الدراجة من الحَجْز.. لتنتهي معها معاناتي في السَّداد!!

إنَّ مواقف الطفولة الصعبة - التي لا تتناسب مع العُمْر الزمني - قد تكون سببًا قويًّا في أنْ يكتسبَ المَرْءُ مهارةً في حُسْنِ التَّصَرُّف في المواقف الصعبة كالبيع والشراء التي قد يستفيد المرء منها في وقتٍ لاحِق.

الصف الخامس وأُسْرَةٌ ثالثة.. أُسْرَةٌ بعد أُسْرَة أَدِينُ لها - جَميعِها - بما وَجَدتُه لديهم من رعاية وحُسْنِ استقبال.

وفي أيام العُطْلات الرسمية.. كُنتُ أَعُودُ إلى حيثُ أُسْرَتي الحقيقية.. ثمَّ أتعرَّف عليهم ويتعرَّفون عليَّ من جديد.. فإنَّ تَتابُعَ السنوات يُغَيِّرُ الملامِحَ والطِّباع.. ولكنَّها لا تُغيِّرُ الوشائجَ التي تَربِطُنا بعضَنا بعضًا.

وبعد استقرار والدي رَحِمَه الله بقرية "الخشيبة".. من قرى محافظة العلا التي تبعد ٣٥ كيلو مترًا جنوبًا.. أصبحتُ كُلَّ خميس - بعد المدرسة - أذهبُ إلى القرية وأعود إلى "العُلا" يومَ الجمعة (ليلة السبت)؛ حيث كانت العُطْلة الأسبوعية يومَ الجُمُعة فقط.

وبانتقالي للصف السادس سَكَنتُ أنا وابنا عَمَّي: «زايد عودة منقرة» الذي كان يَكبُرني بسنتين تقريبًا ومعي بنَفْس المرحلة.. وأخوه «حسين» الذي كان يَصغُرنا بسنتين دراسيتين.. وكُنَّا نسكُن - ثلاثَتُنا - مَسكنًا من الصفيح والخشب بناه لنا أخوهما الأكبر «زيدان» بأرض فضاء في ضواحي "العُلا"، وأصبَحَت اليوم أحد أحيائها، وتُسَمَّى الآنَ "حيَّ السلام".. وصِرنا نعتمدُ على أنفسنا في كُلِّ شيء رغم حداثة سِنِّنا.. إلى أنْ خَطَرَت بذِهني فكرةُ الصَّوْمَعَة!!

بِناءٌ.. وأنباء!!

لقد فَكَّرتُ في بناء مبنى مُستَقِلٍّ أعيشُ به وَحْدي، وذلك عن طريق اقتطاع أرض مِثلَما يفعل أبناءُ البادية.. فقُمْتُ بتحديد أرض بَلَغَتْ مَساحَتُها خمسين مترًا × خمسين مترًا.. وهي تُعادِلُ خَمْسَ قِطَعٍ - تقريبًا - في ذلك الوقت.. وبالطبع كانت القطعة مُتعِبةً جِدًّا في تسويرها كامِلَةً بالجَريد.. فقُمتُ بِوَضْع الزوايا فقط.

لم تَغِبْ عَنِّي قِصَّةُ هذه الأرض (وأنا في العاشرة من عمري) عندما أَبَيْتُ الاكتفاءَ بمليونَي مترٍ مُرَبَّعٍ فقط من أجل إنشاء فرع جامعة طيبة (وأنا ابن نَيِّفٍ وأربعين).. فلم أَقنعْ بتلك المساحة التي تُخَصَّص لأي فرع من سائر الفروع.. لنحصل - بالإصرار - على أرض مَساحَتُها عشرة ملايين متر!!

أنهيتُ المرحلةَ الابتدائية وأنا أمتلك جَرداءَ الأرض فقط.. وفَوْرَ استلامي مكافأةَ التَّغَرُّبِ ذهبتُ إلى تاجر ب"العُلا" يُدعى «داخل الحربي» رَحِمَه الله.. وهو رَجُلٌ مَعروفٌ عنه السماحة في البيع والتعامل، وكان يَعرِفُ والدي رَحِمَه الله.. أتيتُه بثِقَةٍ وعَرَّفتُه نَفْسي.. وأَخَذْتُ منه كُلَّ ما يَلْزَمُني من خشب وزنك ومسامير وأقفال.. وأَنْزَلْتُها في الأرض.. ثم بدأت مرحلة البناء.

وكان جارنا العزيز الشيخ «عيد بن فالح الزبني البلوي» يُلَبِّي كافة احتياجاتي؛ فقد كان والدي خالَه.. وكان «علي بن فالح» - الذي هو أحد أبناء زوجات الشيخ «عيد» رَحِمَه الله - أصغرَ مني سِنًّا.. فطلبتُ منه أنْ يساعدني في إنجاز تلك المَهَمَّة.. لا أَعْلَمُ - تحديدًا - كم استغرقنا مِن الوقت لبناء تلك الصَّوْمَعَة باحترافية جَعَلَتْها تَصمُدُ ما يُقارِبُ العشر سنوات كاملة، رغم زَوال مُعظَمِ المباني الأخرى بفِعْل العواصِف!!

لقد بَنَيتُ قَصريَ المَنِيف هذا وصومعتي هذه وفَرَشْتُها برمالٍ نظيفة كَلَّفتني خمسين ريالًا.. ثمَّ انتقلتُ - من عند ابنَي عَمَّتي - إلى قَصري هذا، بعد أنْ وَفَّرتُ جميعَ ما قد يَلزَمُني مِن أغراض رُبَّما كانت بسيطة لكنَّها كانت فارِقة.. فأساسُ أغراضي كان الحَطَب والفانوس والمُؤَن التي تكون دائمًا - كما عَلَّمني أبي - جاهزةً لاستقبال أيِّ ضَيفٍ أو زائِر.

استمَرَّت إقامتي بالصَّوْمَعَة ما يُقارِبُ السنتين.. واستمَرَّت عَلاقتي مع ابنَي عَمَّتي.. وكُنَّا نذهبُ معًا بسيارتهما نتجول هنا وهناك.. هذا بالرغم من عِلْمي أنَّ والدي قد اشترى لي سيارة لم تَرَها عيناي أصلًا!!

لقد أتى والدي إلى مكان إقامتي مع ابنَي عَمَّتي بسيارة (هاي لوكس) فلم يَجِدْني.. فقد كُنْتُ ذاهِبًا لقضاء بعض أشغالي.. فقال وقتَها: «لم أَجِدْه وهو لا يملك سيارة.. فكيف لو كان يَملِكُها؟!».. فعاد بالسيارة وباعها مباشرة!!

لم أتأثر كثيرًا بعدما عَلِمتُ بالأَمْر.. فالدُّنيا لن تتوقف على فُقدان شيء.. ودَرسُ الكُرَة (البلاستيكية) لم يكن ببعيد، رغم أنَّ والدي رَحِمَه الله اشترى لي - بعد ذلك - سيارة مُستَقِلَّة.

وقد كُنْتُ في العُطْلاتِ الأُسبوعية وفي نهاية السَّنَة الدراسية أَكتَسِبُ أموالًا كثيرة من أعمال الحِراثة والشِّيْوَل و(الدراكتور/ البلدوزر).. وكُنْتُ ماهِرًا جِدًّا في الحِراثة.. وكُنْتُ أُدخِلُ لوالدي في الشهر ما يُقارِبُ العشرة آلاف ريال.. وكُنْتُ أُنجِزُ الأعمال في سُرعةٍ شديدةٍ مع الإتقان.. ولذلك اعتَمَدْتُ نظامَ العمل بالمقاولة وليس نظام العمل بالساعة.

وكُنْتُ أَذْبَحُ الغَنَم وأُجَهِّزُها.. وأقومُ بالطبخ وإعداد القهوة.. وكنتُ أرعى الإبِلَ وأحُسِنُ رُكوبَها.. وأقومُ بالعديد من الأعمال التي يُكَلِّفُني بها والدي.. حتى حَدَثَ ما لم أكن - يومًا - أَتَوَقَّعُه!!

قامت البلدية - بأَمْر من أمير "المدينة" - بتنظيم هذا الحي العشوائي، وسَجَّلَت هذه (المساكن) - ومن ضمنها صَوْمَعَتي - بأسماء ساكنيها، وذلك بعد أكثر من عشر سنوات بعد تخرجي من الثانوية وذهابي إلى التقديم بكليات عديدة بمدينة "الرياض". وكان هناك رَجُلٌ تَربِطُه عَلاقَةُ رَحِمٍ بوالدي يُدعى «سمران عشيش البلوي».. فقام بتسجيل الأرض مع اللجنة.. ولكن أبي رَحِمَه الله قد باع الأرض قَبْلَ ظهور صَكِّها بثلاثين ألف ريال كما ذكرتُ سابقًا في «صراطي مع والدي»!!

بعدَها بأعوام رَفَضَتِ البلدية تَحْويلَها للمحكمة لإخراج الصَّك لأنِّي ممنوح، وبِحُكْم كَوْنِها باسمي جاء الرَّجُلُ المُباعة له الأرض فخَيَّرتُه بين أن يَقبلَ بها بمشكلتها أو أُعطيه المبلغ الذي دَفَعَه لوالدي.. فقَبِلَ المبلغ.. فطالبتُ البلدية بالأرض مُدَّة سنتين.. وكَسِبتُ القضية.. وبِعْتُ هذه الأرض بمائة ألف ريال سُعودي!!

إنَّ ثباتَ هذه الصَّوْمَعَةِ قد أعطاني مُؤشِّرًا وقَناعَة قوية بأنَّ إتقان العمل والإنجاز والثبات على الموقف والتعامل مع الأمور بواقعية – هو السَّبيلُ الأمثلُ من أَجْلِ تحقيق الآمال التي يسعى إليها المَرءُ في صِراطه، وهذا ما تحقَّق معي، وقد كان لوالدي رَحِمَه الله الفضلُ الكبير في ذلك.. والذي كان يُسنِدُ لِيَ المَهام تِباعًا، مُنْذُ أنْ كُنتُ بالصف السادس الابتدائي!

أَذْكُرُ أنَّ والدي كَلَّفني يَومًا - وأُختي «سلمى» التي تَصغُرُني بسَنَة - بأَنْ نرعى الأغنام.. وكان عَمِّي «مشحن» يرعى إبلَه قريبًا مِنَّا.. وبعد صلاة العَصْر ذَهَبَ والدي إلى البيت بـ"الخشيبة" التي تَبعُد حوالي عشرة كيلومترات عن مكاننا الذي نرعى فيه الأغنام التي لدينا.. وكان والدي رَحِمَه الله قد أَمَرَنا أن نَسْرَحَ بعد التَّل، وأنْ ننام عند عَمِّنا على أنْ يأتي إلينا في الصباح.. وعندما سِرْنا تجاه عَمِّي تفاجأنا بأنه غير موجود!!

صِرْتُ أَرْكُضُ إلى جَبَلٍ قريبٍ لَعلِّي أرى عَمِّي.. حتى جاء وَقْتُ المَغرِب ولا أَجِدُ أَحَدًا، فانتابني بَعْضُ الخَوْف الذي أَخْفَيْتُه عن أُختي «سلمى» لكيلا تخافَ لِخَوفي أضعافَ خَوْفها من الضَّياع ومن ظلام الليل!!

لقد حاولتُ - حينَذاك - أنْ أَتَصَرَّفَ تَصَرُّفَ الكِبار؛ فأَشْعَلْتُ نارًا تُؤنسُنا.. فاجتَمَعَتِ الغَنَمُ - حَوْلَنا - تأتَنِسُ بالنار، وتُؤنِسُنا هي أيضًا.. ولم يَكُنْ معنا فِراشٌ ولا غِطاء يَقينا البَرْد.. فحَفَرْتُ لِأُختي حُفرةً لِتَشْعُرَ بالدِّفْء فيها.. وغَطَّيتُها بعِمامَتي حتى نامَت مُطمئِنَة.. ثمَّ جَلَسْتُ قُرْبَها أَسْرحُ بخواطري فيما عساه أنْ يَصنعَ بي ذلك الموقف في قابِلِ الأيام!!

لقد كان لتلك المواقِفِ أَثَرُها في نَفْسي وفي تكوين شخصيتي في هذه السِّنِّ المُبَكِّرَة.. وكنتُ أَتَذَكَّرُها كُلَّما مَرَّبي مَوقِفٌ مُشابِه في أعوام أُخرى أَقبلَت.

فَعالِياتٌ.. وتَفاعُل!!

بدأت دراستي المتوسطة في مدرسة «موسى بن نصير».. وبعد ثلاثة أسابيع تقريبًا بَدَأَتْ إدارة التعليم بـ"العُلا" في إنشاء متوسطة «الظاهر بَيبرَس» التي سُمِّيَت في بدايتها «المتوسطة المحدثة»..

كان مدير المدرسة اسمه الأستاذ «ناصرعبد الدائم» رَحِمَه الله، وكان ذلك سنة ١٣٩٨ - ١٣٩٩هـ (١٩٧٨ - ١٩٧٩م).. وتَخَرَّجْتُ فيها سنة ١٤٠٠ - ١٤٠١هـ (١٩٨٠ - ١٩٨١م).

أَذْكُرُ في تلك الفترة دفاعاتِ الأستاذ «ناصر» عَنِّي، وإشادتَه بي أمام والدي.. وأَذْكُرُ منها قولَه: «لا تضرب سالم.. صحيح إنَّه يُخطئ بحُكْم سِنِّ المراهقة.. ولكن ستَجِدُهُ في مستقبل الأيام»!!

لقد كان لهذا الرَّجُلِ أَثَرُه الكبير في نَفْسي؛ حيثُ جَذَبَتْني قيادتُه وحِرصُه على الطلاب، والتزامُه في ساعات الدوام وفي الأنشطة المدرسية التي كان بها حِراكٌ ثقافي رياضي اجتماعي - خلال السنوات الثلاث - مُنقَطِعَ النظير.

كان المسرحُ المدرسيُّ يَعُجُّ بالعديد من الفعاليات.. لقاءات مجالس الآباء.. تمثيليات إنجليزية.. ومسرحيات تاريخية مثل: مسرحية «هارون الرشيد»، وكذلك مسرحية «معن بن زائدة» وغيرهما.

وكان صباحُنا يبدأ بسماع الصوت الخالِد وأحد مزامير «داود» عليه السلام – صوتِ الشيخ «عبد الباسط عبد الصمد» رَحِمَه الله.. ومن ثَمَّ الطابور والسلام الوطني لـ(المملكة)..

هذا بالإضافة إلى العديد من الأنشطة الأخرى؛ كالإذاعة المدرسية والصحافة والرِّحْلات والرَّسْم والتصوير والأنشطة الرياضية؛ مثل كُرَةِ القدم، والكُرَة الطائرة، وكُرَة اليد، و(التنس) وألعاب (الجمباز) وغيرها من الأنشطة الرياضية المتنوعة... وكُنَّا نَتَفَنَّنُ في اختراع أدوات بدائية لكي نمارس تلك الأنشطة الرياضية خارج المدرسة كـ(الجمباز) وغيرها من الألعاب.

لقد كان كُلُّ شيء يَمُرُّ بِنا نُجِسُّ وكأَنَّ له رائحةً وطعمًا بسبب نُدْرَتِه؛ فكُلُّ الأشياء كانت جديدة علينا في آخِرِ عهد الملك «فيصل» وبداية عهد الملك «خالد» رَحِمَهما الله.. (التلفاز).. الأدوات الرياضية.. المسارح.. وذلك بعد أنْ كُنَّا نذهب إلى المقهى أو لأحد أقاربنا لأنَّنا لا نملك (تِلفازًا).

وأَذْكُرُ - مِمَّا أَذْكُر - أنَّ أحد الجيران كان لديه دور (سينما) بالمعنى المعروف حاليًا يقوم بتشغيلها رغم نُدْرَتِها في ذلك الوقت.

في ذلك العهد.. كانت تُصرَفُ لنا الأغذية بالمدارس؛ حيث كُنَّا ننتظر (الفُسحة) لكي نستمتع بتناول تلك الأغذية وما تحويه من حلوى..

لقد كانت مرحلة المتوسطة من أكثر مراحل عُمْري طاقةً وحركةً، وتفاعلًا وجُنونًا أيضًا.. أَذْكُرُ أنَّه أثناء عَمَلِنا في إحدى المزارع بمحافظة "العُلا".. أَمَرَني والدي رحمه الله أنْ أقود (البلدورز/ الدراكتور) وأعود به إلى مزرعتنا بقرية "الخشيبة".. ونظرًا لكونه (بلدوزر) يسير بشكل مستقيم تَوَجَّبَ عليَّ أن أَسْلُكَ الطريقَ الصحراوي، وكان القليلُ مَن يسلك هذا الطريق شِبْهَ الخالي.. وأثناء سَيري قُمْتُ بتثبيت سُرْعَةَ (البلدوزر) على أقصى سرعة.. ومن جُنوني أنَّني عادةً ما أقوم بالنزول والصعود إليه وهو يمشي، فقُمْتُ بالقفز منه هذه المَرَّة لأستلقِطَ شيئًا يُشْبِهُ الكشاف على الأرض، وهذه المَرَّة عَلِقَ ثَوْبي بحديدة أثناء قَفْزي، مما أدى إلى سُقوطي على مُنتَصَف (الجنزير)، فأخذ بي إلى الأمام وأنا أُحاول أن أُخَلِّصَ نَفْسي من طبقات الجنزير التي تقفل وتفتح لِأَلْتَفَّ نَحْوَ الأرض، ومن رحمة ربي أن تَمَزَّق ثوبي فكان سببًا لنجاتي من موتٍ مُحَقَّق، فسَقَطْتُ على الأرض وذَهَب (البلدورز) في طريقه!!

لم أَكُن أُصَدِّق وَقْتَها أنَّني نَجَوْت.. ولَكِنْ تَدارَكْتُ الأَمْرَ سريعًا، ولَحِقْتُ بـ(البلدوزر) وأَوْقَفْتُه، ووَقْتَها أَدْرَكْتُ أنَّني لا أرتدي سوى (الشورت) و(الفانيله)!!

بَحَثْتُ بالصندوق الخلفي لـ(البلدوزر) عن ملابس، فوَجَدْتُ ملابس قديمة للسائق الذي يقضي الإجازة، فلَبِسْتُها وأَكْمَلْتُ طريقي، وأنا أُفَكِّرُ كيف أُخْبِرُ والدي بما حَدَثَ، وما أَنْ وَصَلْتُ لم أَجِدْ والدي هناك، فدَخَلْتُ البيت مُسرِعًا ولَبِسْتُ ثَوبًا آخَرَ، وكأَنَّ شيئًا لم يَكُن!!

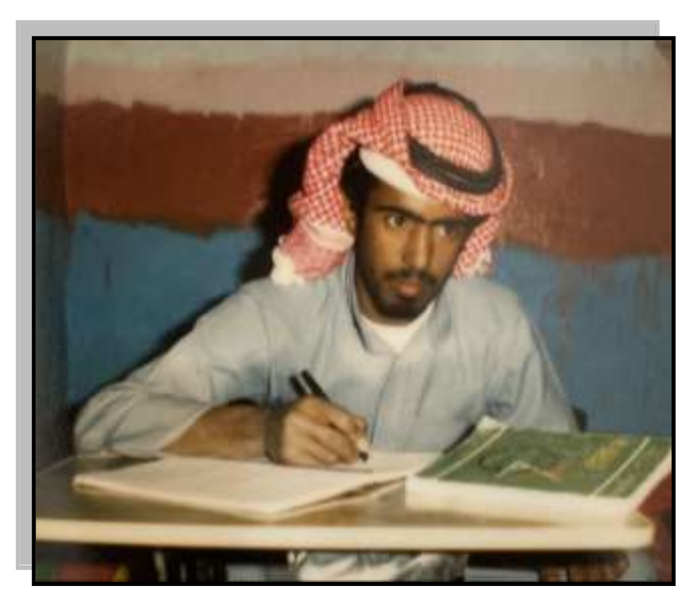
وكانت تأتينا لِجانٌ من القطاعات العسكرية لكي تَعرِضَ ما لديها من ميزات؛ كتسويق للقطاعات العسكرية.. ممَّا كان له تأثيرُه في نَفْسي بعد ذلك عندما استَقَلَّيْتُ طائرةً من "تبوك" إلى "الرياض" لكي أتقدَّم للثانوية العسكرية في "الخرج".. وفي أثناء مُراجَعَتي الثانوية العسكرية سَأَلْتُهُم عن المجالات التي يُمكنني أنْ أتقدَّم إليها بعد الثانوية العسكرية فأجابوني بأنَّه يُمكنني الالتحاق فقط بالكليات العسكرية.. ولكنِّي اتَّخَذْتُ - وَقْتَها - القرار السليم بالعودة إلى الدراسة بالثانوية العامة؛ لكي تكون جميع الخَيارات مُتاحَةً أمامي، سواء أكانت عسكرية أم مَدَنية.. فرَجَعْتُ إلى "العُلا"، وسَجَّلتُ بثانوية «الوليد بن عبد الملك».

بعد إِكمال السَّنَة الأولى بالمرحلة الثانوية كان عليَّ أنْ أختار - كغيري مِن الطلاب - ما بين المَسار العِلْمي أو المسار الأدبي.. فاخترتُ المَسارَ العِلْمي..

وخلال تلك الفترة انتقلتُ - وزميلاي «زايد» و«حسين» - من الحي الشعبي إلى منزل بحي "المحاش"، وكان المَسكنُ الجديد - الذي سكناه - بناء مَبنياً مِن الحَجَر الأحمر المُستَخرَج من جبال "العُلا" التُّرابية.. وكُنَّا نُسَمِّيه (الثلاجة)؛ لأَنَّه كان باردًا بالصيف ودافِئًا بالشتاء!

وبعد السَّنَة الأولى انتقل «زايد» إلى حالة "عمار" في منطقة "تبوك"، وأكمل الثانوية هناك، وبَقِيْتُ أنا «وحسين» في (الثلاجة) المُكَوَّنة من غُرْفَة ومطبخ تَفصِلُ بينهما صالةٌ تخلو من (تلفاز)!!

وقد كُنَّا نذهبُ إلى بَيت أحد جماعتنا أو إلى أحد المطاعم لمشاهدة بعض البرامج والمسلسلات، وكانت فِقرتُنا المُفَضَّلة هي المصارعة الحُرَّة.. وكأنَّها استعداد لمُصارعة الحياة!



صورة الكاتب بالثانوية

وقد أَخَذْتُ أُجِدُّ في المذاكرة مُتحدِّيًا المناهجَ ومُشارِكًا - في الوقت ذاته - في الأنشطة الرياضية؛ مثل مسابقة ألعاب القوى التي أُقيمت على مستوى (المملكة)؛ فكُنْتُ أحدَ المشاركين بهذه التظاهرة الرياضية بمدينة "الدمام" في رِحلَةٍ لا تُنسى!!

استَقَلَّينا الحافلة إلى "المدينة المنورة" ثمَّ قُمنا بشراء جميع الأغراض من ملابس وحقائب من محلٍّ مشهور بجَوْدَة الملابس وجميع ما يحتاجه الرياضي.. ثمَّ استَقَلَّينا الطائرة مع مُشرِفينا الأستاذ «أحمد الطعيمة»، والأستاذ «سالم ياسين»، والأستاذ «علي عاقل» رَحِمَه الله.. ثمَّ توجَّهنا إلى "الرياض" لنستقلّ طائرة أخرى إلى "الدمام".. وعند وصولنا أسكنونا بفندق ضخم - خمسة نجوم - مُكَوَّن من اثني عشر دورًا..

وكانت المنافسة - على ما أَذْكُر - في نادي الاتفاق.. أو نادي رعاية الشباب بـ"الشرقية".. وكان مِنَّا مَن يرمي (الجُلَّة).. ومِنَّا مَن يشارك في الوثب الثلاثي.. ومِنَّا مَن يُشارك في الجري.. ومِنَّا مَن يُشارك في الزانة وغيرها من ألعاب.

وكانت أوقاتُ الرِّحْلةِ - كُلُّها - ماتِعَةً؛ حيث لم تَغِب الفكاهةُ والمواقِفُ الطريفة.. والتي منها إدخالي زملائي من باب الطوارئ الذي كان يُفتَح من الداخل فقط.. ثمَّ أُغلق عليهم ليتورطوا في عدم استطاعتهم فتح الباب؛ ليضطروا إلى النزول اثني عشر دورًا مع (البدروم).. مرورًا بمكائن وزيوت!!

ومن طريف المواقف - أيضًا - في هذه الرِّحْلَة مُشاهدَةُ أحدِ الزُّمَلاء - وكانت أَوَّل مَرَّة يستقل فيها طائرة - لـ(لمبة) بطرف الجناح من الشباك فيَظُنُّها نَجْمًا فيقول: «هَالنجم معنا من يوم أقلعت الطايرة من "الرياض"»!!

وما بين ارتطامِ أحدِنا بزُجاج الفندق.. وآخَر له موقِفٌ مع الأكل.. وما بين ابتسامةٍ ورُوحٍ مَرِحَةٍ ومنافَسَةٍ شريفة.. تُتَوَّج هذه الرِّحْلة بحصولنا على المركز الثالث - أو الرابع - على مستوى (المملكة).

عُدنا - بعدها - لمطار "الرياض" القديم الذي كان قريبًا من ملعب "الملز".. والذي ذَهَبْتُ إليه أثناء ساعات الانتظار لمشاهدة مباراة بين النصر وفريق آخَر.. حيث شاهدتُ الكابتن «ماجد عبد الله» رَأْيَ العين فسُرِرْتُ كثيرًا.. ثم عُدتُ ولَحِقْتُ بزملائي ورِحْلَتي التي - أبدًا - لا تُنسى.

وهكذا كانت أيام الإجازة بِكُلِّ ما فيها من جُنون وطاقة.. ثم عادت أيام الدراسة مَرَّة أُخرى.. إلى أنْ أَنْهَيْتُ المرحلة الثانوية بتقدير (جيد جدًّا).. لتأتي مرحلة أُخرى بعد الثانوية.. تَشَتَّتَتْ فيها الهُوِيَّة!!

تـَشَتُّتُ الهُوِيَّة.. بعد الثانوية!!

صاغَ عالِمُ النَّفْس «إريك أركسون» مصطلح تشتُّت الهوِيَّة، تعبيرًا عن تَحَدٍّ مِن تَحَدِّيات مَرحلة المُراهَقَة؛ حيث يَعُدُّ هذه المرحلة من بين أهمِّ مراحل حياة كُلِّ إنسان، والتي يُحاوِل فيها المَرْءُ اكتشافَ ذاتِه وتحديدَ هَدَفِه في الحياة.

لم أَكُنْ أسعى إلى اكتِشاف ذاتي فحَسْبُ.. فكُنْتُ أسعى لِصُنع ذاتٍ تَحوي مجموعةً مُتعدِّدةً مِن ذواتٍ أخرى؛ فالقُدَوةُ: رَسُولٌ كريم عَلَّم الإنسانيةَ أسمى معاني الأخلاق.. والسَّمْتُ: فاروقٌ إذا مشى أسرع، وإذا تَحَدَّث أسمع، وإذا ضَرَبَ أوجَع.. والرأيُ: إمامٌ عَلِيُّ العِلْم والقَدْروالهِمَّة، والعَزمُ: تاريخُ أسماءٍ كُثُر.. والاجتهادُ: أبٌ صارَعَ الدُّنيا وصارَعَتْه.. أمَّا الهَدَف: فَشَابٌّ لم يَزَلْ يتأرجح بين أهدافه وطموحاته!!

وقد رَكَّزَ عالِم النَّفْس «جيمس مارسي» على مَرحلة المُراهَقَة وأزمة الهُوِيَّة التي عَرَّفَها بأنَّها: بِناء داخلي، يُشَيَّدُ مِن طَرَف الشخص ذاته، وأنَّها تُمَثِّل مجموعَ المعتقدات والقُدْرات والدوافع وتاريخ الفَرْد.

المعتقداتُ - في عِلْمي - ثابتة.. والقُدْراتُ - في ظَنِّي - فائِقَة.. والدَّوافِعُ عِدَّة، والتاريخُ مَأمُول.. لكِنِ البناءُ بَعْدُ لَمَّا يَكتَمِل، بَلْ إنَّهُ لم يبدأ.. فما زِلْتُ أُفَكِّرُ في التخطيط له.. في كُلفَةِ بنائه.. في كُلِّ جزئية مِن جزئياته.. في خَشَبِه وزنكِه ومساميرِه وأقفالِه.. في كُلِّ ما عساه أنْ يَجعلَه بِناءً قَوِيًّا يَقِفُ شامِخًا في مَهَبِّ الرِّيح!!

لقد ذَكَرَ «مارسيا» أنَّه كُلَّما كان هذا البناء متينًا كانَ الفردُ أكثرَ وعيًا بأوجه التَّفَرُّد والتشابُه مع الآخَرين، وأنَّه كُلَّما كان هذا البناءُ ضعيفَ التشييد.. كانَ الفردُ مُشَوَّشًا حَوْلَ ما يُميِّزُه عن الآخَرِين، وكان أكثرَ اعتِمادًا على مصادرَخارجيةٍ لتقييم ذاته واكتشافها.

لم أُرِدْ أنْ يكون ثَمَّةَ تقصيرٌ في بناء ذاتي وصومعةِ هُوِيَّتِي.. فلا شكَّ أنَّ العوائقَ كانت كثيرة في سبيل تحقيق وتشييد البناء.. ولكن لا شيءَ يدومُ على حاله.. فرُبَّما تأتي الرياحُ - يومًا - بما تشتهي طموحاتي!!

يرى «جيمس مارسيا» أنَّ بناء الهوِيَّة ديناميكي وغير ثابت؛ فهو يتغير - كُلَّ حين - في مراحل حياتية شَتى، فتُضافُ عناصر جديدة لهذه الهُوِيَّة وتُزالُ أُخرى؛ فالإنسانُ دائِمُ البحث والاكتشاف.. إلا أنَّ هذه الهُوِيَّة تتحدَّد معالِمُها الكبرى في سِنِّ المُراهَقَة، كون هذه المرحلة العُمْريَّة فاصِلَةً بين الطفولة وسِنِّ الرُّشْد، بكُلِّ ما فيها من تَقَلُّبات مِزاجية وتَغَيُّرات هُرمونية تُمَهِّدُ لمرحلة الشباب.. حيث اكتمال النمو والبِناء النَّفْسي والجسدي، والتهيؤ التدريجي لتحمُّل المسؤولية، والاستعداد التام لتنفيذ المَهام.

لا شكَّ أنَّ فترة المُراهَقَة - التي مَرَرْتُ بها - كانت تُفرزُ لَدَيَّ مجموعةً كُبرى مِن التساؤلات الفِكرية والإدراكية التي جَعَلَتْني في حِيرَةٍ مِن أَمْرِي في كثير مِن الأمور التي تُشَكِّل الهُوِيَّة.. ولا شكَّ - أيضًا - أنَّه كان لدَيَّ مِن المَخزون العقائدي والموروث القَبَلي ما جَعَلَني أتجاوزُ تلك الحِيرة بشكل يسير والحَمْدُ لله.

هذا وقد قَسَّمَ «مارسيا» مراحِلَ الهُوِيَّة إلى أربعة مستويات: مستوى تحقُّق الهُوِيَّة، ومستوى تأجيل الهُوِيَّة، ومستوى إعاقة الهوِيَّة، ثُمَّ مستوى تَشَتُّت الهوِيَّة، ويرى أنَّ المُراهِق يعتمد - في هذه المستويات - على بُعدَين هما: الاستِكشاف والالتزام؛ حيث إنَّ الاستِكشاف تُمَثِّلُه تلك التساؤلات التي يطرحها الشابُّ على نَفْسِه حَولَ هُوِيَّتِه وماهيتها، في حين يُمَثِّلُ الالتزام الاختيارات التي قد يَنتَهِجُها الشابُّ في شتى المجالات. مع العِلْم أنَّ الشابَّ - في كُلِّ مستوى مِن المستويات الأربعة - يُقابِلُ أزمةَ هُوِيَّة يُحاول تَجاوُزَها بتحديد مَعالِمِها!

أولًا: مستوى تَحَقُّق الهوِيَّة (Lievemen Aldentity ac):

وهذا المستوى يُمَثِّل أعلى مستويات الاستِكشاف والالتزام معًا؛ حيثُ يسعى كُلُّ شاب إلى تكوين رؤية واضحة عن هُوِيَّته وأهدافه، والقِيَم والمبادئ التي سيَحملُها مع بَحثِه الفِطري عن معتقداته الدينية بوصفها جُزءًا أصيلًا من هُوِيَّتِه.

وبطبيعة الحال.. سوف يسعى الشابُّ - في هذا المستوى - إلى تكوين رُؤية فلسفية للأمور، وإلى أَنْ يكون له انتماءٌ فِكري نَحْوَ العالَم مِن حَوْلِه، كما سيسعى إلى تحقيق استقلالية الذات فردًا له كِيانُه وتوجهاتُه داخِلَ المجتمع الذي يعيشُ به.

لذلك سيحرص كُلُّ شاب في هذا المستوى على طَرْح كامل تساؤلاته - الكثيرة - من أجل الوصول إلى إجابات تَجْعَلُه مُلتَزِمًا بمجموعة من الأصول التي تُكَوِّنُ داخِلَه مَعالِمَ الهُوِيَّة.

ثانيًا: مستوى إعاقة تكوين الهُوِيَّة (Foreclosure):

وفي هذا المستوى يكون المراهق ضعيفًا في الاستِكشاف قويًّا في الالتزام؛ فالشابُّ يسلك منحًى سلبيًّا في استِكشاف ذاته؛ لأنَّ هُوِيَّتَه مُكتَسَبَة من وسطه العائلي ومجتمعه المحيط به، كما أنَّه مُلتَزِم بهذه الهُوِيَّة المُكتَسبَة؛ فهو يفعل ما تفعله أُسرَتُه ومُحيطه الاجتماعي، وإِنْ سألتَه: لماذا تفعل هذا أو ذاك؟ فإنه سَيُجيبُك: هذا ما يَجِبُ أَنْ أفعله؛ فإنَّ الكُلَّ يفعله. لذلك فإنَّ قناعته ليست نابعةً مِن ذاته، وقد يُحَدِّدُ له وسطه العائلي مسارَه الدراسي؛ فهو لا يُواجه أزمةَ هُوِيَّة ولم يَمُرَّ بها.

ثالثًا: مستوى توقيف أو تأجيل الهُوِيَّة (Moratorium):

وهذا المستوى عَكْسُ مستوى تكوين الهُوِيَّة؛ ففي مستوى توقيف الهُوِيَّة يكون المُراهِق في مستوًى عالٍ مِن الاستكشاف، ومُنخَفِضٍ في الالتزام.

وهي المرحلة التي يُواجِهُ بها الشابُّ أزمةً في الهُوِيَّة؛ فهو يطرح عِدَّة تساؤلات يتركها مفتوحةً بلا إجابة سعيًا للاستِكشاف. وهو غير مُلتَزِمٌ بهُوِيَّة مُحدَّدة؛ فهو يُريدُ أَنْ يَعرِفَ مَنْ هُوَ تحديدًا؟ ورُبَّما يكون غيرَ مُحَدَّد الهدف في هذه الحياة، ولا يعرف ما يَرغَبُ في أنْ يفعله.

رابعًا: مستوى تَشَتُّت الهُوِيَّة (Ndiffusio DIdentity):

وفي هذا المستوى يكون المراهقُ ضعيفًا في الاستِكشاف، وضعيفًا - أيضًا - في الالتزام؛ فالشابُّ - في هذا المستوى - يُعاني من "تَشَتُّت الهُوِيَّة"؛ فلا يُحاول استِكشافَ ذاتِه ولا تكون له أهداف مُحَدَّدَة.. هو يعيش اللحظة فحَسْبُ.. سُلُوكُه في الحياة سَلْبي؛ فهو يَدرُس لأن عليه أن يَدرُس، وليس له رأي مُحَدَّد في كثير من جوانب الحياة مهما كانت مُهِمَّة.. هو يعيش فقط لأنَّه حَيٌّ يُرزَق!!

ويرى «مارسيا»: أنَّ المُراهِقَ يمُرُّ بهذه المراحل الأربع جميعًا، أو بمرحلتين فقط، وقد لا يَمُرُّ بأي مرحلة من هذه المراحل.

وتُعَدُّ مرحلة تَحَقُّق الهُوِيَّة هي المرحلة الأكثر نُضْجًا؛ فيَجِبُ على الشابِّ السَّعْيُ مِن أَجْلِ الوُصول إليها؛ فلا بُدَّ له أنْ يَعْرِفَ مَن يكون؟ وماذا يُريد؟، فإذا أَدرَكَ الإنسانُ هدفَه فقد حَدَّدَ هُوِيَّتَه، ومَن لم يُحَدِّد هدفَه ضَلَّ الطريق!!

لقد كان طُموحي يُخالِفُ تَشَكُّلي النَّفْسي.. كُنتُ أَطمَحُ في أنْ أُصبِحَ طيَّارًا حربيًّا ولكن لم تتوافق شخصيتي مع متطلبات العمل العسكري، ولعلَّ السبب يعود إلى بُعدي عن الأُسرة والعيش وحيدًا؛ حيث كُنتُ أَسكُنُ بمفردي، وأَتَّخِذُ قراراتي بنَفْسي، وأُسافرُ وَحْدي.. لذلك واجَهَتْ شخصيتي الحُرَّة مَتاعِبَ كثيرة في السلك العسكري.

ثلاثُ كليات عسكرية!!

بعد تخرجي من ثانوية «الوليد بن عبد الملك» بـ"العلا" (علمي) بتقدير "جيد جدًّا" عام ١٤٠٤هـ الموافق ١٩٨٤م.. تَقَدَّمتُ إلى ثلاث كليات عسكرية، وهي كلية الملك «خالد» للحَرَس الوطني، وكلية الملك «فيصل» الجوية، وكلية الملك «عبد العزيز» الحربية، وكانت رَغبتي المُلِحّة التي تَشَكَّلَت من زيارات القوات الجوية لنا في المرحلة المتوسطة.. أَنْ أَكُونَ طيَّارًا أُحَلِّق في السماء، لكن كان أول قبول كلية الملك «خالد» للحَرَس الوطني، فالتَحَقْتُ بها، وما أَنْ مَرَّ أُسبوع إلا وجاءني خَبَرُ قَبولي المبدئي بكلية الملك «فيصل» الجوية، فغَيَّرتُ وجهتي وخَرَجْتُ من الحَرَس الوطني لأستكمل قَبولي بكلية الملك «فيصل» الجوية، لِأُفاجأ بوجود فَحْصٍ طبي خاص آخَر بمدينة "الظهران" بالمنطقة الشرقية، لكنِّي لم أَجتَز الكَشْفَ الطبي؛ حيث كان لدي لحمية بالأنف، ورَجعْتُ من مكان الفحص بالمنطقة الشرقية بخُفَّي حُنَيْن؛ إذْ ضحَّيتُ بالكلية الأولى، ولم أستطع الالتحاق بالأخرى، ولكنَّني لم أيأس، فذهبتُ إلى مستشفى الملك «عبد العزيز» الجامعي، وقابَلْتُ طبيبًا سُعوديًّا أَخبَرَني أنَّه مَرَّ بنَفْس الموقف إلى أنْ صار طبيبًا متخصصًا بالأنف والأذن والحنجرة، فنَبَّهَني إلى أنَّ عدم القَبول بكليةٍ ليس نهاية الدنيا؛ فرُبَّما تكون بداية دنيا أُخرى لعلَّها أفضل وأنفع.

لم أنسَ هذه الكلمات من طبيب تَخَصَّص في شيء أخفق بسببه في الكلية الجوية.. وقد وضعني ضِمْنَ قائمة الاحتياط لإجراء عملية اللحمية، لكنَّني عَجَّلتُ بإجرائها مع طبيب صيني خاص يُدعى «شانج»، وكان متخصصًا في الأنف والأذن والحنجرة، ويُعالج بالكي بماكينة كهربائية، وواجهتُ مشكلة تدبير تكلفة العملية، لكنَّني استطعتُ - بشِقِّ الأنفُس - تدبيرَ المبلغ، وقُمْتُ بإجراء العملية.. التي اهتزَّت لها أسناني بسبب ذلك الكي.

بعد العملية عُدْتُ لإعادة الفَحْص الطبي فاجتَزْتُه بنجاح، والتحقتُ بالكلية الجوية (بالفصل الدراسي الثاني)؛ فقد فاتني الالتحاق مع مَن اجتازوا الاختبارَ بالفصل الأول، ومَكَثْتُ فيها ما يُقارِبُ الثلاثةَ أشهر التي عِشْتُ فيها أحداثًا مُؤثِّرَة، وكان سعادة العميد «الجعويني» عميدَ الكلية الجوية وَقْتَها، حتى انتَهَتْ معاناتي معهم ومعاناتُهم معي بإجراء عملية الزائدة، فمُنِحْتُ إجازةً مَرَضِيَّة إلى نهاية الفصل الدراسي، فارتَبَطَتِ الإجازةُ المرضية مع إجازةِ الصيف ما يُقاربُ الثلاثةَ أشهر ونصف..

وهنا ظللتُ أُفَكِّرُ وأَتأمَّل - كثيرًا - في مسألة تحديد الهوِيَّة؛ فإنَّ التأمُّلَ أصلٌ في إدراك الأمور كُلِّها، فبَدَأَتِ الأفكارُ تُراودني أنْ أذهبَ لِأَدْرُسَ بـ(الولايات المتحدة الأمريكية)، فذهبتُ إلى السفارة الأمريكية، وقابَلْتُ المُلحَقَ الثقافي هناك، وأعلَمْتُه برغبتي في دراسة اللغة، فراسلوا أربع جامعات بـ(أميركا)، وجاءني قَبُول منها؛ فذهبتُ بالأوراق إلى سعادة العميد آنذاك «عبد الرحمن فريج البلوي»، والذي تقاعد الآن برُتبة لواء، وكان قائدَ العمليات بالقوات الجوية، فأَيَّدَني في الفكرة تمام التأييد؛ حيث كانت الفكرة أَنْ أَحْصُلَ على اللغة وأتعلم الطيران بـ(أميركا).. فإذا ما عُدْتُ من هناك أجريتُ الاختبارات التي يتِم على إِثْرها ابتعاثي!

والدراسة في "فلوريدا" سنتان فقط؛ لأنَّه لا تُوجد علوم جوية مباشرة.. ففكرتُ في أَنْ أَبعثَ نَفْسي بنَفْسي.. وكانت الأفكار والتخطيط سهلًا، لكن الحسابات المالية كانت العُقدة والعائق الذي يَقِفُ أمام التنفيذ!!

الطريق إلى (أميركا)

في الطريق إلى (أميركا) لتحقيق الحُلْم كانت رحلة ابنُ العشرين الأولى بتاريخ ١٤٠٥/٧/٢٩هـ الموافق ١٩٨٥/٤/١٩م؛ حيث بَدَأتِ الرِّحلَةُ من "عمان" إلى "نيويورك"؛ لأنَّها الأرخص ثمنًا؛ فسافرتُ بَرًّا إلى (الأردن)، ومن هناك استَقَلَّيْتُ طائرةً بعد ثلاث عشرةَ ساعة.. وأثناء الرِّحلة لم يتوقف عقلي عن التفكير!!

حين نزلتُ أرضَ مطار "نيويورك" كان الجَوُّ مُمطرًا وبديعًا.. استقلَّيتُ سيارة أُجرة ثمَّ توجهتُ إلى القنصلية السعودية من أجل تسجيل جواز سفري وتدبير بعض الأمور.

ورغم زحام الطريق - الذي تداخل مع زحام الأفكار - وَصَلْتُ إلى مبنى السفارة في وقت مُبَكِّر قَبْلَ أنْ تفتح أبوابها، فاحتَسَيْتُ فنجانًا من القهوة بأحد المقاهي القريبة، وظللتُ به منتظرًا.. وسَرَحْتُ أتأمَّل - داهِشًا - ناطحات السحاب والمارَّة والحضارة، واستحضرتُ قولَ الإمام الشافعي رَحِمَه الله:

تَغَرَّب عن الأوطان في طَلَبِ العُلا..

وسافِر.. ففي الأسفارِ خَمسُ فوائدِ

وعندما فَتَحَتِ القنصليةُ أبوابَها دَخَلْتُ إليها مُلقِيًا التحية، وسائِلًا عن القُنصُل.. فأُخبِرتُ أنَّه لم يَصِلْ حتى الآن، وعندما سألتُ: «ليه ما داوَم في موعده»؟ قالوا: «لأنَّه القُنصُل»!

وكان هناك مُوَظَّفٌ أُردني يُتابِع هذا البَدَوي الذي يتعجَّبُ من عدم مداومة القُنصُل في موعده، وكأنَّه يستغرِبُ استغرابي وينتقدُ انتقادي!

بعد قليل.. أحالوني إلى رَجُلٍ فيه خَير أَظُنُّه مُلحقًا عسكريًّا، فذكرتُ له قصتي - على طريقتي - التي جَعَلَتْه يَهتَمُّ أكثر.. كوني أعرف أحدًا من

عائلته.. ثم كَلَّمنا أحد جماعتنا بـ"واشنطن" فأوصى بي خيرًا، إلى أنْ جاء القُنصُل فقابلتُه وسلَّمتُ عليه، ثمَّ سجَّلتُ جواز سفري، وحجزوا لي تذكرة إلى "واشنطن"، وجهزوا لي سيارة لتوصلني إلى المطار.

وقَبْلَ خروجي قال لي الموظف الأردني: «الله عليكم يالبدو»، فقلتُ: «يا رَجُل.. عين خير»!!

أَخَذَتني سيارةٌ دبلوماسية إلى المطار.. واستقبلتني بساحته مُوَظَّفَة عسكرية أوصلتني في سيارة أخرى إلى الطائرة، ومنها إلى "واشنطن".

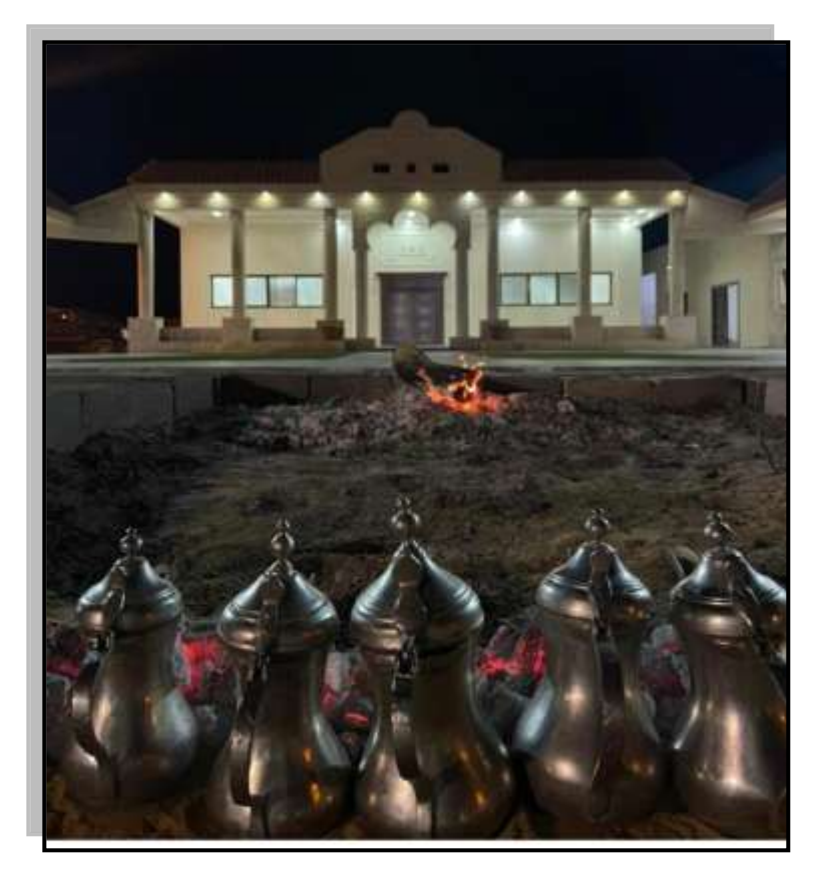
في "واشنطن" استقبلني صاحبي وزملاؤه، وكانوا مُهَيِّئِين كُلَّ شيء، وكان رَجُلُ الخَيِّر - تُرافقه زوجته - مُبتعثًا من قِبَل البحرية، وكان حينها صفَّ ضابط، وكنتُ أُرافِقُه إلى المعهد، وكُنَّا تقريبًا أكثر اثنين يتابعان الأستاذ.

بعد ذلك اتَّصلنا بالأخ الموجود في "فلوريدا".. وذهبنا إليه مِن "واشنطن أتلانتا" إلى "أتلانتا بينساكولا".. فاستقبَلَنا الرَّجُلُ هناك، واستضافنا في منزله العامِر.. ثمَّ أَخَذَني الرَّجُل الكريم إلى معهد الطيران حيث كانت رحلة التدريب على طائرة الـ(سسنا) الصغيرة تُكَلِّفُ أربعين دولارًا.

وكنتُ أنتظر الدفعات المالية التي تُصرَف لي، وأنتظرُ الوفاء ممَّن وَعَدُوني بالدعم المالي، مُتَسَلِّحًا بالعِزَّة التي لا تَقْبَلُ منهم الفضائل المُغَلَّفة بالإشفاق.

فإنَّ التعايُشَ في بلاد الغُربة لا تَقتَصِرُ صعوبته على العوائق المادية فحَسْب؛ وإنَّما تتعدَّاها إلى صعوبة التأقلُم مع عادات وقِيَم تأبى سَجِيَّةُ المَرءِ أنْ يَتَقَبَّلَها!!

مِمَّا عايَنَتُه عيناي.. زجاجات الخمر المصفوفة التي تُثيرُ الاشمئزاز.. لقد قارَنَها عقلي بدِلالٍ أُخرى مصفوفة في بيوت أهل الكرم والجُود في بلادنا، وبالأخص دِلال والدي رَحِمَه الله.



مجلس الكاتب في مزرعته بـ"الخشيبة"

لقد صُدِمْتُ صدمةً قوية شَلَّت تفكيري بسبب ما وَجَدتُه في الغُربة مِن ظروف لا تتناسب مع ما رُبِّيتُ عليه.. إنَّها رحمةُ الله التي حَمَت شابًّا عشرينيًّا مِن أنْ يقع فريسةً لعاداتٍ وأشياءَ كانت مُتاحَة.. وكانت سببًا - مع مجموعة مِن الأسباب الأخرى التي يترأسها العَوَز والحاجة المادية - في اتخاذ قرار المغادرة!!

ضياع الحُلم في (أميركا)!!

يَصعُبُ على المَرْء أَمْرُ أنْ يعود مِن هدف لم يتحقق، لكي يبدأ هدفًا آخَر.. فيتخلى عن حُسْنِ التخطيط؛ بسبب عَدَم القُدْرَة المادية.. فيترك طُموحاتِه وآمالَه تَتَكَسَّر على صخرة الحاجة بسبب صعوبة توفير أبسط احتياجات المعيشة!!

كيف بعد كُلِّ هذا التخطيط وهذا المجهود والسَّعْي الحثيث مِن أَجْلِ الدراسة في (أميركا) أَعُودُ إلى نُقطة الصِّفر لِأَبدأ - من "الرياض" - تحَدِيًا جديدًا هَدَفُه النجاح؟!

ثمَّ كيف أَشْحذُ هِمَّتي - مَرَّةً أُخرى - بعد هذا الإخفاق وتلك الرِّحْلَة الفارِقة؟!.. كيف أُهيِّئُ نَفْسيتي وأَبعَثُها مِن جديد؟!.. كيف أُصَفِّي ذِهني لكي يَرصُدَ عقلي أسبابَ الإخفاق فيتجاوزها بأسرع وقت؟!.. ثمَّ كيف أستجمِعُ قوايَ لِأَنهضَ في وَجْه العَوَز، وأخُطَّ صِراطَ هُويَّتي مِن جديد؟!

إنَّ حُسْنَ التخطيط والهِمَّة والعَزم والإرادة أُمورٌ قد تَتَبَخَّر - كُلُّها - في الهواء إذا كانت تَنقُصُها الحسابات المادية.. كما أنَّ المبالغة في الاعتزاز بالنَّفْس قد تُعمي المَرْءَ عن حُسْنِ التَّصَرُّف؛ فماذا كان يُضيرُني - وَقْتَها - أَنْ أَقتَرِضَ مَبلغًا ثُمَّ أُسَدِّده في وَقْتٍ لاحِق؟!.. لا شكَّ أنَّني في عدم فِعل ذلك قد أخطأت!!

لعلَّ صرامتي وتَشَدُّدي في التِزام العِفَّة وعِزَّة النَّفْس، وبُغضي للمُجامَلَة المادية.. هما السببان الرئيسان لِرَفْضي أيَّ جَميل مِن أحد؛ كَون هذا خَطًّا إستراتيجيًّا لي لم - ولن - أَحيدَ عنه رغم إقراري بالخطأ في عدم اللجوء للاقتِراض حينئذٍ.. وقد قُلْتُها في إحدى قصائدي:

لو عِشْتُ بالبيدا وحيًدًا لحالي..

أخير من قولة فعلنا جِمالة!!

لقد كانت العَودة من (الولايات المتحدة الأمريكية) في شهر رمضان، وكان وَقْتَها صاحِبُ السُّمُو الملكي الأمير «سلطان بن سلمان» حَفِظَه الله رائد الفضاء العربي الأول هو و«البسام» - زميله - يتدربان رياضيًّا، وكُنتُ أُشاهِدُ لهما برامج تدريبية في رمضان عام ١٩٨٥م.

عُدْتُ إلى العاصمة "الرياض" تارِكًا آمالي في الجويَّة، ولكن فكرة الطيران لم تُغادِر رأسي؛ ففكَّرْتُ في أَنْ أُقَدِّمَ أوراقي في الحربية؛ فإنَّ مَن يَتَخَرَّج فيها ويكون أداؤه عاليًا يستطيع أنْ يلتحق بالطيران الحربي العامودي.. فتَقَدَّمْتُ إلى كلية الملك «عبد العزيز» الحربية، وقبلتُ بها بعد استيفائي كُلَّ الشروط الجسدية والمعنوية والدراسية.

وهكذا انتقلتُ إلى مرحلة مَفْصَلِيَّة أُخرى في صِراطِ هُوِيَّتي؛ فالحياةُ لا تتوقف بسبب خَيبة أَمَل أو فَشَل مُؤَقَّت؛ فإنَّ لله حِكْمةً في كُلِّ شيء، و«جزى اللهُ الشدائدَ كُلَّ خير».

لقد صَنَعَتْ مني الشدائد شخصًا ظَلَّ يقود ولا يُقاد، وهذه صِفَةٌ لها مَزِيَّةٌ وعَيبٌ في الوقت ذاته؛ فهي مَزِيَّةٌ لكونها صِفَةً للشجاعة والحِكْمة وتَحَمُّل المسؤولية، وعَيبٌ لأَنَّها لا تتناسَبُ مع العسكرية التي تعتمد على الطاعة والتنفيذ.

بدأتُ الخمسة وأربعين يومًا الأولى مِن التدريب العسكريّ المُتَّصِل، وكان كُلُّ شيء على ما يُرام دراسيًّا، حتى توقعوا أنَّني سأكون قائد الطلبة في الكلية، وكانوا يُسمُّونه رقيب أَوَّل الطلبة.. لكن أمام الضغوطات.. صِرتُ أُصادِمُهم بشخصيتي القيادية، فأوكَلوا لي مَهمَّةَ رئيس الفصيل.

استمرَّتِ الدُّروس العملية والتدريب المَيداني وما فيه مِن تخطيط "تكتيك" عسكري لشتى أنواع التجهيزات العسكرية، وبرغم عَدَم انصياعي التام للتعليمات والطاعة التامَّة فإنني - بِفَضْلِ الله - كُنْتُ مِن أوائل الطلبة في التدريب العسكري، وإتقان المهارات، وكُنْتُ ممتازًا في الدراسة، وصِرْتُ أشعرُ بشعور القائد وأنا أُساعِدُ زملائي.

انْقَضَت سَنَةٌ بالعسكرية بكثيرمن المرارة رغم نجاحي في جميع المواد الميدانية والدراسية، وفي عُطْلَةِ الصَّيْف تَوَصَّلْتُ إلى قَناعة بأنَّني لا أَصلُحُ في هذا المجال، لتضيع سنتان كاملتان بعد تَخَرُّجي مِن الثانوية، وتَشَتُّتي بين كلية الحَرَس والكلية الجوية، والسَّفَرإلى (أميركا)، ثمَّ الكلية الحربية!!







لقد كانت التجربة العسكرية تجربةً ممتازة ومُفيدة إلى حَدٍّ كبير، وأضافت لي الكثيروالكثير، ولكني ما زِلْتُ أَقِفُ عند الرقم صِفْر!!

قد يَيْأَسُ المَرْءُ من أَوَّلِ تَجرِبَة حقيقية لم تُؤْتِ ثِمارَها.. وقد يخرجُ مِن يأسه بأَمَل جديد وتخطيط مُعَدَّل.. ورُبَّما قد يعتريه الإحباطُ إِنْ تكرَّر الإخفاقُ في التَّجْرِبَة التالية.. لكِنَّه قد يُقاوِمُ هذا اليأس وذلك الإحباط إنِ اسْتَطاع أنْ يتحلَّى بالصبر وشيء مِن الإرادة، ولو أدَّى به ذلك إلى أنْ يَأْخُذَ قرارًا مَصيريًّا ما كان أبدًا ليأخذه.. لو استسلم ليأسه وإحباطه!!

فِرارٌ.. وقَرار!!

لا شكَّ أَنَّ المَرْءَ قد يَفِرُّ مِن مواجهة المُحيطين به عَقِبَ الإخفاقِ، خَشْيَةَ أنْ يَنالَهُ منهم لَوْمٌ على خُطوَته غيرالموفقة، كما أنَّ هذا اللَّوْمَ لا يَنفعُ الشخص المُلام، وإنَّما قد يُصيبُه بمَزيد مِن الإحباط واليأس!!

لقد قَرَّرْتُ الفِرار مِن أهلي وأقربائي وجميع المُحيطين بي، ثمَّ انعَزَلْتُ وَحْدَي أُفَكِّر في إخفاقي، وأُحاوِل الوقوف على أسبابه، ومِن ثَمَّ محاولة تَخَطِّي هذه الأسباب مِنْ أَجْل عدم تَكرار ذلك الإخفاق مَرَّةً أُخرى.

بعد ضياع سنتين.. وبعد قرار الانعِزال عن الجميع مُضَحِّيًا بوَقْت الإجازة الصيفية وبالأعياد والمناسبات الاجتماعية.. بعد كُلِّ هذا تَوَصَّلْتُ إلى نتيجة مُفادُها: أنَّ السلك العسكري لا يتناسب مع شخصيتي، ولا يُمكن الاستمرار فيه!!

انْقَضَى حَولانِ كامِلَانِ لم أُنجِز فيهما شيئًا.. لا.. بل أَنْجَزْتُ.. فقد ازدَدْتُ خِبرة.. واكتسبتُ أصدقاء.. واستَفَدْتُ مِن السلك العسكري الكثير.. ووَجَدْتُ في سَفَري الثقة.. وشاهَدْتُ في الغُربة ما لم أُشاهِدْهُ مِن قَبْلُ.. أَجَلْ.. لو عاد بي الزَّمَنُ رُبَّما عَدَّلْتُ في بعض التخطيط.. لكني أبدًا لم أَكُنْ لِأُغَيِّرَ وُجهَتِي!!

سأُنَحِّي جانِبًا ما عساه أنْ يكون إخفاقًا.. وأَنظُر إلى نِصْفِ الكُوبِ المُمتلئ.. لن أستسلم لليأس ولن أُمَكِّنَه مني.. لن أجزعَ لضياع أيامٍ قد تكون سببًا في مستقبلٍ أفضل.

ما فاتَ مات.. والمُؤَمَّلُ غَيْبٌ.. ولكَ الساعةُ التي أنتَ فيها!!

لقد تَوَصَّلتُ إلى قرار بأنْ أتركَ السلك العسكري الذي لا يتناسب مع شخصيتي، وقَرَّرتُ العودة إلى الدراسة مِن جديد، وكانت رَغبتي مُتَّجِهَة إلى الهندسة أو الرياضيات؛ فتقدَّمْتُ لجامعة الملك «سعود»، وكذلك

إلى كلية المعلمين، ومركز العلوم والرياضيات بـ"الرياض"؛ حيث كانت رغبتي الأولى كلية الهندسة، وعند تسجيل الرغبات سجلت أربع رغبات، فاختاروا لي كلية الزراعة، وبعد المراجعة قالوا: تدرس فصلًا ومِن ثَمَّ تتحول إلى كلية الهندسة، فقُلْتُ في نَفْسي بمرارة: «تكفي سنتان ضائعتان»، فدَخَلْتُ مركز العلوم والرياضيات عام ١٤٠٧هـ.

ورغم كُلِّ قناعاتي التامة بالقرارات السريعة التي اتخذتُها في هذه الفترة.. إلا أنَّني أشعرُ أنَّها كانت قراراتٍ انفعالية.. كأنِّي أُعاقِبُ نَفْسي على ضياع سنتين، ومِن هنا تأتي المعاناة، ويأتي الضغط النَّفْسي!!

صِرْتُ أضغط على نَفْسي قانِعًا بالعقاب النَّفْسي، وبدأتُ فصلًا آخَر مِن الاجتهاد، فسَجَّلْتُ مواد الفصل الأوَّل، وكانت المواد منتشرة مِن الساعة الثامنة صباحًا حتى الثامنة مساءً، وفي الوقت ذاته التحقتُ بوظيفة داعِمَة لِسَدِّ الاحتياجات المالية، وكانت في إدارة الأمن والسلامة بمستشفى قوى الأمن بـ"الرياض"، وكان دوامي من الحادية عشرة إلى السابعة صباحًا، ثم أذهب للدراسة بعد الدوام!

وكان يُزامِلُني في هذا العمل - في مرحلة عمرية جميلة وهي مرحلة الشباب حيث كنا بالعشرينات - زميلٌ قدير أديب جليل عزيز عليَّ، وهو سعادة اللواء «نصار حجي العنزي»، والذي يعمل الآن بالإدارة العامة للخدمات الطبية بوزارة الداخلية، والذي كان يَدْرُسُ كذلك بجامعة الملك «سعود» بكلية الآداب قسم الإعلام، والذي تجمعني به صداقة قوية وذكريات لا تُنسى؛ فهو أديب كبير له الكثير من القصائد بالفصحى والنبطي (الشعبي)، منها ما نَشَرَتْهُ الصُّحُف الوطنية.

لقد كان فصلًا كبيسًا في حياتي، فزاد الضغط النَّفْسي والعَصَبي، وتَأَثَّرَتْ صِحَّتي بذلك سلبيًّا، وانعكس كُلُّ ذلك على الدراسة؛ حيث حُرِمْتُ من خَمْسِ مواد لم أستطِع حضورَ اختبارها، لذلك نِلْتُ تقديرًا ضعيفًا تسبب في مُعاناتي بَعْدَها - كما سيأتي - إحدى عشرة سَنَةً!!

وبَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتُ طبيعةَ النظام الأكاديمي.. سَجَّلْتُ المواد الخاصَّة بالفصل الثاني، والتي تبدأ دراستها مِن الساعة الثامنة صباحًا وتنتهي الساعة الثانية مساءً، ثمَّ أذهب لعملي الساعة الثالثة مساءً، والذي ينتهي في الحادية عشرة مساءً.

وبجانب وظيفتي بالمستشفى تَوَظَّفتُ في الإجازة الصيفية بالجمارك بوزارة المالية عن طريق أحد المعارف.

ومن طريف ما أذكره في أول يوم عمل لي بالجمارك.. أَنْ كَلَّمَني في المساء صديقي «محمد عليان الايداء العنزي» لِأَبحث له عن وظيفة، ولسانُ حاله يقول: كَلِّم لي الرجل اللي شفع لك، فإذا بي في اليوم الثاني مباشرة أدخل على المدير العام لإدارة الموظفين لأشفع لصديقي!!

- السلام عليكم..

- وعليكم السلام!

- أنا زميلكم فلان ابن فلان بالقسم الفلاني.. وهذا صديقي أتشفع له من أجل وظيفة!!

لم يتمالك الرَّجُل نَفْسَه من الضَّحِك.. ولسانُ حاله يقول: بالأمس جاء معه شفيع واليوم هو نَفْسُه الشفيع!!.. ثم أَرْدَفْتُ شفاعتي بجملة لَبِقَة، فبَيَّنتُ أن هذا الرَّجُل عزيز عليَّ.. و...

- إمَّا أنْ توظفوه أو تفصلوني!.. وتوظفونه!

قَبِلَ المدير شفاعتي؛ وذلك لسماحته ونُبْل أخلاقه، والتحق «محمد» بقسم قريب مِن قسمي، ثمَّ توالت الأيام حتى تَخَرَّجْتُ ونِلْتُ تقدير (ممتاز) في بعض المواد، وفي مواد أخرى نِلْتُ تقدير (جيد جدًّا).. لكنْ نِلْتُ تقدير (مقبول) في المُعَدَّل العام!!

لقد كانت الخمس مواد التي حُرِمتُ منها كافيةً لأنْ تقضي على باقي التقديرات العالية؛ فقد كانت سببًا مباشرًا في هذا التقدير المُخَيِّب للآمال والمُثَبِّط للهِمَم!!

على أيَّة حال.. تَخَرَّجْتُ في كلية المعلمين ومركز العلوم والرياضيات عام ١٤٠٩هـ بتقدير عام (مقبول)، وقد شَكَّل لي هذا عُقدة نَفْسِيَّة استمرَّت زمنًا!!

أحدَ عَشْرَ عامًا.. عَمَلٌ وأمَلٌ!!

بَعْدَ تَخَرُّجي.. عُيِّنْتُ بمدينة "جُدَّة" في مدرسة «المقداد بن الأسود» عام ١٤١٠هـ، وتزاملتُ - والحمدُ لله - مع زملاء أَجِلَّاء لهم مِنِّي كُلُّ التحية والثناء.

ومُنْذُ هذا التوقيت بَدَأْتُ حياتي العملية مُعَلِّمًا للرياضيات، أبدأ مع طلابي بحِفْظِ جَدْوَل الضَّرْب الذي أراهُ من أهمِّ الضروريات.. ثمَّ صِرْتُ أبني حياتي الخاصَّة؛ ففَكَّرْتُ بالزواج.. وبعد سَنَة من الوظيفة تَزَوَّجْتُ وانتقلتُ إلى مدينة "ثول".. حيث تَعَيَّنَتْ زوجتي في قرية "الأبواء"، ومِن ثَمَّ انتقلنا إلى "ثول" لنمكث بها سَنَة.. وبَعْدَها رَجَعْنا إلى "جدَّة".. إذْ خَدَمْتُ ثلاث سنوات في المدرسة النموذجية الأولى بـ"جدَّة"، وقد كانت حقًّا مدرسة نموذجية مِن حيث الإدارة وكفاءة الزملاء والطلاب والبِنْيَة التحتية، واستَفَدْتُ منها كثيرًا في معرفة كبار رجالات "جدة" من القادة والمديرين والتجار وأساتذة الجامعة والأدباء والمفكرين؛ فكنتُ أُدَرِّس لأبنائهم، وهم أُناسٌ يهتمون اهتمامًا كبيرًا بتربية وتعليم أبنائهم، وهم خير مَن يُقدِّر قيمةَ العِلْم والمُعَلِّم، وعندما ألتقي بهم أجد منهم الحفاوة والتقدير، وهذا يعكس مقدار حُبِّهم وتقديرهم.

ثمَّ انتقلتُ - بَعْدَ ذلك - لمحافظة "العُلا" لظروف والدي الصحية؛ حيث اشتريتُ المزرعة ببيتها الذي ذكرتُه آنفًا في «صراطي مع والدي».

وقد خَدَمْتُ في "العُلا" بمدرسة الملك «فيصل» الابتدائية، وفي متوسطة «معاذ بن جبل»، وكانت المباني متقابلة؛ فكُنَّا نُغَطِّي بعض الساعات في المتوسطة والابتدائية مُدَّة ست سنوات.

وبعد خِدْمَة أَحَدَ عشر عامًا في أداء وظيفي ممتاز.. كان خاطر (المقبول) لا يفارقني أبدًا.. وكان بمثابة العَقَبَة التي أَهدِفُ إلى تجاوزها بأَمَلٍ أُحييه في نَفْسي يومًا بعد يوم!!

كان نظام مجلس الوزراء يَنُصُّ على أنَّه لا يستطيع مَن لديه (دبلوم) إكمال شهادة (البكالوريوس) إلا أنْ يكون تقديره (جيدًا) في (الدبلوم)، ولا يستطيع حامل شهادة (البكالوريوس) إكمال درجة الماجستير إلا أنْ يكون تقديره (جيدًا جدًّا) فما فوق؛ فهذا نظام الدولة.. لا ينقضه إلا ثلاثة وزراء يجتمعون لنَقْضِه: وزير المالية، ووزير الخدمة المدنية، والوزير المعني بهذا الموضوع وهو وزير المعارف، وكان لا بُدَّ أَنْ يجتمع ثلاثتهم مِن أَجْلِ أنْ يقترحوا اقتراحًا، ثمَّ يتم اعتماده وتوقيعه مِن الملِك.. لذلك كان مِن المستحيل أنْ أُكمِلَ الدراسة، لكنَّ رجائي في الله وعزيمتي وأَمَلِي وإصراري أبَوا - مُطلقًا - أنْ أستسلم!!

لقد جَعَلَني هذا التقدير أُكافِحُ وأُناضِل، وأسعى مِن أَجْلِ استِكمال دراستي؛ فقد تَقَدَّمْتُ إلى معالي وزير التربية والتعليم «عبد العزيز الخويطر» رَحِمَه الله، ولم أُحرِزْ تَقَدُّمًا، ثمَّ تَقَدَّمْتُ إلى سعادة الأستاذ «الثنيان» نائب معالي الوزير، ثمَّ تَقَدَّمْتُ إلى معالي وزير التربية والتعليم «الرشيد» رَحِمَه الله، ولم أحصل على أيَّة نتيجة إيجابيَّة رغم تقدُّمي عِدَّة مرات.. ورغم ذلك لم ينقطع الأَمَل في الله، واستمَرَّ إصراري على استكمال دراستي، وطَرَقْتُ كُلَّ الأبواب من أَجْلِ تحقيق الهَدَف.

وكانت تَجْمَعُني صداقةٌ خاصَّة وعلاقة وطيدة مع السفير «صالح بن محمد الغفيلي»، رغم أَنَّ الرَّجُل لا يرغب بالوساطات ولا يُحَبِّذُها.. إلا أَنَّ لي عِنْدَه حُظْوَةً خاصَّة، ولعلَّ هذه الحُظْوَةَ وصِدْقَ الرَّجُلِ قد حَلَّت لي مُعضلةً نَفسِيَّة تتعلَّق بالإبقاء على بقايا الأَمَل الذي كادت تُبعثره محاولاتي اليائسة!!

لقد حاوَلْتُ مُحاوَلَةً أُخرى مع معالي الوزير الدكتور «محمد الرشيد» رَحِمَه الله، وكانت الحكومة بين "الطائف" و"جدة"؛ فحاوَلْتُ مِرارًا، لدرجة أنَّني ذَهَبْتُ إلى بَيتِه الخاص بـ"الطائف"، وقابلتُ أحد الأشخاص

الذين يعملون معه، وكان يَعرِفُني مِنْ خلال مُراجعاتي.. لا أَذْكُرُ اسم الرَّجُل، ولَكِنْ جزاه اللهُ خيرًا؛ فقد أَسَرَّ لي أنَّه سوف يكونُ في مكتب "جدة" في اليوم التالي.

نَزَلْتُ إلى "جدة" واتَّصَلْتُ بسعادة السفير «صالح الغفيلي» وأَبْلَغْتُه أنَّني بمكتب معالي الوزير، ولا يُوجد سوى مدير مكتب الوزير وأنا فقط؛ فتواصل السفير مع الوزير.. فخَبَّرَهُ الوزير أنَّ النظام لا يُجيز - مُطلقًا - أيَّ استثناءات، فقال له: «البلوي عندك في مكتبك.. أقنِعْهُ إنِ اسْتطعتَ إلى ذلكَ سبيلًا»، فاتصل عليَّ سعادة السفير، وحَدَّثَني بذلك، فكان مِفتاحُ الحَلِّ صِدْقَ سعادة السفير معي، فجزاه الله عنِّي خيرًا، وأثابَهُ اللهُ الحُسْنَى وزيادة.

فدَخَلْتُ عند الوزير وأنا على عِلْم بِرَدِّه على سُؤْلي: فدَخَلْتُ بجَيشي كُلِّه.. بَدءًا مِنَ العِناد والحماسة والإصرار.. حَتَّى حُسْنِ البَيان وصِدْق النِّيَّة؛ لكي أَستَمِيتَ في إقناعه!!

- «أَعرِفُ تمامًا النظامَ وما يَنُصُّ عليه، ولكنَّني أريدُ حَلًّا منك يا معالي الوزير.. لا سيما أنَّكَ رَجُلٌ أكاديميٌّ وتربويٌّ.. بالإضافة إلى أَنَّ لي ما يشفع.. وهو أنَّ بعض المواد الدراسية نِلْتُ فيها (امتيازًا) وبعضها (جيد جدًّا).. وكُنْتُ أَمُرُّ - في هذا التوقيت - بظروف قاهرة.. والتَّوَجُّه الآنَ للتخصص الخاص، وليس للمُعَدَّل العام.. انظر إلى الفيزياء.. (ممتاز).. التفاضل والتكامل.. (جيد جدًّا)....».

كان الرَّجُل يُحاوِلُ إقناعي وأنا أَستَمِيتُ في إلحاحي النابع من قناعاتي بأحقيتي في الاستثناء.. وَحينئذٍ ظَلَّ يَتَفَحَّصُني رَحِمَه اللهُ تعالى وهو يُرَدِّد: «ما شاء الله.. ما شاء الله»!!

- «أُريدُ جائِزَة.. وجائزتي ما هي إلا قَبُولُ طلبي هذا بقرار جريء مِن معاليكم.. فأنا مُعَلِّم.. أَعمَلُ بالميدان طيلةَ أحد عشر عامًا في أداءٍ وظيفي ممتاز، وهذا التقدير - المقبول - ليس لي، كِدْتُ أُنكر اسمي أمام هذا التقدير»!!

ثمَّ وَقَفَ الوزير مُحتارًا بين نظام ولوائح.. وبين طموح وإصرار على الإبداع والتميُّز مِن رجُل يَتَّقِدُ حماسةً وشَغَفًا وحُبًّا في العِلْم، وله ما يُؤَيِّدُه ويدعمه مِن حُسْن درجات، وحُسْن مَنْطِق، وحُسْن نيَّة يَنُمُّ عن هِمَّة طَمُوحَة.. ليس لها سَقْف!

وأمام هذا التضارُب بين خَيارَين.. انتابَتْني مَشاعِرُ وَقَّادَة بين عالَمين مُتناقِضَين: عالَم آمالي وطُموحي وأهداف مَرهُونة بكَلِمَة «موافق»، وبين عالَم الإحباط والدوران في حَلْقَة مُفْرَغَة مُذَيَّلَة بكَلِمَة «غير موافق»!!

لاحَتْ بَوادِر الأَمَل في سمائي حين وَجَدَ الوزير - عليه رَحَمات الله تترى - حَلًّا.. يا الله!.. لقد كانت هذه اللحظة مفْصَلِيَّة في حياتي.. كانت بوابة كبيرة للتحليق في سماء الإنجاز، وإرضاء طُموحٍ رَبَّيتُه صغيرًا مِن أيام طُفُولَتي.. هذه اللحظة اختَزَلَت كُلَّ مَرارة؛ لتَبتَلِعَها كلمة «موافق».. لقد كانت هذه اللحظة هي التي جعلتْ الأَلَمَ أمَلًا، واليأسَ طموحًا، والحُزنَ سُرورًا؛ «فإنَّ معَ العُسْرِ يُسْرًا.. إنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا».

سألني الوزير رَحِمَه الله عن رأيي في الحاسب الآلي، وذَكَرَ أَنَّ المستقبل كُلَّه للحاسب الآلي، وأنَّه مُهتَمٌّ بالحاسب الآلي، وأنَّه هو المَخْرَج؛ حيث إنَّ النظام لا يُجيز أَنْ أُكمِلَ في الرياضيات.

كانت دراسة الحاسب الآلي أربع سنوات، وكأنِّي أَدْرُسُ مِن جديد أربع سنوات بدلًا مِن سنتين، ولو كان اقترح أيَّ تخصُّص كُنْتُ سأوافق عليه؛ حيثُ إنَّني كُنتُ أُريدُ أَنْ أتجاوز هذا المُعَدَّل وهذه المرحلة بأي شكل.

وقد كَتَبَ معالي الوزير مُذَكِّرَةً إلى سعادة الوكيل الدكتور «أحمد السناني» جاء فيها: «سعادة الوكيل.. قابِل الرَّجُل.. قد تَجِدُ فيه الرَّجُلَ المناسب لإكمال دراسته في مجال الحاسب الآلي».

ولما هَمَمْتُ بالخروج.. وتحديدًا حين أَمْسَكْتُ بمِقبَض الباب.. قال لي كلمةً كانت لي نبراسًا في الليالي الحالكات.. «يا بلوي.. كُنْ على إصرارك»!!

كُنْ على إصْرارك!!

بعد نصيحة معالي الوزير أنْ أَظَلَّ على إصراري.. أَجَبْتُه أنِّي سوف أكون عند حُسْنِ ظَنِّه، وأَثْنَيْتُ عليه؛ لكَوْنه مَنارَةً يهتدي بها السائرون.. ثمَّ أحال المعاملة إلى الوزارة.

ها أنا أمام وكيل الوَزارة الدكتور «أحمد السناني».. لقد قال لي: «ما العمل»؟.. قُلْت: «أنت وكيل الوزراة.. وأنت مَن يُقرِّر»، ثمَّ أحالني إلى الإدارة العامة لتقنيات التعليم للمقابلة.. ثم بَعْدَها حُوِّلْتُ إلى لجنة للمقابلة، وكُنْتُ أتوقَّع أنْ تكون هناك أسئلة عن الحاسب الآلي، لذلك اشتريتُ مجلة «ويندوز ٩٨» وقَرَأتُها أثناء سفري بالطائرة، وسابقًا - قَبْلَ أَحَدَ عشرَ عامًا - أخذتُ مُقدِّمة بسيطة في الحاسبات وتاريخ الحاسب الآلي، ثمَّ تَذَكَّرتُ بعضَ المعلومات عن «بانج» مخترع أول حاسب آلي، وأَنَّ وزنه كان طنَّين، وأَنَّه كان يعمل ساعة ويبرد ساعتين!!

لقد كانت معلوماتي بسيطة وأَوَّلِيَّة.. فأَرَدْتُ أَنْ أَشْحَذَ ذِهْني وعقلي بمعلومات جديدة مِن خلال قراءتي في المجلة.

وحينَ حُوِّلْتُ للجنة سُئِلْتُ: «هل هم يريدون مساعدتك أو يريدون أنْ يُقْصُوك بطريقة عملية وليست شفوية لتعود لهم مَرَّة أخرى؟، فأَجَبْتُ بالنفي.. «لا.. بل يريدون مساعدتي.. وبإذن الله سيكون أَوَّلُ مُعَلِّم يُدَرِّس الحاسب الآلي بـ(المملكة) هو سالم بن عبدالرحمن»!!

ثمَّ سُئِلْتُ: «كيفك بالحاسب الآلي؟»، فابتسمتُ في داخلي؛ لِأَنَّ تَوَقُّعي قد أصاب، ثم استندتُ إلى حواشي المعلومات التي قَرَأتُها وأنا بالطائرة، وأَظهَرتُها بقالَبٍ يُوحي إلى السامع أنَّي مَنْ صَنَعَ الحاسبَ نَفْسَه!!

لقد قُلْتُ بنبرة الواثق: «معك من أبو الكمبيوتر لما كان وزنه اثنين طن إلى ويندوز ٩٨»، فأجابني أحدُهم مُتَشَكِّكًا: «غدًا الميه تكذِّب الغطاس»، فقلت له واثقًا: «إنَّ غدًا لناظره قريب» وسَأَلْتُ الله في نَفْسي التيسير!!

رَجَعْتُ إلى الفندق واعْتَكَفْتُ على القراءة بَدءًا مِن مُكَوِّنات الحاسب لباقي تفاصيله الدقيقة المادية والبرمجية.. ثمَّ الأنظمة العَشرية وأنظمة الترميز وأنواع الحواسيب... إلخ، وحاوَلْتُ - بِكُلِّ أَمَل وطُموح وتَفَرُّس - أَنْ أَتَوَقَّع الأسئلة وأُوجِد لها إجابات.

أتيتُهم في الصباح الباكر وبَدَأتُهم بالحديث مُنطلقًا في الشرح حتى لا أُعطي لهم فُرصة بأنْ يُباغتوني بسؤال يُبَدِّد كُلَّ شيء إن عَجَزْتُ عن الإجابة عنه.. فنِلْتُ - بفضل الله - التقرير بتقدير (ممتاز)!!

مشكلتي كانت مع مدير عام الإدارة المعنية، وذلك بسبب أَنَّ النظام لا يسمح، فحاولتُ معه وراجَعْتُه عِدَّة مرات، ولكنَّه ظَلَّ مُقتَنِعًا أنَّ النظام لا يُجيز حتى ولو وافق الوزير.. وقد عَلِمتُ أنَّ الوزير سافر إلى (فرنسا)!!

حاولتُ إقناع مدير عام الإدارة المعنية أنَّ هذا أَمْرٌ مِن الوزير، وأنَّ هذا التخصص جديد، فرفض وامتنع، وصَدَمَني قائلًا: «إنْ كان ولا بُد.. فليس لك إلا حَلٌّ واحد.. وهو أنْ تُقدِّم على إجازة استثنائية بدون راتب.. ثمَّ ننظر في أَمْرك بعد سَنَة دراسية.. ورُبَّما بعد ذلك نستثنيك للتفرُّغ»!!

لقد كان هذا الحل صادمًا لي ومَفْصِليًّا في قراري؛ فأنا أَعُول أبنائي، فضلًا عن التزاماتي الشخصية، ولكن لأنَّ الطموح كان عاليًا، والهِمَّة مُتَّقِدَة.. قَرَّرْتُ أنْ آخُذَ بهذا الحلِّ رغم صعوبته؛ فقَدَّمْتُ على إجازة غير مدفوعة الراتب لمُدة سَنَة مُتوكِّلًا على الله جَلَّ وعَلا.

وأَرسَلْتُ إلى كلية المعلمين بـ"جدة" لأجل القَبول.. ثم سافرتُ إليها.. واستقبلوني بتَرحاب، وعلى رأسهم الدكتور «ربيع جان»؛ فقد كَتَبَ تقريرًا ممتازًا عني بعدما حاورني واطَّلَع على تقرير الوزارة وعلى ثقافتي وتقديري.

بدأتُ الدراسة، ولم أستطِع المراجعة، حتى بعد رجوع معالي الوزير مِن (فرنسا) حِفاظًا على أيَّة لحظة؛ لأنَّ أمامي تَحَدِّيًا قويًّا إلى أبعد الحدود!! أَكْمَلْتُ الفصل الأول بتقدير عام (ممتاز).. ثمَّ رَجَعْتُ وتقدَّمْتُ لمعالي الوزير بطلب تفريغي للدراسة بدون شكوى أحد.. فَوَجَّه المعاملة قائلًا: «اعملوا على تفريغ هذا المُعَلِّم؛ حيث إنَّه متميز في مجال الكمبيوتر».

ولما رَجَعتُ إلى صاحبي السابق - جزاه الله خيرًا - مدير عام الإدارة المعنية.. اعتبر فحوى المعاملة شكوى ضدَّه، فقال: «أبدًا لا يمكن أنْ نُفَرِّغَك إلا أَنْ يأتي اعتماد مِنْ معالي الوزير»، فقلت: «هذا أَمْرٌ مِن الوزير.. "اعملو"»!!

استمر في الرَّفْض وحَصَلَ خلافٌ وتحدٍّ، فقُلْتُ: «بإذن الله يأتيك الاعتماد اليوم التالي»!!

رَجَعتُ إلى معالي الوزير فقال: «ماذا حصل بمعاملتك»؟!.. قلت: «لا شيء.. يقولون لا بُدَّ مِن اعتماد»، قال: «هو فلان»؟!، قلت: «يريد الاعتماد»، ولم أَشْكُ له الرَّجُل، فغَضِبَ الوزير غضبًا شديدًا وأخذَ الأوراق وقال: «انتظر هنا»، ولم تَمْضِ دقيقة أو دقيقتانِ إلا وقد خَرَجَ المُراسِلُ ومعروضي بيده بدون توجيه، مُجرَّد مكالمة لوكيل الوزارة الدكتور «أحمد السناني» الذي دخلنا عليه مكتبه، فإذا به باجتماع مع مجموعة مِن رجالات الوزارة، فرحَّبَ بي ترحيبًا حارًّا لن أنساه، وقال: «اللي يملا عين الوزير يملا عيوننا»، ثمَّ عَرَّفَ بي مَن عنده وعَرَّفَني بهم، ثمَّ خرجوا، فأردف قائلًا: «معاملتك تُنْهى هنا مِن مكتبي»!!

ثمَّ استدعى مدير الإدارة المعنية.. ودخل الرَّجُل فوَجَدَني على مكتب سعادة الوكيل، فظَهَرَتْ على وجهه ألوانُ الطَّيْف، ويَعلَمُ الله أنِّي ما أحببتُ له أنْ يكون سعادته في هذا الموقف، لكنَّه هو الذي وَضَعَ نَفْسَه فيه!! قام الوكيل يُؤَشِّر عليه بالأوراق قائلًا: «البلوي لازم يُفرَّغ الآن»، وقال الرَّجُل: «ما قلنا شي»، فقُلْتُ: «كُنْتُ أَمْس عندك وطلبتَ مني الاعتماد، رغم أنَّ توجيه الوزير كان بصيغة الأَمْر، وهذا اعتماد وليس بشكوى».

صَدَرَ مِن سعادة الوكيل قرار تفريغي مِن تاريخه، أمَّا ما كان يَخُصُّ الفصل الأول فكان يحتاج إلى أَمْرٍ آخَر بأَثَر رَجْعِي.. فاستغنيتُ بالله عنه.

أكملتُ دراستي حتى أنهيتُ أربعَة أعوامٍ بتقدير (ممتاز) مع مرتبة الشَّرَف الأولى، وفي أثناء ذلك زُرْنا معالي الوزير في مكتبه بـ"جدة" زيارة رسمية.. ثلاثةُ طلاب مِن قسم اللغة الإنجليزية وثلاثةٌ مِن قسم الحاسب الآلي مع الدكتور «ربيع جان»، وكان لِقاءً مُثمِرًا تَمَّ تصويره ونَشرُه في مجلة الكلية.

وبعد تخرُّجي باشرتُ بإدارة تعليم محافظة "العُلا"، وَوُجِّهتُ لثانوية «أبي بكر الصديق».. فإذا ببعض طلابي الذين كانوا في ابتدائية الملك «فيصل» أراهم موجودين بالثانوية، فمازحتُهم قائلًا: «أنا وراكم وراكم والزَّمَن طويل»!!

وفي الفصل الثاني أُعِرْتُ إلى كلية المُعَلِّمين بـ"المدينة"، وقُمْتُ بعمل مشاركات عِدَّة للكلية، منها برنامج مالي مُحَوسَب، ومركز للحاسب الآلي، وشاركتُ بمركز خدمة المجتمع في دورات مُتعدِّدة.

وخلال هذا العام أَرْسَلْتُ للأخ الدكتور «وافي حماد البلوي» وثيقةَ التخرُّج والتوصيات من أَجْلِ الحصول على قَبول من جامعة "غرب فرجينيا" في مدينة "مورقن تاون"؛ حيث إنَّه يدرس الدكتوراه بهذه الجامعة، فأرسل على قَبول ماجستير مشروط بإجادة اللغة.

لقد خَبِرْتُ الآنَ الأمور التي أصبَحَت أسهل كثيرًا مِمَّا سَبَقَ؛ فقد كانت مقابلةُ معالي الوزير - الذي أَحمِلُ له كُلَّ ثناء وتقدير - مُقابَلَةً فارقةً في حياتي كُلِّها؛ فقد كان سببًا مُباشرًا في إثبات ذاتي بحصولي على تقدير (ممتاز) مع مرتبة الشَّرَف الأولى، وقَبول من جامعة أمريكية حكومية مُعترَف بها بعد تقدير (مقبول) غير المقبول!!

لقد قابَلْتُ معالي الوزير في مكتبه بـ"الطائف" مرفوع الهامَة والهِمَّة، فسألني: «ما اكتفيت»؟!.. قلت: «لا.. فما دامَ الإنسانُ لديه طموح وعزيمة لا يكتفي بأعلى الشهادات أو درجات العِلْم، وأنا أستمد مِن معاليكم الطموح ومواصلة التسلُّح بالعِلْم»، فسألني: «كم عمرك»؟، فمازحتُه قائلًا: «خمسة عشر عامًا»، فضَحِكَ فقلتُ: «بالعُمْر القانوني للابتعاث كان عمري لم يصل الأربعين»..

في الحقيقة فوجئتُ به يُوَجِّه توجيهًا نادرًا ومُحَيِّرًا في الوقت ذاته؛ إذْ وَجَدْتُه كَتَبَ للدكتور «خالد العواد» - وكان نائبَ وزير التربية والتعليم آنذاك - كَتَبَ له: «دكتور خالد.. دَعْني أُحَدِّثْك عن سالم البلوي».. وكأنَّ جميع التوجيهات لا تفي بما في داخل الوزير عن «سالم البلوي»!!

بعدَها أحالَ نائبُ الوزير المعاملة للإدارة المعنية لمقابلتي لإنهاء إجراءات ابتعاثي، وكانت لي معرفة برئيس اللجنة سعادة الدكتور «علي الحكمي»؛ حيثُ إنَّ الكلية - في آخِرِ سَنَة لي بالكلية - قد شاركت وزارةَ التربية والتعليم ببرنامج اختبارات مُحَوْسَبة، وكان المسؤول عن وكالة الإدارة المعنية سعادة الدكتور «علي الحكمي»، وكان يَعرِفُني تمامًا مِن خلال برنامجي الذي لاقى إعجاب سعادته أثناء تنزيلي له على جهاز الوَزارة، وكان حاضِرًا أثناء تشغيلي البرنامج وشَرحي كيفية استخدامه للموظف المُختَص.

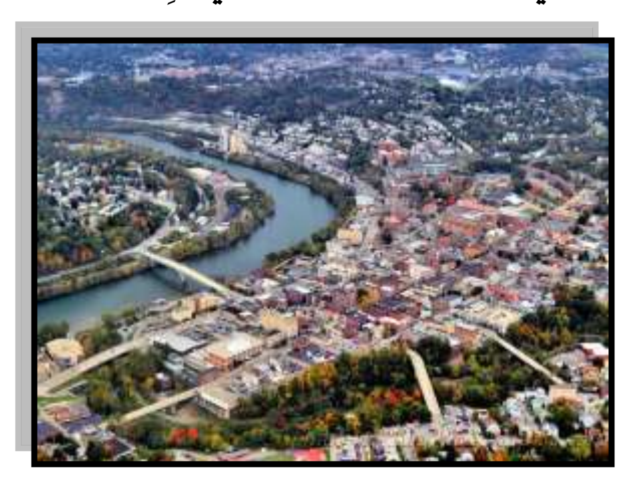
أَجريتُ مُقابلتي، وأَنهيتُ إجراءات ابتعاثي، ونَصَحَني الدكتور «علي الحكمي» بأنْ أُكْمِلَ دراستي العليا بالتعليم الإلكتروني؛ حيثُ إنَّه يشتمل على الاختبارات المُحَوْسَبة، وذَكَرَ أنَّهُ لا يُوجد أيُّ مُتخصص في (السعودية) في الاختبارات المُحَوْسَبة.. فأطرقتُ له السَّمْع والإنصات.. ثمَّ ابتَسَمْتُ في داخلي.. ثمَّ سَجَّلتُ بذِهني - من كلامه - ما عساه أنْ يصنعَ لي هدفًا آخَرَ صعبًا شاقًّا.. وتَحَدِّيًا جديدًا.. أُكافِحُ من أجله في قابِلِ الأيام!!

العَودَة إلى (أميركا)!!

(البداية)!!

ما بينَ صَوتٍ داخلي يَحُثُّني على إنجاز المَهَمَّة.. وبينَ صَوتٍ آخَر يُثَبِّطُني ويُحْبِطُ فيَّ آمالي.. حَزَمْتُ - مُسرِعًا - أمتعتي، وعَزَمْتُ على الذهاب إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) بِهَدَف الحُصُول على دَرَجَة (الماجستير) رغم كِبَر سِنِّي، وكثرة المسؤوليات التي تَقَع على عاتِق الفَرد مِنَّا عندما يَمضي به العُمر، وذلك بداية عام ٢٠٠٤م.

في "واشنطن".. استَقبَلَني - بتَرحاب كبير - أخي العزيز الدكتور «وافي حماد البلوي».. فسافرنا إلى "مورقن تاون" المدينة التي يَسكُنُها في ولاية "غرب فيرجينيا" التي تُوجد فيها الجامعة التي قُبِلْتُ فيها.



مدينة مورقن تاون



جامعة غرب فرجينيا

وأمامَ رَغبتي المُلِحَّة في الاستِكشاف والتَّأمُّل خَرَجْتُ مع زَوجتي وابنَتِي «وفاء» وابني «أحمد» في اليوم التالي بسيارة الأخ «وافي» نتجول في مدينة "مورقن تاون" حَتَّى وَصَلْنا إلى مدينة قريبة في ولاية "بنسيلفينيا" تَبعُد حوالي ثمانية أميال عن "مورقن تاون"..

لم أَنْسَ ذلك اليومَ بكُلِّ تفاصيله.. فتلك مَبانٍ مُغايرة.. وهؤلاء أُناس تَعَدَّدَت جنسياتُهم وطِباعُهم.. وتلك طُرُقٌ مُنَظَّمَة.. وهذه مَحال تِجارية مُتنَوِّعة.. وتلك قواعد مُرورية صارِمة.. وتلك دورية شرطة استوقَفَتْنا بسبب جُلوس ابني «أحمد» بيني وبين أُمِّه تارِكًا الكرسي المُخَصَّص للأطفال!!

في لَحَظات الصَّمْت التي تُخَيِّم علينا بالسيارة عند قدوم رَجُل الأَمْن غاضِبًا نَحْوَنا.. لم نسمَع تقريبًا صَوتًا، ولو همهمات المارَّة.. ما سَمِعْنا سوى خُطْوات ذلك الشرطي تتقدَّم نَحْوَنا في استِنكار!

وبينما يُشير الشرطي مُستَنكِرًا بسبب عدم وَضْع الطفل في مكانه المُخَصَّص.. إذا بي أُقابِلُ استِنكارَهذا الشرطي العابِس ببعض الإشارات العابِسة - أيضًا - والتي تُوحي أنِّني شخصٌ لا يُجيدُ التحدُّثَ بالإنجليزية أو حَتَّى يفهم ما يقوله ذلك الشرطي.. فتجاوَزَ الشرطي عن المخالفة بعدما أدرك أنِّني حديثُ عَهْدٍ بـ(أميركا)، وأنِّني لِتَوِّي قد جِئْتُ، فجَعَلَنا نَمُرُّ بعدما نَبَّهَني إلى عدم تَكرار المخالفة مَرَّة أُخرى، فلم أَتَفَوَّه مِن الفرحة بأي كلمة سوى بـ«Yes.. إنْ شاء الله»!!

لم تستطِع زوجتي وَقْتَها أنْ تُغالِبَ الضَّحِكَ؛ لِعِلْمِها أَنَّ الشرطي لا يعرف العربية.. فَرَمَقْتُها بنظرة غاضبة أَعادَتْها إلى صَمْتِها كي لا نأخذ مخالفة، فإذا بها تقول: «ما يعرف إنْ شاء الله»!!

ومع بداية الدراسة.. كان لِزامًا على زوجتي العودة إلى (المملكة)؛ لِكَوْنِها مُعَلِّمَة، فبَدَأَتُ رِحْلَتي بَعْدَها - وحيدًا - بلا زوجة ولا أبناء.

(صِعابُ الغُربة)!!

سَكَنْتُ - غريبًا - مُدَّةَ أسبوعين - تقريبًا - مع أربعة طلاب أمريكيين في شقة وسط مُجَمَّع للطلاب؛ فما أغربَ الأيامَ التي تنقلني مِنْ غربة إلى أخرى!! ففي الطفولة سكنتُ لدى ثلاثِ عوائلَ خلالَ ثلاثِ سنوات.. ثمَّ انتقلتُ بعد ذلك لمنزل الزميل العزيز الدكتور «مشعل الشمري» عضو هيئة التدريس بجامعة الملك «سعود» حاليًا؛ لمشاركته بالسكن.

ومِن خلال تجربتي في (أمريكا) أجد أنَّه مِن المناسب أنْ أنصح الطلاب العرب أنْ يبتعدوا عن السكن المشترك مع بعضهم، وأنْ يُكثفوا مِن تواصلهم واختلاطهم بأصحاب اللغة الأصليين؛ فإنَّ إجراء الحوارات بلغة الدراسة يساعد - بشكل كبير - على سرعة تعلُّمها، وبخاصَّةٍ ما يتعلَّق بإدراك اللَّهجة المُسْتعمَلَة والمستويات الثقافيَّة.

في إجازة قصيرة.. وبعد أنْ عُدْتُ إلى (السعودية) وتَزَوَّجْت، وبعد مُضِيّ أسبوعين تقريبًا.. أُصِبْت بوعكة صحية.. ثمَّ تناسيتُ الآلام وعُدتُ إلى "واشنطن"، وعند وصولي تفاجأ زملائي بحالتي تسوء يومًا بعد آخَر، ولم يُفْلِح معي أَيُّ علاج، ولاحظ الأساتذة تَغَيُّرَ حالتي مِن سيئ إلى أسوأ، لدرجة أنَّ إحدى المُعَلِّمات بمعهد اللغة وَصَفَتْني بأنِّي جَسَد بلا رُوح، ونَصَحَتْني بالذهاب لزيارة الطبيب، سِيَّما وأنَّ حالتي النفسية بدأت تسوء أكثر فأكثر!!

لم أكنْ أستطيعُ النَّومَ في هذه الفترة، وكُنْتُ أذهب إلى المستشفى باستمرار لِأُجري الفحوصات اللازمة بلا جدوى، فطَلَبَ منِّي الصديق والأخ العزيز الدكتور «صلاح الحربي» من وقت لآخَر أَنْ أبيتَ عِندَه، عسى أنْ يتبدَّل حالي إلى الأفضل، فأَبَيْتُ، وبَقِيتُ في المنزل وحيدًا.. وكان زميلي «مشعل» في إجازة، وعانيتُ معاناة شديدة.. لدرجة أنَّ بعض

الأصدقاء كانوا يُصِرُّون على عودتي إلى (المملكة)، فكنتُ أُجيبهم وأُجيبُ أسرتي بأني بخير ولله الحمد، وفي حقيقة الأمر كنتُ أكتُمُ آلامًا لم أستطِع البوحَ بها، ولا الشكوى منها إلا لله عزَّ وجلَّ، وبالصبر والعزيمة والتحمُّل والإصرار استقامَ الحال، وانقشعت الغُمَّة، وزادت الهِمَّةُ وتحقَّقت بحمد اللهِ التطلعاتُ والآمال.

رُبَّما ينجحُ المَرْءُ مِنَّا في تخطيطه وسَعيِه.. رُبَّما يستطيعُ أَنْ يتجاوزَ الكثير مِن العَقَبات.. رُبَّما يَتَجاهلُ الدَّعَواتِ التي تُثَبِّطُ العزائِمَ والهِمَم.. رُبَّما يَتَغَلَّبُ على كُلِّ ذلك وأكثر.. نعم.. رُبَّما ورُبَّما.. لَكِنَّهُ رُبَّما أيضًا يعجز - كُلَّ العَجْز - أمام صُداعٍ أو مَرَضٍ بسيط، قد يُبَدِّلُ كُلَّ تخطيطِه.. ويَهدِمُ كُلَّ آمالِه!!

وقد يبدأ المرءُ - كذلك - في أَمْرٍ ما يكون فيه على يقين مِن ضرورة الشُّروع فيه.. فيُخطِّطُ معالِمَه.. ثمَّ يَجِدُ في هذا الأمر (الوجوبي) مشكلةً أخرى طارئةً لم يَكُن يعمل لها حسابًا.. فيقف مَحَلَّه.. وتتبَعثَر كُلُّ أوراقه، وهذا ما حَدَثَ معي حين خَطَّطْتُ لراحتي فما وجدتُ إلا تعبي.. وهكذا الأقدار!!

ففي زواجي الثاني وَقَعْتُ في مشكلة؛ حيث تَشَتَّتَ تركيزي بين دراستي وبين زوجتي التي كُنْتُ أُريدُها أَنْ تُسافِرَ معي؛ لتُعينَني على صِعاب الغُربة.. ممَّا اضطرني لتقديم (Visa) لاستِقدامها قُرابَةَ ثماني مَرات مِنْ دون جدوى، وكانت زوجتي الأولى تأتيني بالصيف فقط؛ لأنَّها مُعَلِّمَةٌ، وعليها التزاماتٌ مالية تمنعها مِن أَنْ تأخذ إجازة استثنائية وترافقني!

ليس سهلًا أنْ تعيش وحيدًا أعزلَ في الغُرْبَة.. كذلك ليس سهلًا أنْ تقوم بأدوار عِدَّة، دور الأب والأُم وطالب العِلْم؛ فقد رافقني أبنائي «عبد الرحمن» و«عبد العزيز» و«محمد» وكانوا في المرحلة الابتدائية.

وقد أَكمَلْتُ تَعَلُّمَ اللغة الإنجليزية رغم ما مَرَّ بي مِن حالة نفسية سيئة، لكنِّي قاوَمْتُ تلك الحالة، وأَصرَرْتُ على أنْ أُنْهِيَ دراسةَ اللُّغة، ثمَّ بَدَأتُ دراسةَ برنامج (الماجستير) على أنْ أُكمِلَ مادتين باللغةِ الإنجليزيَّة مع باقي مواد البرنامج.

ورغم بعض الجدال والاختلاف الذي كان يحدث بيني وبين مديرة المعهد الأستاذة «استيسي».. إلا أنَّني لا أنسى لها - أبدًا - أنَّها كَتَبَتْ في حقِّي توصيةً، تَرْجَمَتُها: «هذا الرَّجُل يُحَدِّدُ هَدَفَهُ، ويَصِلُ إليه بِأقصَرِ الطُّرقِ.. يختصرُ على نَفْسِه الجُهدَ والوقتَ والتكلفة.. ويتوافق مع مسارات التعليم الأمريكي».

إنَّ كلمةً بسيطةً يَسمَعُها امرؤٌ ما.. قد تكون حافِزًا له قويًّا، وسببًا مباشرًا في أَنْ يستطيعَ الوصول لنجاحات أكبر من تلك التي كان يُخطِّطُ لها أو يسعى إليها، وبخاصَّةٍ إذا صَدَرَتْ هذه الكلمة مِن شخص لا يُتَوقَّع مِنه قَوْلُها!!

ولأنَّني فِعْلًا أُحَدِّدُ هَدَفي.. سَعَيتُ إلى الاستفادة مِنْ كُلِّ فُرصَة حتى ولو كانت صغيرة؛ فقد دَخَلْتُ برنامج (الماجستير)، وكانت الفترة المستحقَّة سنتين، وبإمكان الطالب أنْ يقوم بالتمديد لعام آخَر، وكان ابتعاثي للماجستير فقط، لكنِّي تطلَّعْتُ إلى الدكتوراه.. فقررتُ أنْ أطلب التمديد لعام آخَر.

وكان بإمكاني أن أَحصُلَ على (الماجستير) في سَنَة وأَرجِع.. ولكنِّي قُمْتُ باستثمار كلِّ الفترة المُستَحَقَّة للابتعاث، وهي سنتان مع تمديد لسَنَة، وفي الوقت ذاته.. كُنْتُ أطلب ترقيةً للبعثة للحصول على (الدكتوراه) رغم عِلْمي التام بصعوبة تحقيق ذلك.

لقد اتَّخَذْتُ خُطْواتي نَحْوَ (الدكتوراه) بِكُلِّ إصرار وتَحَدٍّ.. ولِحُسْنِ الحظ أَنَّ النظام الجامعي يُعطي الطالبَ حُرِّيَّة حَذْفِ وإضافة مواد كيفما يشاء، ولو كانت خارج تَخَصُّصِه؛ فهذا جَعَلَني أُضِيفُ أكثرَ مواد (الدكتوراه) أثناء دراستي لمرحلة (الماجستير)؛ فقُمْتُ بتسجيل مواد أكثر ممَّا هو مسموح به..

لقدُ كُنتُ قانِعًا تمامًا بقول أمير الشعراء «أحمد شوقي»:

وما نَـيْـلُ المَـطالِـبِ بالتَّمَني ... ولَكِنْ تُؤخَـــذُ الدُّنيا غِلابا

وما استعصَى على قومٍ مَنالٌ ... إذا الإقْدامُ كانَ لهـم رِكابا

(أيسَرُ الطرق)!

مع انتهاء فَصْل الربيع وبداية فَصْل الصَّيف.. كانَ مُتَبَقِّيًا مِنْ مُدَّةِ البعثةِ أسبوعانِ اثنان فقط.. وفَصْلُ الصَّيْف ينقسم إلى فَصْلَينِ دراسيينِ، كُلُّ فَصْلٍ دراسي سِتَّة أسابيع.. فقَرَّرْتُ مَنْحَ نَفْسي إجازة بالفَصْل الأوَّل.. فأنا بِحاجَة لإعطاء نَفْسي فُرصَةً أكبرَ للتفكير والترفيه والقيام بجَوْلَة في ولايات لم تَطَأْها قدماي مِنْ قَبْلُ؛ فعسى اللهُ أنْ يُحدِثَ بعد ذلك أَمْرًا.

رَتَّبْتُ أُمُوري مع زميلي «مشعل الشمري»، ووَضَعْتُ في المَخْزَن بَعْضَ العَفْش المُتَبَقِّي تَحَسُّبًا لاتِّخاذ قرار العَودة إلى أرض الوطن الغالي، واستَقَلَّيْتُ سيارتي الصغيرة، وبَدَأْتُ رِحلَةَ الترفية والتفكير مِن "وست فيرجينيا" إلى مشارف "كاليفورنيا".. وبينهما مَرَرْتُ بولايَتَي "بنسيلفينيا" و"أريزونا" حَتَّى وَصَلْتُ إلى "سانت لويس"، وبِتُّ بها ليلة.. وبَعْدَ ذلك أَكمَلْتُ رِحلَتي إلى "سبرنج فيلد" بولاية "ميزوري"، وكُنْتُ أُعايِنُ ما بتلك الأماكن مِنْ معالِمَ، وأُخاطِبُ بعضَ أهلها، وأَستعيرُ ألفاظَهم ولهجاتِهم كي أُضيفَها إلى مُعجمي اللُّغَوي في بلاد الغُرْبَة.

و في مدينة «كانسس» اشتريتُ سيارة «جيمس».. ثمَّ بِعتُها بعد يومين أو ثلاثة، مُستفِيدًا بالرِّبْح الذي حَقَّقْتُه، ثمَّ بَقِيتُ أيامًا في "سبرنج فيلد"، وتواصَلْتُ مع سعادة الدكتور «عبد الله البلوي» عضو مجلس الشورى السابق؛ إذْ كان يَدرُسُ الدكتوراه بولاية "أركانسا"؛ فدعاني إلى تناول الغَداء معه يومَ الجُمُعَة..

لقد كان بيني وبينه مائَةُ ميلٍ تقريبًا، فبِتُّ ليلةَ الجُمُعَة بالطريق بـ(موتيل) بقرية بها مطعم ومقهى "بانيرا برد"، وكانَ به شبكة إنترنت مفتوحة؛ فجَلَسْتُ أمام جهازي اللوحي وأنا أحتسي فنجان القهوة وعقلي لا يزال يُفَكِّر في المستقبل.

وقد كان هذا المطعمُ مكانًا مُفَضَّلًا لي بعد ذلك؛ فقد كُنْتُ أقضي به قُرابَةَ ثماني ساعاتٍ يوميًّا في المذاكرة، وكان فألًا حَسَنًا!!



مطعم بانيرا برد

بعد طُول تفكير وصِراع فِكْري قوي بين البقاء والعَودة.. اهتَدَيْتُ إلى ألَّا أُضَيِّعَ الصَّيْفَ كُلَّه، بل عليَّ أنْ أقوم باستثماره الاستثمارَ الأمثل؛ فقَرَّرْتُ الاكتِفاء بالترفيه بالفترة الأولى من فَصْلِ الصَّيْف، وأَقوم بالتسجيل بالفترة الثانية، وإِنْ كانت أقصى غاياتي هي مُجَرَّدُ الاستِفادة ومعرفة الجديد؛ فطالعتُ موقِعَ الجامعة، ونَظَرْتُ بالمواد الموجودة بالجَدوَل العام، ثمَّ اخترتُ مادة الإحصاء (١) - فهي مِن أهمِّ المواد - مع مواد أخرى، ولكنِّي فُوجِئْتُ أنَّ هذه المادة تُدَرَّس في الفَصْل الأوَّل مِن فَصْلَي الصَّيْف.. والذي سيبدأ بعد يومين!!

لا رَيْبَ في أَنَّ المَرْءَ مِنَّا يُريدُ دَومًا الوُصُول إلى أفضل الحُلُول، وحَتمًا سيبذلُ قَصارى جُهْدِه لمعرفة أَيسَر الطُّرُق وأقصرها، والتي تُحَقِّقُ المأمول، ولكنَّه قد يستغرقُ أوقاتًا كبيرة في مُجَرَّد التفكير الذي قد يطول ويطول، وقد يُفَوِّت فُرصَةً كبرى قد لا تتكرر مَرَّةً أخرى!

ليس كُلُّ شيء يتطلب عناءً في التفكير.. وليس لازِمًا أنْ يَظَلَّ المَرْءُ يُفكِّرُ ويُطيلُ التفكير بكُلِّ جزئية مِن جزئيات حياته؛ فكما يُعَدُّ التفكير أَمْرًا مطلوبًا في كثير مِن الأمور.. فثمَّةَ أُمُورٌ أُخرى يُعَدُّ التفكير فيها تضييعًا للفُرَص!!

لم أُطِلِ التفكير.. فاتَّخَذْتُ قراري بتسجيل موادِّ الفَصْل الأَوَّل، على الرغم مِن أنَّه لم تتم الموافقة على تمديد (الماجستير)، ولا الموافقة على ترقية البَعْثَة لـ(الدكتوراه)، وهنا وَأَدْتُ الرِّحْلَة بمُنتَصَف الطريق.

لقد قُمْتُ بمُخاطَرَة كبيرة؛ فقد سَجَّلْتُ مواد الفَصْلَيْنِ الصَّيْفِيَّيْنِ الأَوَّل والثاني، و كان مِن ضِمْنِها مادة الإحصاء (١) و(٢)؛ فقد كُنْتُ شَغوفًا إلى حَدٍّ كبيرٍ بهذِهِ المادَّة التي أفادتني كثيرًا في صِراطي في الحياة!

وفي الحقيقة.. إن المبتعث في بلد الابتعاث.. وأتحدث هنا عن (أمريكا) وتجربتي في هذا البلد المتقدِّم المنفتح على الآخَر.. يكون هذا الطالب المبتعث ناقِلًا للخبرة فضلًا عن أنه ناقل للعلم؛ فإن فترة الابتعاث تُكسِبُه من الخبرات في مجالات الحياة المتعددة الكثير والكثير، حتى في أبسط قواعد التعامل واحترام المواعيد، بل وفي نظام المرور.

أذكرُ بعد عودتي إلى أرض الوطن أني استمريتُ في قيادتي للسيارة على طريق (المدينة/ العلا) على سرعة ٧٠كم.. وبعد فترة انتبهتُ إلى أني في (المملكة)، والسرعة بها ١٢٠كم وليست ٧٠كم!

وإني لَمَدين بكُلِّ الشكر والعرفان لأساتذتي وجامعتي التي أتاحت لي تلك الفرصة المميزة من أجل استكمال دراستي بـ(الولايات المتحدة) التي كانت بمثابة التجربة المثالية وأكسبتني العديد من الخبرات العلمية والعملية، وأسألُ الله تعالى أن أنفع بها وطني في قابِل الأيام.

(العاداتُ تَغلِبُ القوانين)!!

بَعْدَ قراري.. كان لِزامًا عليَّ الرُّجوعُ السَّريعُ، ولَكِنْ لأنِّي قَطَعْتُ وَعْدًا بتلبية الدعوة.. واصَلْتُ مَسيري إلى «عبدالله»، وبعد الغداء شَدَدْتُ الرِّحال إلى مدينتي مساء يومَ الجُمُعة حَتَّى أَصِلَ قَبْلَ بَدء الدراسة يومَ الأحد..

وبينما أنا في طريق العَودة.. وتحديدًا وأنا بضواحي مدينة "ويلينج".. حيث يسكن "الآمش" الذين هُم من أُصول ألمانية.. والذين يَعيشونَ بـ(أميركا) عِيشةً بدائية تَنْفُرُ تمامًا مِن التقنيةِ والحضارةِ.. يُرَبُّون الأغنامَ ويَركَبُون الخَيل، ويُجيدون الحِرَف اليدويَّةَ، وكانت لي معرفةٌ سابقة بهم؛ فمَرَرْتُ بهم وأَخَذْتُ تَيسًا حَيًّا مِن شِدَّة العَجَلَة، وكَلَّمْتُ «مشعل» لكي يُجَهِّز المكان، وهنا تَأَكَّدْتُ أَنَّ العادة غَلَبَتِ القوانين؛ إذْ إنَّنا قُمْنا بذَبْحِه وسَلْخِه داخِلَ المطبخ؛ فجمالُ هذا التيس الأمريكي لم يُخَلِّصْه مِن العَرَبِ!!





وَصَلْتُ وذَبَحْنا التَّيْسَ بالمطبخ، وسَمَّيناه تَيْسَ العَوْدَة.. ثُمَّ تَعَشَّينا، ورَتَّبْتُ أُموري لمواصلة دراستي بعَزْمٍ مِن أَجْلِ مُواجَهَة وتَذليل كافَّةَ الصُّعُوبات المُتوقَّعَة.

وبأحد الأيام زارنا ضَيْفٌ مِن (السعودية)؛ فذَهَبْتُ للمزرعة لشراء ذبيحةٍ أُخرى، وكان الجَوُّ مُمطِرًا جِدًّا، وذهبنا إلى مكان يُشبِه المنتجع لكي نُقِيمَ فيه ضيافتنا لهذا الزائر.. وبينما كُنَّا نُعَلِّق ذبيحتَنا بـ(الهنقر).. إذا بالشرطة تَحضُرُ إلينا؛ كأَنَّهم اشتبهوا في أَنَّ الذبيحة المُعَلَّقة غَزال، وهذا ممنوع لديهم.. وبعد أنْ تَحَقَّقوا مِن نَوعِ الذبيحة أشركناهم في الشِّواء وقَدَّمنا لهم منه، وكانوا مسرورين بِتَصَرُّفِنا معهم وإكرامهم؛ فقد أَتَوا بمِزاج، ثمَّ عادوا بمِزاج آخَر.

(مآثِرُ الإحصاء)!!

كانت الدكتوره «لوي» هي التي دَرَّسَتْ لي مادة الإحصاء التي كُنْتُ أُحْسنها وأتطلَّعُ إلى معرفة المزيد عنها، ورغم نُصْح زملائي لي بتغيير المادة لأنَّ الدكتوره «لوي» يَصعُب التعامُل معها كونها شديدة المِراس، وتعمل خارج الجامعة بمركز حكومي كبير، ولها شِدَّةٌ تجعل الطلاب يَهرُبُون منها ومِن مادتها.. لكنِّي كُنْتُ مُتَطَلِّعًا إلى خَوْض هذا التحدِّي معها ومع المادة..

بعد مُضِي ثلاثة أسابيع مِن الدراسة.. وَضَعَتْ لنا الدكتوره «لوي» اختِبارًا صَعْبًا.. فقُمتُ بحَلِّ الأسئلة رغم قناعتي بوجود خطأ في أَحَد الأسئلة.. وبعد تصحيحها للإجابات.. سَلَّمَتْنا الدكتوره النتيجة التي أَفقَدَتْني فيها عِدَّة دَرَجات!!

وبعدَ تَرَدُّدٍ.. قَرَّرْتُ الذهاب إلى الدكتوره «لوي» بالمركز الذي يقع بوسط المدينة، ولا يدخل أحدٌ المركزَ إلَّا بتصريحٍ، ولا يُعْطَى بسهولة.. فأخبروها أنَّني أريدُ مُقابلتها.. ورغم يأسي مِن قَبولها.. إلَّا أنَّها سَمَحَتْ بدخولي إلى مكتبها القابِعِ بالدَّوْر الثالث، فما كان منِّي إلَّا أَنْ بَدَأْتُ الكلامَ معها..

«مجرد استفسار.. لا أُريدُ إلَّا أَنْ أفهم فحَسْب.. الدرجات التي فَقَدْتُها بسبب خطأ أراه بالسؤال»!

تَعَجَّبَتِ الدكتوره «لوي».. فعادت إلى السؤال لِتُراجِعَه.. فإذا بها تتفاجأ بصِحَّة كلامي.. فقَرَّرَتْ - بلا أدنى تَرَدُّد - أنْ تُعطِيَني وزملائي حَقَّنا في الدرجات، وأصبح هذا الموقف بداية صداقة بيني وبينها، وعند خروجي نَزَلَتْ معي إلى الدور الأرضي، ووَدَّعَتْني بكُلِّ حَفاوة.. فخَرَجْتُ فَرِحًا وأنا مُنبَهِرٌ بهذه العقلية التي تُعطِي كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، تمامًا مثلما فَعَلَت الدكتوره «استيسي» مديرةُ معهد اللغة مِنْ قَبْلُ؛ فقد أعطتني حَقِّي أيضًا رغم ما بيننا مِن خِلاف!

واصَلْتُ الدراسة بِكُلِّ جِدٍّ ومُثابَرَة.. ثمَّ طَلَبْتُ تمديدًا سَنَةً أُخرى لـ(الماجستير).. وهدفي الرئيس هو (الدكتوراه).. وتَمَّ بحَمْدِ الله التمديد.. واختَبَرْتُ اختِبار (GRE).. وتَمَّ قَبولي لـ(الدكتوراه) ولله الحَمْد.. والرُّسُوم مَدفُوعة لنهاية سَنَةِ التمديد.. واللهُ يُعينُ على باقي الرُّسُوم إلى أَنْ تُوافِقَ وَزارةُ التَّربية والتّعليمِ على ترقية البَعْثَة لـ(الدكتوراه).. ولَكِن للأسف لم يتمَّ ذلك!!

(الإحصاءُ ثانِيَةً!!)

رغم العَقَبَة المُتَمَثِّلَة في عدم موافقة وَزارة التربية والتعليم على ترقية البَعْثَة.. إلا أنَّي - بعد إنهائي مواد (الدكتوراه) واجتياز الاختبار الشامل - قَدَّمْتُ مقترحي لرسالة (الدكتوراه) بعنوان: «العوامل الداخلية والخارجية التي تُؤَثِّر على استخدام أعضاء هيئة التدريس للتعليم الإلكتروني»:

«Intrinsic and extrinsic factors that influence instructors' use of e-learning».

وبَعْدَ تقديم هذا المقترح.. قُمْتُ بمناقشته مع ثلاثة أعضاء مِن أهل الاختصاص، فأجازوه، وكان ضِمْنَ المقترح استخدامُ أدواتٍ إحصائيَّةٍ مُتَقَدِّمَة لتحليل البيانات وإظهار النتائج، فأثنى الأساتذةُ عليها.



وبَعْدَ أَنْ جَمَعْتُ بيانات بحثي مِن عينة البحث المتمثِّل في أعضاء هيئة التدريس بجامعة الملك «عبد العزيز».. ذهبتُ إلى رئيس قِسم الإحصاء بكلية العلوم في جامعة "غرب فرجينيا" لأستشيره.. فأُعجِبَ كثيرًا بالتحليلات الإحصائية، وطلب منِّي أنْ يكون ضِمْنَ المناقشين، فأَخْبَرْتُه أَنَّ المُعتاد دائمًا وُجُود خمسة مناقشين، فقال لي: «بالإمكان إضافة سادس»!

أَبلَغْتُ مُشرِفي في رغبتي بإضافة هذا (البروفيسير).. فقال: «لا مانِعَ مِن ذلك»، ولَكِن لِأَنَّ وَقْتي حينها - للأسف - لم يَكُن يَسمَحْ بأي تأخير لحين انتهاء (البروفيسور) من كافة ارتباطاته.. قَرَّرْتُ إبلاغَ المُشرِف أَنْ نَعُود إلى الوضع السابق.. فأَيَّدَني في ذلك، وتَمَّ بَدءُ التحضير لإجراء المناقشة.

وفي أثناء بحثي في مصادر البحث المختلفة - فيما يتعلَّق بموضوع رسالتي - استوقفتني رسالةُ (دكتوراه) للدكتور «مطلق الحازمي» رئيس قسم الرياضيات بـ(مركز العلوم والرياضيات) بالكلية المتوسطة بـ"الرياض"، والذي درَّسني شخصيًّا، وما شَدَّ انتباهي أنَّ عُنوان رسالته يتضمَّن استخدام الحاسب الآلي في حَلِّ المسائل الرياضية قَبْلَ انتشار الحاسب الآلي، وكأَنَّه كان يستشرِفُ المستقبل، فتشكَّلَ لديَّ سؤالٌ مُهِمٌّ.. ما أَثَرُ التعليم الأميركي على التعليم السُّعودي في مجال استخدام الحاسب بالتعليم؟.. وتولَّدَ مِنْ هذا السُّؤال عِدَّةُ أسئلة أخرى..

وقُلْتُ لنَفْسي: لماذا لا أبحث في رسائل السُّعوديين فيما يتعلَّق باستخدام الحاسب الآلي في التعليم.. فجَمَعْتُ خمسين رسالة، ثمَّ انتقَيْتُ منها عشرين رسالة للسُّعوديين في هذا الموضوع، ثمَّ زُرْتُ علماء إحصاء بعِدَّة جامعات، مثل جامعة "غرب فلوريدا" و"ميتشجان الغربية"، وكان جُلُّ حواري حَوْلَ (موديل) إحصائي بمسمى "meta-analysis" أو التحليل البعدي بالعربية؛ فقد كان هذا الموضوع مَحَلَّ اهتمام شخصي، رغم أنَّه خارج عن موضوع دراستي، فأعجبتهم الفكرة كثيرًا، ومِمَّا أثلج صدري أَنَّ هذه الفكرة استُخدِمَتْ فيما بعدُ في جامعة "ميتشجان الغربية" Mishigan university (Westernn)؛ حيث اشترطت أَنْ تُؤخَذ ثلاث رسائل (دكتوراه) ويُعمَل لها "meta-analysis" (التحليل البعدي) لعمل رسالة (دكتوراه) جديدة!!

(الانفراجة)!!

بنهاية السَّنَة اضطررتُ أَنْ أُقَدِّمَ لإجازة استثنائية مِن دون مُرَتَّب رغم أنَّني أَعُول أُسرَةً كبيرة، ولكنَّني غامَرْتُ بِفَقْدِ مُرتَّبي ومَعيشةِ أُسرَتي لِأُسافِرَ إلى مكان المناقشة، وأتحمَّلَ عِبءَ الرُّسُوم!!

وبينما كُنْتُ هناك بـ(الولايات المتحدة) أتى (سُلطانُ الخَير) صاحِبُ السُّمُو الملكي الأمير «سلطان بن عبد العزيز» رَحِمَه الله، فتَقَدَّمْتُ له بمَطْلَبي، فأَمَرَ بدَفْع جميع الرُّسُوم تَشجيعًا لي، وإيمانًا منه بقيمة العِلْم في حياة الأُمَم.. جَعَلَ اللهُ هذا العملَ في موازين حسنات سُلطانِ الخَير، رَحِمَه اللهُ تعالى رَحمَةً واسِعَة، وأدخلَه الفِردَوس الأعلى بالجَنَّة بلا حِساب ولا سابِقَةِ عذاب.

ومِن المواقف الطريفة أنَّني اختبرتُ الأمريكان في لُغتهم؛ فأَذْكُرُ أنَّه في إحدى المحاضرات مع (بروفيسوره) أمريكية أنِّي كُنْتُ العربيَّ الوحيد أثناء إلقائها محاضرة بآخِر الفَصْل الدراسي، وكان على كُلِّ طالِب أَنْ يقوم بإعداد مشروع ليُقَدِّمَه ويشرحَه لزملائه وتدور النقاشات حَوْلَه..

وعَقِبَ تَقديم مشروعي ومناقشته.. طَلَبْتُ أَنْ أُجْرِيَ مُسابَقَةً بين الزملاء يتذكروني بها، وخَصَّصْتُ جائزةً مِقدارُها مائة دولار لِمَن يُجيبُ عن سؤالين، فأجاب جميعُهم عن الأوَّل، ونظروا إلى بعضهم في الثاني..

الأول هو:

What does a pen mean?

والثاني هو:

What does a ben mean?

كان التغيير في حَرْف واحد فقط، لكنَّهم عجزوا عن الإجابة، فأخبرتُهم أنَّهم خَسِرُوا الرِّهان في لُغَتِهم، وأنَّني أُريدُ براءَةَ اختِراع، فضَحِكُوا، ثمَّ قُلْتُ لهم الإجابة، وأردفتُ قائلًا: «هذا الاختبار لكي تتذكروني دائمًا»، فقالوا: حقًّا لن ننساك!

بعدَ ذلك ناقشْتُ رسالة (الدكتوراه) بكفاءة وامتياز، ثم صارت الرِّسالةُ مَرجِعًا علميًّا للباحثين كما ذُكِرَ في القِسم الثالث مِن هذا الكتاب مِنْ خلال شهادات أعضاء هيئة التدريس في تلك الجامعة والزملاء الذين دَرسُوا (الدكتوراه) مِنْ بَعْدِي، والحمدُ للهِ مِنْ قبلُ و مِنْ بعدُ.

وهناك حقيقة أحسبُ أن أكثر مَن دَرَسَ في (أميركا) يشاركونني الرأي فيها، ويوافقونني عليها، وهي أن العيش فيها ممتع، ويحمل من الإنسانية الكثير، ولا يشعر الإنسان فيها بالغربة، بل يشعر كأنه في بلده، وما ذلك إلا بسبب رُقِي التعامل من الناس، وتَقَبُّلِهم للآخَر، وتطبيقِهم للعدالة الاجتماعية في أسمى صورها وأرقى معانيها.

كما أن سُبُل النجاح مُتاحَةٌ للجميع؛ فجميع الإمكانات متاحة للدارسين والأساتذة على السواء، والأفضلية دائمًا ما تكون للمتميز بالفعل بِغَضِّ النظر عن جنسيته وانتمائه؛ فلا يوجد أيُّ تمييز عُنصري ولا مُحاباة، وهذا مُؤَشِّرٌ مُهم جدًّا في سبيل تَقَدُّم الشعوب ورُقِيِّها.

يَومُ الحَصادِ (حَفلُ التَّخَرُّجِ ٢٠٠٨م)

ها هُوَ يَومُ التَّخَرُّجِ.. يَومُ قَطْفِ الثِّمارِ بَعد تَعَبٍ وسَهَرٍ واجتِهادٍ.. كانَ حفلُ التَّخرُّجِ حفلًا بهيجًا كبيرًا على مستوى الجامعَةِ بجَميعِ كُلِّياتها وأَقسامِها وبحُضورِ أعضاءِ هيئةِ التدريسِ، وعلى رأسِهم مُديرُ الجامعة.. المدرجات كانت مليئةً بالأُسَر والمُهَنِّئين والأصدقاء.. ما أجملَ تلك اللحظة!.. وما أصعبَ وصف الشعور حين التتويج ونَيل المرء أعلى الدرجات العلمية كلٌّ في تخصصه! وكيف لا إنْ كان ذلك في تفوُّق وتميُّز.. والحمدُ لله!!

لا أستطيع وَصْفَ مشاعري.. يا الله.. رَحِمَكَ الله يا أبي.. أُشاهِدُ زملائي الخرِّيجينَ معَ أُسَرِهم في هذا المحفل الكبير فتتجاذبُني الأفكار بأنْ أقول لكُلِّ مَن حولي: إنَّ لدينا رجالَ فِكْرٍ وتربيةٍ وتعليمٍ عظماء، أمثال معالي وزير التربية والتعليم الدكتور «محمد بن أحمد الرشيد» الذي لَهُ الفضلُ - بعد الله - عليَّ فيما أنا فيه اليوم.. في يوم التخرُّج السعيد البهيج!!

حملتُ لواءَ الكليّة مُتقدِّمًا زملائي الخريجين في مسيرةِ الحفلِ الاستثنائي.. وأثناء مُروري عَلَّقَتْ عَميدةُ الكليَّةِ ببعض كلماتِ الإطراءِ والتهنئةِ.. وهنا عادت بي الذاكرة للصف الأوَّل الابتدائي، فتذكرتُ ذلك الطفل الذي كان يُسابِقُ زملاءَه مِن أجل الوقوفِ في أوَّلِ الطابور الصباحي والمَقْعَد الأوَّل بالفصل!

في نهاية الحَفْل.. قامَتْ عميدةُ الكلية بإهدائي كارتًا شخصيًّا كَتَبَتْ فيه: «سعيدةٌ بجهدِكَ ومشاركاتِكَ وتخرُّجِكَ، وبحصولِكَ على أعلى تقدير.. دَعْنا على اتِّصال معك».



12/21/08

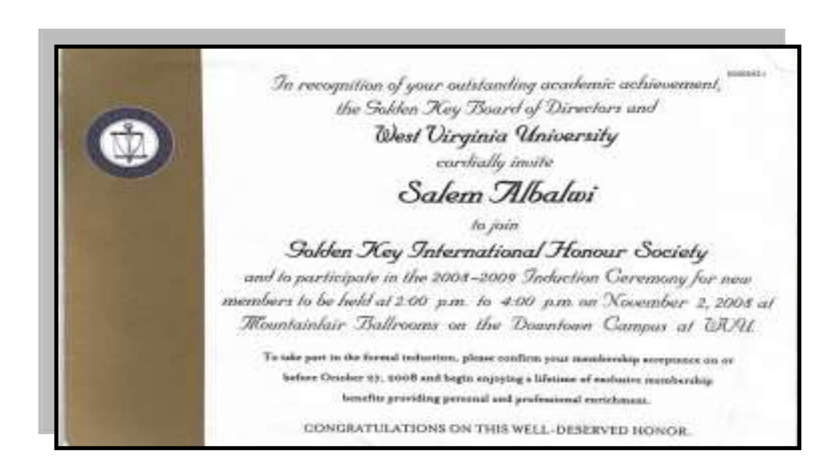
Dear Salem,

I am so pleased that I got to meet you and that you decided to attend the hooding ceremony. You've worked hard to accomplish your goals and we enjoyed recognizing your success! My best wishes to you,

Dean Dee Hopkins

(Stay in touch, okay?)

وبَعْدَ ذلك.. دُعِيتُ مِنْ قِبَلِ مَجْلِس إدارة المفتاح الذهبي وجامعة "غرب فرجينيا" لتكريمي على التفوّق العلمي وإنجازي الأكاديمي، والانضمام إلى جمعية المفتاح الذهبي الشَّرَفِيَّة الحصرية مدى الحياة التي تُوفِّرُ الإثراء الشخصي والمهني.



In recognition of your outstanding academic achievement,
the Golden Key Board of Directors and
West Virginia University
cordially invite
Salem Albalwi
to join
Golden Key International Honour Society
and to participate in the 2008–2009 Induction Ceremony for new
members to be held at 2:00 p.m. to 4:00 p.m. on November 2, 2008 at
Mountainlair Ballrooms on the Downtown Campus at WVU.

To take part in the formal induction, please confirm your membership acceptance on or
before October 27, 2008 and begin enjoying a lifetime of exclusive membership
benefits providing personal and professional enrichment.

CONGRATULATIONS ON THIS WELL-DESERVED HONOR.

وفيما بعد كَرَّمتني الجامعةُ بمَنْحي شهادة سفير لها، وكانت لي بمثابة تأشيرتي الأخيرة لمغادرة (أميركا) بعد أنْ حَقَّقْتُ مُرادي بها؛ لِأَعود إلى وطني بـ(المملكة).. لِأَبدأ في تحقيق مُرادٍ أكبر!!



MOUNTAINEER
AMBASSADOR

The West Virginia University
Alumni Association, Inc.

hereby certifies that

Salem A. Albalwi

is hereby appointed a
Mountaineer Ambassador
of West Virginia University

James McCarthy
President & CEO

Chair, WVU Alumni Association
Board of Directors

WV Alumni

عَوْدٌ أحمد!!

ما أن وَضَعْتُ قَدَمَيَّ بأرض مطار الملك عبدالعزيز ب"جدة" إلا وتَذَكَّرْتُ يومًا وَطِأَتْ فيه قدماي أَرْضًا غريبة لكي آخُذَ منها غَرَضي بنَيلِ درجة (الدكتوراه).. ثمَّ أتركها واضِعًا بها بَصْمَتي، التي أَقَرَّ بها مَن عَرَفْتُهم في تلك الأراضي بعبارات لن تُنسَى زُيِّنَتْ بها آخِرُ صفحاتِ هذا الكتاب.

هاأَنَذا أخطو أُولى خُطْواتي بوطني الحبيب بعد أَنْ حَقَّقْتُ - وَقْتَها - ما يُشبِه المُعجِزَة.. لم تَكُنْ - في الحقيقة - خُطْوات عادية؛ فقد كانت خُطْواتٍ ثابتة مُتَّزِنَة تُريد أَنْ تُساهِمَ في بناء الوطن الحبيب!!

لقد كانَ حَقًّا عَوْدًا أحْمَدَ.. فقد تَغَيَّرَتْ فِيَّ كثيرٌ مِن الصِّفات التي قد تتناسبُ مع حماستي قَبْلَ الرَّحيل إلى (أميركا).. لكنَّها تَبَدَّلَتِ الآن إلى اتِّزان ورَزانة.. تَتلامَسُ مع ما يُمكِنُ أَنْ أَصِفَه بالحِكْمة وهُدوء الطَّبْع.. بل ونُدْرَة الكلام!!

وبَعْدَ أَنْ زُرتُ الأهلَ والأصدقاء الذين كُنْتُ أتمنَّى وُجُودَ أبي رَحِمَه الله حَيًّا بينهم لِيُشارِكَني فَرْحَتي.. كان هناك وَعْدٌ بيني وبين سمو الأمير الدكتور «خالد المشاري»؛ إذْ كان يعمل على مشروع تطوير التعليم في وَزارة التربية والتعليم، وكُنْتُ قد قابَلْتُه قَبْلَ التَّخَرُّج بسَنَة، وأَخبَرْتُه برغبتي في العَمَل معه بالمشروع، بوصفه مجالَ تَخَصُّصي، ورُبَّما يُساعِدُ ذلك في أَنْ أكون أحد العاملين بمركز تطوير التعليم الذي أُرجو أَنْ أُساهِمَ فيه؛ بُغْيَةَ تَحقيق النهضة في مجال التعليم (الإلكتروني).

تَوَجَّهتُ إلى "الرياض" حامِلًا شَهادة (الدكتوراه) في تَخَصُّص مناهج وطُرُق تدريس الحاسب الآلي.. ذلك التَّخَصُّص النادِر في (المملكة) وفي الوطن العربي..

وبَعْدَ رحلة سريعة إلى محافظة "العُلا".. وبعد سلامي على الأهل والأصدقاء.. تَوَجَّهْتُ إلى مدينة "الرياض" لمقابلة سمو الأمير الدكتور «خالد المشاري».. وبينما أنا في الطريق إذا بأَمْرٍ مَلَكي بإعفاء وزير التربية والتعليم معالي الدكتور «عبد الله العبيد» ونائبه سمو الأمير الدكتور «خالد المشاري»، وتعيين الأمير «فيصل بن عبد الله» وزيرًا للتربية والتعليم والدكتور «خالد السبتي» نائبًا له!!

رَدُّ الجَميل!!

بعد تهنئة سمو الأمير «فيصل بن عبدالله» وزير التربية والتعليم ونائبه سعادة الدكتور «خالد السبتي».. وتسَلِيمهما نُسْخَة مِن رسالتي.. فُوجِئتُ ببيئة جديدة مُغايرة لتلك البيئة التي كانت قَبْلَ رحيلي، فقَرَّرْتُ التَّوَجُّهَ إلى وَزارة التعليم العالي.

وكان لديَّ تفكيرٌ مُسبَق - في أثناء زيارتي لـ"الرياض" - أنْ أَزُورَ الرَّجُل الذي كان له - بَعْدَ الله - فَضْلٌ كبيرٌ عليَّ، وكان سببًا في تغيير حياتي بأكملها!!

لم تَكُنْ رسالةُ الشُّكْر والعِرفان التي كَتَبْتُها ضِمْنَ رسالة (الدكتوراه) كافيةً لأنْ تَفِي ببعض حَقِّ هذا الرَّجُل عَلَيَّ، وكان أَوَّلَ شخص أقومُ بشُكْرِه في رسالة (الدكتوراه)؛ فكان لِزامًا أَنْ أَزُورَه وأُهدِيَه نُسْخَةً خاصَّة مِن الرِّسالة.

استقبلني معالي الوزير الدكتور «محمد أحمد الرشيد» رَحِمَه الله استِقبالًا طيبًا، وفَرِحَ كثيرًا بما حَصُلْتُ عليه، وعلى صِدْق حَدْسِه بي، وأقام باليوم التالي غداءً حَضَرَه كِبارٌ من رِجالات "الرياض".. ثمَّ جَلَسْنا بَعْدَها جلسةً خاصَّةً تَحَدَّثنا فيها عن كثير مِن الأُمُور التي كان مِن أهمها نصيحته لي بالعمل في جامعة الملك «سعود»، فأَخْبَرْتُه أَنَّ جامعة طيبة أقرب إلى سكني، فكَتَبَ لي توصيةً دُونَ أنْ أطلب، وكانت بمثابة الجائزة الكبرى التي لو لم أتحصَّل إلَّا عليها لَكَفَتْني!!

ثمَّ أهداني كتابه "مسيرتي مع الحياة"، وطَرَّز صفحتَه الأولى بإهداء خاص كان سببًا مُباشِرًا في أَنْ أَشْرُفَ بأنْ تُطالِعَ عيناك - أخي القارئ - هذا الكتاب.. لقد كَتَبَ ما نَصُّه: «إلى الأخ الطَّمُوح الدكتور «سالم بن عبد الرحمن البلوي».. أُهديه - مسيرتي مع الحياة - لعلَّها تكون دافِعًا له أَنْ يسطر مثل ذلك؛ إذ إنَّ حياته مليئة بالعطاءات والعِبَر...»!!



محمد بن أحمد الرشيد
Mohammed A. Rasheed

معالي الأخ الكريم الدكتور/منصور بن محمد النزهة **حفظه الله**
مدير جامعة طيبة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

يسرني أن أقدم إلى معاليكم رجلاً طموحاً ، وثقت بقدراته وإمكاناته العقلية حين كنت على رأس العمل في وزارة التربية والتعليم ، فأثبت لي كفاءة عالية ، وتفوقاً بالغاً في مجال تخصصه .

الدكتور سالم بن عبد الرحمن البلوي حصل على الدكتوراه في شهر ديسمبر من العام الماضي .. في مجال المناهج وطرق التدريس من جامعة (غرب فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية). وكان عنوان رسالته : (العوامل الداخلية والخارجية المؤثرة في استخدام أعضاء هيئة التدريس للتعليم الألكتروني) ، ومرفق مع هذا نسخة من وثيقة المصادقة على منحه هذه الشهادة ، والتي اشترك في مناقشتها خمسة من مشاهير هذا التخصص .

صاحب المعالي ..

هذا الرجل يمثل في مسعاه أصحاب الهمة والطموح العالي ؛ جاءني منذ سنوات عدة من محافظة (العلا) ، وكان معلماً هناك .. وأبدى رغبة في دخول ميدان الكمبيوتر ، والانترنت ، والتعليم الألكتروني فقلت له : يا سالم مالك وهذا التخصص !! فأقنعني بقدرته وإصراره على تحقيق هذه الرغبة ؛ فتجاوزت كل الإجراءات ، والتعليمات المعتادة .. ومكنته من بعثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فلم يكتف هناك بدرجة الماجستير التي كانت هي أعلى مبتغاه ، وطلب بعد تركي للعمل في الوزارة من المسؤولين إعطاءه فرصة لاستكمال درجة الدكتوراه .. لكنهم لم يحققوا أمله في ذلك ؛ فأخذ إجازة بدون مرتب ، وتحمل مصاريف الدراسة مع قلة إمكاناته المادية ، وأنهى درجة الدكتوراه المشار إليها .

لقد أذهلني حين زارني بالأمس ، وأطلعني على عمله وإنجازاته ، وشاورني فيما يريده ، فأشرت عليه بأن تأهيلك هذا ، وقدراتك الفذة تصلح أن تكون عضو هيئة تدريس في الجامعة .. فوافق رأي رأيه ورغبته ، وكانت جامعتكم المرموقة (جامعة طيبة) هي ما اتفقنا على أن تكون المؤسسة التي يحسن أن يعمل فيها عضو هيئة تدريس .

معالي الأخ الكريم ..

إني لأوصي عليه بثقة وجزم ، إذ أنه سيكون عضواً فعالاً في جامعتكم .. ومع أني نسيت قصتي - المذكورة - معه - إلا أني سعدت حين جاءني ، وصدق حدسي فيه .

وتقبلوا في الختام خالص شكري وتحياتي..

المخلص

محمد بن أحمد الرشيد

٢٨ صفر ١٤٣٠هـ
٢٣ فبراير ٢٠٠٩م

إلى الأخ الطموح الدكتور سالم بن عبد الرحمن البلوي أهديه "مسيرتي مع الحياة".. لعلها تكون دافعاً له لأنه يسطر مثل ذلك إذ أنه حياته مليئة بالعطاءات والعبر.

أخذ الله بيدك للخير والفلاح، وأسلم.

٢٨ صفر ١٤٣٠هـ

٢٣ فبراير ٢٠٠٩م

المحب

محمد بن أحمد الرشيد

مسيرتي مع الحياة

محمد بن أحمد الرشيد

تأسيس فرع جامعة طيبة بـ"العُلا"

في عام ١٤٣٠هـ تَقَدَّمْتُ لجامعة طيبة بـ"المدينة المنورة"، وعَلِمَ بذلك وكيل الجامعة للفروع سعادة الأستاذ الدكتور «إبراهيم المحيسن»، فطلب مقابلتي؛ وذلك لأنَّه يبحث عن دكتور مِن أبناء "العُلا"، يُريده أَنْ يُشرِف على فرع جامعة طيبة المرتَقَب تأسيسُه بالمحافظة.

لقد كانت المواصفات المطلوبة مُتوفرةً والحَمْدُ لله، سواء ما تَعلَّقَ منها بالخِبْرة في التعليم أم بكوني خريجَ جامعة أمريكية مرموقة وفي تَخَصُّص نادِر بالتعليم (الإلكتروني)؛ فلم يتردَّد وكيل الجامعة في إِسناد هذه المَهَمَّة لي؛ فقال: «نُريد تعيينَك مُشرِفًا على فرع الجامعة بالعُلا»، فقُلْتُ له: «أُريدُ تعييني على الجامعة الأُم، ثُمَّ أُكَلَّف للإشراف على الفرع بـ"العُلا"»، لكنَّه أَلَحَّ عليَّ بالموافقة، وقَطَعَ عليَّ حُجَّتي قائلًا: «متى رَغِبْتَ في العودة للمدينة فسوف نُسَهِّلُ لك ذلك»!

في الحقيقة أعجبني مَنطِقُ الرَّجُل، وأعجبتني شخصيتُه؛ فهو مِن رجالات الجامعة أقوياء الشخصية، ووَجَدْتُ فيه جُرأةً وقُدْرَةً فائِقَة في اتِّخاذ القرار، كما أنَّه استطاع - بسهولة - أَنْ يَعرف أهمَّ مِفتاح مِن مفاتيح شخصيتي؛ فأسندَ لِيَ المَهَمَّة في قالَبٍ عَصِيٍّ وصعبٍ عُنوانُه التحدِّي، وكأنَّه يستفزُّ عِنادي أو شغفي بالتحدِّيات؛ فما كان منِّي إلا أَنْ قَبِلْتُ دُون أدنى تَرَدُّد.

وبعد المقابلة مُباشَرَةً رُفِعَ الأَمْرُ لِوَزارة التربية والتعليم بِنَقْل خِدْماتي لجامعة طيبة بـ"المدينة المنورة"، لكنِّي أَعْلَمُ أنَّه قد تأتي الموافقة، وقد تُرفَض..

وفي أثناء إجراءات نَقْلِ الخِدْمات، وقَبْلَ أَنْ تَتِمَّ الموافقة على نَقْلِ خِدْماتي للجامعة التي استمرَّتْ لأكثر مِنْ ثلاثة أشهر.. بَدَأنا العمل

بمقابل (خدمة وطن) بتأسيس فرع الجامعة بمحافظة "العُلا"، وكان العَمَل مع سعادة وكيل الفروع الأستاذ الدكتور «إبراهيم المحيسن»، وهو مِن أقوى رجالات الجامعة، مِنْ حيثُ القدرة على اتِّخاذ القرار وتوزيع المهام، وكان سَنَدًا وداعِمًا قَوِيًّا إلى أبعد الحُدود.

وكان لمشرفي الفروع دَورٌ كبير بالتأسيس، وبِخاصَّةٍ "العُلا" و"ينبع"، فضلًا عن باقي الفروع.. لذا بدأ التأسيس باستِئجار مبنى بطريقة غير نظامية؛ لأنَّنا نُسابِق الزَّمَن، وتَمَّ اختيار مبنى تحفيظ القرآن الكريم بـ"العُلا"، والذي بُنِيَ على نفقة خادِم الحَرَمَين الشريفين الملك «فهد» رَحِمَه الله تعالى، وكان يشتمل على عشر شقق والقسم الإداري، مع مسرح كبير للرِّجال والنساء، وكان مَوقِعُ المبنى ممتازًا جدًّا؛ فكان قريبًا مِن مسجد وساحة كبيرة لمواقف السيارات.

وتَمَّ استِئجار المبنى على عَجَلٍ؛ بسبب قُرب بَدْء العام الدراسي، ورُفِعَ الأَمْرُ للوَزارة، فأوقِفَتِ المعاملة؛ لعدم نظامية الإيجار، وكَونها لم يُعلَن عنه، ولم يَحدُثْ إجراءُ فَكٍّ للمظاريف، ومِنْ ثَمَّ لم تَكُنْ هناك منافسة، إلى آخِرِ ما هنالك مِن إجراءات نظامية!!

اضطُرِرْتُ - إِثْرَ ذلك - أَنْ أُسافِرَ فورًا بصفة شخصية إلى "الرياض" وقابَلْتُ وكيل وزارة المالية الأستاذ «أسامة الربيعة»، وأَخبَرتُه أنَّه ليس هناك مصلحة شخصية، والوقت لا يُسعِفُنا مِن أَجْلِ اتِّخاذ الإجراءات المعروفة، وأَنَّ إنهاء هذا الموضوع فيه الحُسنيان: أَنَّ هذا المبنى عائِدٌ إيجاره لكتاب الله عَزَّ وجَلَّ، وأيضًا لجامعة تقوم بتعليم أبنائنا بمحافظة "العُلا" وضواحيها، ولا يُوجد مبنى أفضلُ منه بـ"العُلا"، وإذا تَأَخَّر الموضوع فسيُحرَمُ الطلابُ مِن التعليم الجامعيّ مُدَّة سَنَةٍ كامِلَة!!

اقتنعَ الوكيلُ، ثُمَّ وَجَّهَ الإدارةَ المَعنية باستِكمال إجراءات الإيجار، على أنْ تقومَ الجامعة برفْع الأمر للمقام السامي؛ وذلك من أجل إضفاء الصِّبغة القانونية للإيجار.

لم يَكُنْ بـ"العُلا" إلا كلية مُعَلِّمات ومعهد صحي يَتْبَع وَزارة الصحة، فقُمْنا بهَيكَلَةِ كلية المُعَلِّمات لكلية علوم وآداب تشمل خَمْسَ تَخَصُّصات عِلْمية، وهي: فيزياء، كيمياء، أحياء، رياضيات، حاسب آلي، وكلية الآداب تشمل خَمْسَ تَخَصُّصات أدبية: لُغَة عربية، دراسات إسلامية، دراسات وعلوم قرآنية، لُغات وترجمة، واجتماعيات.

فضلًا عن أنَّنا افتتحنا قِسْمَ الإعداد التربوي، أمَّا المعهد الصحي فقد عَمِلنا له هيكلة لكلية طبية تطبيقية، وكذلك افتتحنا كلية المجتمع، وفَتَحْنا القَبول في جميع التخصصات.

وأَذْكُرُ - مِنْ ضِمْنَ القرارات الجريئة - أنَّنا قَبِلنا طالباتٍ بالسَّنَة التحضيرية لصالح الكلية الطبية التطبيقية للبنات قَبْلَ أَنْ يأتي الاعتماد لها؛ حيثُ رُفِعَ مَحضَرٌ إلى مجلس التعليم العالي بمجلس الوزراء، وتوقَّفَ في مجلس الوزراء، وأَذْكُرُ أنَّه أتى تَخَرُّج الطالِبات مِن السَّنَة التحضيرية والبرنامج لمَّا يُعتَمَد، وآخِر المطاف تَصَرَّفَ وزيرُ التعليم العالي معالي الدكتور «خالد العنقري» وأَمَرَ بأنْ نَسْتَمِرَّ، فيَسَّرَ اللهُ أَمْرَنا.

لم تَكُنْ صُعُوباتُ التأسيس ووَضْع البِنْيَة التَّحتِيَّة مُتَمَثِّلَةً في أنَّنا بَدَأنا مِنْ لا شيء فحَسْب.. فقد كُنَّا نَعْمَلُ على مَدار أَرْبَع وعشرين ساعة في سعي دَؤُوب مع زملائي الإداريين وأعضاء هيئة التدريس الذين تَفَنَّنُوا في بَذْلِ جُهْدٍ مُضاعَف لتهيئة المكان الذي كان يتسابق كُلُّ فَرْد في أَنْ يَضَعَ بَصْمَتَه في تأسيسه، وعلى رأسِهم أخي وزميلي الأستاذ «أحمد السحيمي» وكيل الكلية.

فمِنْ تأسيس مَعامِل الحاسب والكيمياء والفيزياء والأحياء.. إلى تجهيزات قاعات المحاضرات.. إلى غير ذلك مِنْ تجهيزات دامَتْ لَيْلَ نَهارَ.

فضلًا عن أنَّنا افتتحنا (دبلومات) تعليمٍ مُوازٍ لِمُدَّة سنتين للغة الإنجليزية والحاسب الآلي وبرنامج (بكالوريوس) انتساب؛ فكان الحِراكُ مُستَمِرًّا لَيْلَ نَهارَ لجميع مَهام الجامعة التعليمية والبحثية وخِدْمة المجتمع.

لقد سَمَّيتُ هذا الفصلَ "التيرم" الأوَّل، تيرمَ إدارةِ الأزمات في وَقْتٍ وجيز؛ إذْ إنَّ الدراسة على الأبواب؛ فلم تَكُنْ هناك معامل، ولا شركة تنظيف، ولا سَبُّورات، ولا طاولات، ولا مكاتب، ولا كَراسٍ.. سوى كرسي واحد كُنَّا نتسابَقُ مِنْ أَجْلِ الجُلُوس عليه، ورُبَّما كان هذا مِنْ حوافِز الدوام المُبَكِّر!!

لقد استدعيتُ وَقْتَها مَقُولَةَ الدكتور «أسامة المقدادي» الذي سَبَقَ أَنْ قال لي: «إِنَّ أفضل إنتاجِك هو الذي يكون تحتَ ضغط»، وهو مِن أعزِّ الأصدقاء والجيران في (أمريكا)، ويعمل عضو هيئة تدريس بكلية الهندسة في جامعة "غرب فرجينيا".

استَمَرَّت العملية الدراسية على قَدَمٍ وساق، واستقطبنا أعضاءَ هيئة تدريس مُمَيَّزِين مِن شتى المشارِب والمدارس والبلاد في جميع التخصصات المطلوبة.. من (تونس)، (الأردن)، (سوريا)، (المغرب)، (مصر)، و(السودان)، واستقام الفرع على سُوقه، وتَمَّ الافتِتاح فيما بَعْدُ والحَمْدُ لله.

افتِتاحٌ فوق العادة!!

إنَّ ما جَرَتْ عليه العادة في افتِتاح المؤسَّسات.. قَصُّ شريطٍ وباقةُ وَرْدٍ واحتِفالٌ بسيط، ولَكِنْ كان افتتاحُنا لفرع "العُلا" مُختلِفًا تمامًا!

في عام ١٤٣٠هـ الموافق ٢٠٠٩م بعد ثلاثة أشهر انتظم الفرع ولله الحمد، وكان لا بُدَّ مِن افتتاح فرع "العُلا".. فتحدَّدَ المَوعِد، ثم جَهَّزْنا المسرح بأفضل التجهيزات والمعايير..

ودَعَوْنا أهالي "العُلا" ورِجالات التعليم، وأَرْسَلْنا الدَّعَوات لِأَكثر مِن مائة شخصية اعتبارية مِن أبناء "العُلا" العامِلِين في جميع أنحاء (المملكة) ومِن شتى القطاعات، وهذا ما أعطى للحَدَث ثِقَلًا وقُوَّةً وتأثيرًا له ما بَعْدَه، من إبراز قُوَّة الجامِعَة والمُشْرِف عليها، وقُدْرَتِها على إقامة شَراكات مع كافَّة المُؤَسَّسات الحكومية والجِهات ذات التأثير والنُّفُوذ، بالإضافة إلى نَيْلِ الجامعةِ شُهْرَةً واسِعَة ساهَمَت في التِحاق العديد مِن الطلاب والطالبات، وتَسابُق الكثيرين مِنْ أَجْلِ تلبية كافة احتياجات الجامعة.

لقد كُنْتُ على وعي تام بأنَّ «أَوَّلَ انطباع هو آخِرُ انطِباع»، وأَنَّ «الرُّمْحَ مِنْ أَوَّلِ رَكْزَة»؛ فقد أدرك مجتمع "العُلا" - مُتعَدِّدُ الفئات - أَنَّ الرَّجُل الذي يدعو مُختَلَف الشخصيات شخصٌ يُحِبُّ الجميعَ، ويُريد أَنْ يُشرِكَهُم جميعًا في الاحتِفال بالإنجاز مِنْ دُونَ تمييز بين واحِدٍ وآخَر.

وقد شَمِلَتِ الدَّعْوة - كذلك - جميعَ الكوادر في أنحاء (المملكة) مِن أبناء محافظة "العُلا" الأطباء، وأعضاء مجلس الشورى والقطاعات العسكرية رجال الداخلية والجَيش، ورِجال وَزارة الخارجية ووَزارة التعليم العالي، وأعضاء ومُمَثِّلِين من مُخْتَلَف جامِعات (المملكة).

فعلى سبيل المثال.. أتذكَّر أنَّه قد شَرَّفنا بالحُضور سعادة الدكتور «عبد الله نصيف» عضو مجلس الشورى السابق، ومن القوات المُسَلَّحَة سَعادَةُ اللواء «زعل البلوي» الذي لَقَّبَه صاحِبُ السُّمُو الأمير «سلطان بن عبد العزيز» بـ(الليث الأبيض).

فضلًا عن دعوتنا لمجتمعِ "العُلا" المحلي من مُواطنين وشيوخ، وعلى رأسهم محافظ محافظة "العُلا"، وجميع رؤساء الدوائر الحكومية بالمحافظة.

فعند وصول معالي مدير الجامعة الدكتور «منصور النزهة»، ووكيل الفروع سعادة الدكتور «إبراهيم المحيسن»، ومرافقيهما المدعوين مِن جامعة طيبة الأُم بـ"المدينة".. تفاجأوا جميعًا بوجود هذه الكوكبة مِن المدعوين مِن الشخصيات المؤثِّرة في (المملكة)، والذين سَعِدُوا وانبَهَرُوا بِحَفَاوَةِ الاستِقبال والتَّنظيم والفَعاليات المُصاحِبَة.

لقد كان البَرنامَج عظيمًا جِدًّا بمُشارَكة الطلاب والطالبات، وكان يوجد عَرْضٌ لـ(فيلم) وثائقي عن مدينة التاريخ والآثار التي مَرَّ عليها أكثر مِنْ سِتِّ ممالك؛ فلها عَهْدٌ تليد في الحضارات والثقافات والتعليم والجَمال.

لقد رَبَطَ الفرع عِدَّةَ شراكات مع جامعات ومراكز بحثية، وقد أُخِذَ انطِباعٌ حَسَنٌ عن مُشرِف الفرع، وظَهَرَت رَغبَةُ الفرع في تحقيق مَقاصِد البَحْث العِلْمي وخِدْمَة المجتمع والتعليم.

وكان ضِمْنَ البرنامج تناول العشاء، ثُمَّ في الصباح رِحْلَة بِفُطُورٍ بَرِّي بالقَوس في مكان مُتميِّز، وفي أثناء السَّير بسيارتي كُنْتُ أقومُ بالتحدُّث مع معالي المدير ووكيله للفروع عن حاجتنا إلى سيارات دَفْعٍ رُباعي مِن أَجْلِ الأعمال المَيدانية، وإِجراء بُحوث بشتى المجالات، ومِن تدابير القَدَر أَنْ

غَرَّزت السيارة بنا في الطريق، فتَمَّ تلبيةُ الطلب بِشَكْلٍ مُباشِر، وكأنَّهم رَأَوا في الافتتاح ما أثلج صُدُورَهم؛ فكانوا - مِن فَرْط اندهاشهم بما يَرَوْنه على أرض الواقع - يُلَبُّون أيَّ مَطْلَب لنا فيما بعد.

إنَّ تأثيرَ هذا الافتتاح قد أسهمَ في تشكيل صورة جديدة عن "العُلا" من الناحية العِلْمية والأكاديمية، وقد أسهمَ - أيضًا - هذا الحَدَث في تحقيق أهداف فرع "العُلا"، والذي أصبح في فترة وجيزة بَيتَ خِبرة، ومؤسسة تعليمية ارتبطت بالمجتمع المحلي، وعَمِلْتُ على بناء شراكة تُسْهِم في تقديم العديد مِن الإنجازات على مستوى المحافظة ومنطقة المدينة، و مستوى (المملكة العربية السُّعُودية).

وقد أدَّتْ طبيعةُ "العُلا" وموقعها الجغرافيّ وتاريخها الحضاريّ في تَمَيُّزِها بنسيج مجتمعيّ مِن أطياف متنوعة، ونظرًا لِعُمْق هذا التَّنَوُّع وثرائه.. فقد حَرَصْتُ على الاستفادة منه، واستثماره في بناء شراكة بين هذا المجتمع المتمايز في ثرائه وتنوعه؛ لبناء علاقة مُستدامة وتكاملية.

وعَقِبَ انتِشار الخَبَر عن افتتاح الفرع تَقَدَّم مجموعة مِن الطلاب المُسَجِّلِين بجامعة "حائل" و"تبوك" وغيرهما، فأخبرتُهم أنَّهم سوف يُقْبَلون استثناءً؛ فصارت الهجرة عكسية!

ولا رَيْبَ أنَّ المُدُن تُبنى بالجامعات، وبخاصَّةٍ في (أوروبا) و(أميركا)، ونظرًا لوجود مركزين حضاريين مُتَمَثِّلَين في المطاروالجامعة.. زاد مُعَدَّلُ التعداد السكاني في "العُلا" إلى ٨%، على حين نسبة النمو الديموجرافي بـ(المملكة) ٤%.

إنَّ هذه الاعتِبارات المختلفة - بجانب كَون "العُلا" مَقصِدًا سياحيًّا مُمَيَّزًا - قد زادَ في شُهرَة مدينة "العُلا"، وفي قُدُوم الكثيرين إليها.

وقد بَشَّرتُ في كلمة الافتتاح أبناءَ المحافظة بأنَّ الفرع سوف يأخذ بمقاصد الجامعة تعليميًّا وبَحثِيًّا وخدمة مجتمَع، ووعدتُهم بإعداد دَورات مُتعدِّدة للهيئات الحكومية؛ كدَورة معالجة الأخطاء اللغويَّة بالمُكاتَبات الحُكومية لتسع وعشرين دائرة حُكومية في المحافظة، كما وعدْتُهم بِعَقْد العديد مِن المسابقات والمؤتمرات، وبخاصَّةٍ للخُطباء والأئمة.

العِلْم لأَجْل العِلْم!!

في أثناء استقبالنا لعدد مِن الطلاب - في أَوَّلِ أيَّام تأسيس فرع "العُلا" - إذا برَجُلٍ كبيرِ السِّن، حزينٍ، قادِمٍ نحوي، معه ملفٌّ، فاعتقدتُ أَنَّ

لديه مشكلةً في تسجيل ابنه بالجامعة، أو ما شابه ذلك، فسألتُه عن مشكلته، فتفاجأتُ أَنَّه لم يأتِني لغَرَض تسجيل ابنه الذي قُبل، ولَكِنْ لم يُقبل الرَّجُل نفسِه!!

ورغم تَعَجُّبي مِنْ رغبة هذا الرَّجُل في الالتِحاق - هو أيضًا - وقد كَبُرَت سِنُّه.. فإنني أَخفَيْتُ تَعَجُّبي، فسَأَلْتُه عن سبب عَدَم قَبُوله، فأجاب أنَّه وَجَدَ نظام الجامعة لا يَقْبَلُ مَن هُمْ في سِنِّي؛ إذْ كان بالسبعين مِن عُمره!!

إنَّ الإرادَةَ الفُولاذية التي جَعَلَت مِثْلَ هذا الرَّجُل يُقدِمُ على طَلَب العِلْم لِأَجْلِ العِلْم هي - ذاتُها - التي حَرَّكَت لساني وأَجْبَرَتْه على إصدار قرار فَوري بقَبُولِه وتسجيله، فتَهَلَّلَ وَجْهُ الرَّجُلِ فَرِحًا.

لَمْ تَكُنْ فَرْحَةُ الرَّجُل التي شاهدتُها هي الدافع الرَّئيس الذي جَعَلَني أَهُمُّ باتِّخاذ قَرار يُخالِفُ القواعد المَعمُول بها، وإنَّما كان الخَجَلُ الذي كُنْتُ سأشعرُ به إنْ رَدَدْتُ طالِبَ عِلْمٍ تتحدى قَسَمَاتُ وَجْهِه كُلَّ العوائِق خائِبًا مِن دُون قَبُول!!

يقولون: «ليس الأَمْس كالبارِحَة».. ولَكِنَّ هذا الموقِف ذَكَّرَني بموقف مُشابِه في أثناء دراستي في (أميركا)؛ حيثُ ظَهَرَتْ - أمام عينيَّ - امرأةٌ طاعِنَةٌ في السِّن.. تتقدَّم نَحْوَ مسرح حَفْلِ التَّخَرُّج بخُطُواتٍ تتحدَّى - أيضًا - كافَّةَ الحواجِز التي تَعتَرِض طريقها مِن أَجْلِ تَسَلُّم شهادة حصولها على درجة (الماجستير)، باعِثَةً رسالةً قَولية - وعَمَلِيَّة - بأَنَّ طَلَبَ العِلْم لا سِنَّ له ولا حُدُودَ له!

لقد قالت وهي على المِنَصَّة: «لا تقولوا تَأَخَّرْت»!

وهذا الموقف أيضًا ذَكَّرَني بما فَعَلَه معي معالي الوزير، رغم العوائق التي كانت تَقِفُ في طريق إكمال دراستي.

ومِن الغريب والعجيب أنَّ هذا الرَّجُل الذي قُبل.. قد استطاع أنْ يكون أحد أفضل الطلاب المتفوقين بالجامعة، و لَفَتَ الأنظار بِشِدَّة، ونال شُهرَةً واسِعَة جَعَلَتِ الكثير مِن وسائل الإعلام تَكتُبُ عنه وعن اجتهاده، ولِكَونه أكبرَ طالِبٍ في (المملكة) يُسَجِّل في جامعة سُعودية!!

ذروة الأرض!!

في وَقْتٍ سابِق مُنِحنا أرضًا صغيرة تَصلُح لإقامة كلية واحدة فقط؛ فبدأتُ أُفَكِّرُ في تخصيص أرض كبيرة لمدينة جامعية متكاملة!!

وكَوني ابنًا لـ"العُلا" أَعرِفُ الأماكن، ولكنْ لا بُدَّ أَنْ أقترح عِدَّة خَيارات، فكَلَّمتُ محافِظَ "العُلا" ورئيس البلدية (آنذاك)، وأخبرتُهما بضرورة أَنْ تُمنَح الجامعة أرضًا أكبرَ تستوعب ما بها مِن كليات وطلاب، فاجتمعنا لهذا الأَمْرِ فَورًا، ولم أَخرُج مِن الاجتِماع معهما ومع مدير إدارة التخطيط إلَّا وقد حَدَّدْتُ تمامًا مكانَ الأرض!!

لقد خَرَجْتُ مِن الاجتِماع، وما زِلْتُ لا أستوعِبُ قَدْرَ الإنجاز الذي تَحَقَّق؛ فقد كان مِن أعظم الهِبات التي وَهَبَنا اللهُ إيَّاها هو حُصُولنا على تلك الأرض التي سَمَّيتُها «ذروة الأرض»، كَونُها مرتفعةً قَدْرَ مائة متر عن باقي الأراضي!

على الفَور أخبرتُ وكيل الجامعة - آنذاك - معالي الدكتور «عبد العزيز السراني» (رئيس الجامعة الحالي) بما حصل، وأخبرتُه أنَّنا نُريدُ حضور سعادته مع مهندس مشاريع الفروع المهندس «فواز المُحَمَّدي» لِعَمَل مَحضَر بالأرض، ولنُكمِلَ إجراءات الحُصُول عليها.

عَمِلْنا المَحضَر ورُفِعَ للأمانة، وبَعْدَ رَفْعِه للأمانة جَعَلُوها فقط مليونَي مترٍ مُربَّعٍ، فحاوَلْتُ أَنْ أَجِدَ لذلك مَخرَجًا، لكنِّي بالأخير تَرَكْتُ المُعامَلَة كُلَّها، وأَنشأْتُ مُعامَلَةً أُخرى بطريقتي مع سعادة وكيل الفروع الدكتور «إبراهيم المحيسن»، ورَفَعْتُها مِنْ معالي مدير الجامعة إلى وزير التعليم العالي، والذي أحالها بدَوْرِه لوَزير الشؤون البلدية والقَرَوية بطَلَبِ أرضٍ مُحَدَّدةٌ مَساحتُها بعشرة ملايين متر مربع، ومُحَدَّدٌ مَوقعُها.

وقد اعتمدَ الوزير الموقع والمساحة.. وأُنْجِزَتِ الموافقةُ والحَمْدُ لله، وبَعْدَ حُصُولِنا على الأرض عَمِلنا لها تخطيطًا عامًّا (Master Plane) لخمسين عامًا، بحيث تستوعب عشرين ألف طالب وطالبة بِكُلِّ ما

تحتويه المُدُن الجامعية الحديثة مِن تجهيزات، ثم قُمنا بتسويرها، وتسليمها لمكتب هندسي عَمِلَ لها اختبارات التربة اللازمة والمُخَطَّط الكامِل ببنيته التحتية، مع مُخَطَّط إنشائي لبناء مدينة جامعية مُكتَمِلَةً ومُتكامِلَة، بالإضافة إلى تخصيص مَساحة بِعُمْق مائة متر على طُول خط "المدينة" السريع، يُخصَّص للاستثمار لصالِح الجامعة، وبعد ذلك بُنِيَتْ بعضُ الكليات كما هو موضح في قابل الصفحات تحت عنوان «حَجَر الأساس».

«العُلا».. وأوَّل مؤتمر دولي!!

مِنْ دواعي التأمُّل أنْ ينظر المرء في معاني الأسماء ودلالاتها، ورُبَّما يسرحُ في تأمُّل كُلِّ حرف مِن الحروف التي قد يكون لكُلٍّ منها دلالته وتأثيره!!

تتميز "العُلا" بسحر الطبيعة الخلَّابة، والأماكن التاريخية والأثرية الخالدة؛ فهي عُلا الحُبِّ والجمال، والتنوع البيئي والزراعي والأثري والتاريخي والجغرافي والحضاري والثقافي.. هي كَنز ثمين مِن كنوز بلادنا الحبيبة.. بل مِنْ كنوز الإنسانيَّة، هي كنز له قيمته المادية والمعنوية في قلوبنا نحن أبناء "العلا" وفي قلوب آبائنا وأجدادنا.

وإنه لَفَخْرٌ لنا أنْ نكون نحنُ - وأبناؤنا - نِتاجًا لهذة البيئة الضاربة في أعماق التاريخ؛ حيث الحضارات والممالك منذُ آلاف السنين، والتي لها أثرها الفارق على مسيرة الإنسانية؛ إذْ كانت - وما زالت - مِن مصادر الإشعاع الحضاري والثقافي والفني والتراثي..

يظن بعض الناس أنَّنا مجموعة مِن البدو الذين يعيشون في صحراء جرداء غنية بالبترول.. لكن هذه صورة نمطية مغلوطة؛ فنحن لدينا حضارات عِدَّة، امتزجت في عِدَّة بقاع مِن أراضي (المملكة)، والتي ظهرت مِن خلال الآثار السياحية الباقية إلى يومنا هذا.

إنَّ "العُلا" هي أحد أهم الثروات الوطنية التي حَظِيَت برعاية خاصَّة مِن حكومتنا الرشيدة.. حتى صنّفت أهم المواقع الأثرية والتاريخية بها كـ(مدائن صالح أو الحجر) مِن منظمة (اليونسكو) وتسجيلها على قائمة التراث العالَمي، كما حَظِيَت الآن برعاية خاصَّة مِن قِبَل الدولة تحت رعاية خادم الحَرَمَين الشريفين الملك «سلمان» وولي عهده الأمين صاحب السمو الملكي الأمير «محمد بن سلمان» حَفِظَهما الله؛ فصدرت

الأوامر السامية بإنشاء الهيئة الملكية بـ"العلا"؛ ذلك للحفاظ على تراث "العلا" العريق، وتطويره والنهوض به في شتى المجالات؛ لتحقيق رؤية (المملكة العربية السعودية) حتى عام ٢٠٣٠م بإذن الله.

لقد أُطلِق على "العُلا" مُؤَخَّرًا (المتحف المفتوح).. أجَل.. متحف مفتوح بما تَضُمُّه مِن إبداعات الزمان والمكان منذُ آلاف السنين؛ فقد احتضنت عِدَّة حضارات، منها: (العصور الحجرية، الحضارة الثمودية، الحضارة الدادانية، الحضارة اللحيانية، الحضارة النبطية، وانتهاءً بالحضارة العربية الإسلامية).

وكان للطبيعة الخلابة الثرية المتمثلة في الموقع والمناخ والمياه والغطاء الحيوي النباتي والحيواني والتراكيب الجيولوجية مِن جبال وهضاب وأودية وسهول وكثبان رملية ورياض وخباري.. كان لكُلِّ ذلك أَثَرُه في تَمَيُّز هذه المنطقة عمَّا سواها.

والعجيب أنَّ تلك الطبيعة تُقَدِّم للمُشاهِد هذا التنوُّع بشكل جذَّاب ومُلْهِم، وأعتقد - يقينًا - أنَّ كُلَّ مُتخصص سوف يَجِدُ ضالته في طبيعة "العُلا".

ورغم أنِّي مِن أبناء "العُلا" وترعرعتُ بها منذُ نعومة أظفاري، ومِن هواة الرحلات البرية.. غير أنَّني لا زِلْتُ أكتشفُ بها - كُلَّ يوم - شيئًا جديدًا فريدًا أَجِدُهُ لافِتًا ومُلْهِمًا.. ولا أعلم - حتى الآن - سِرًّا لذلك!!

على مدى خمس سنوات سابقة حينما كُنتُ مُشرِفًا على فرع جامعة طيبة بـ"العُلا".. كُنتُ ضمن لجنة استقطاب أعضاء هيئة تدريس مِن عِدَّة دول، وكُنتُ في المقابلات أتكلَّم عن "العُلا"، واصفًا إيَّاها بما فيها مِن طبيعة ساحرة، حتَّى وصل الأمر إلى أنْ مازحني زملائي بقولهم: «سالم جعل مِن "العُلا" جنة الله بالأرض»!!

كيف لا، وهي المدينة التي تمنَّى الملك «سلمان» حَفِظَه اللهُ أنْ يعيش بها قَبْلَ أكثر مِن ثلاثين سَنَة، لولا المهام التي يتبناها في أماكن أخرى مِن (المملكة).

وهذا الخبر نقلًا عن بعض أعيان "العُلا" الذين التقَوه في مخيمه في وادي المعتدل، ونقلًا كذلك عن أحد أصدقاء والدي وهو «ضيدان بن بداح القحطاني» رَحِمَه الله، رغم أنَّه ليس مِن أهل "العُلا"؛ فقد عاش بـ"العُلا" ما يُقارِبُ الأربعين عامًا، فكان يقول: «إنَّني تَنَقَّلْتُ في مناطق عِدَّة، ولم أَجِد مثل "العُلا"؛ فبهذه الديرة تلقى الجو الطيب، والحطب تَلقاه، والماء العذب، والتربة الخصبة، والنخلة الطيبة، والصيد، ومرية للحلال»، أيْ: أنَّ عُشْبَها ينفع الماشية بتنوعه.

أجَلْ إنَّها عُلا الحُب؛ حيث إنَّها تَضُمُّ على ثراها وادي القرى وجميل وبثينة، و«جميل بن عبد الله بن معمر العُذري القُضاعي» يرتبط مع الكاتب بقُضاعة، وهو من مواليد عام ٦٥٩م في فترة الدولة الأُمَويَّة، والذي كان يتغزَّلُ غَزَلًا عُذريًّا نابعًا مِن قِيَمٍ أخلاقية ورُوحية بَثَّها الإسلام في البادية العربية؛ فكان الغَزَلُ العُذريُّ يَتَّصِف بالعِفَّةِ والبراءة والطُّهْر.

ومِمَّا قال جميل:

لا والـذي تسجـدُ الجِبـاهُ لـهُ ... مـا لـي بـمـا دون ثـوبها خـبرُ
ولا بـفيـهـا، ولا هَمَمْـتُ بـه ... مـا كـان إلا الحـديثُ والنظـرُ

ومِمَّا قال:

ألا لـيتَ شـعـري هـل أبيتنَّ ليلـةً ... بـوادي القُـرى إنِّي إذنْ لَسَـعيدُ
علقـتُ الهـوى منها وليدًا فلـم يَزَل ... إلى الـيـوم ينـمي حُـبُّهـا ويزيدُ
إذا قُلْـتُ مـا بي يا بُثينـةُ قاتلـي ... مِـنَ الحُـبِّ قالـتْ: ثابـتٌ ويَزيدُ
وإن قُلْتُ رُدِّي بعضَ عقلي أَعِش به ... مـع الناس قالـت: ذاك مِنك بعيدُ
فـلا أنـا مـردودٌ بمـا جِئْتُ طالِـبًا ... ولا حُـبُّهـا فـيمـا يَبيـدُ يَبيـدُ
يمـوتُ الهـوى مِنِّي إذا مـا لقيتُهـا ... ويـحيـا إذا فـارقـتُهـا فـيعـودُ

وفي العصر الحالي وفي حفل افتتاح فرع الجامعة بـ"العُلا" شاركنا ابن "العلا" الأستاذ الفاضل «فهد سليمان البلوي»، والذي اخترتُ لكم بعض أبيات قصيدته (عروس وادي القرى) فقال:

عـروس وادي القـرى وافاك هطَّال ... وشَيَّعَتْــكِ مــن الأعــمــاق آمــالُ
لَأَنْــتِ دُرَّةُ حُسْـــنٍ لا مَـثيــلَ لــهــا ... طــاب المُقــامُ بهـا والنـاسُ والحالُ
جَمَعْــتِ بين فنــون الحُسْنِ قاطِبَةً ... فـحــاضِــرٌ مُــبهِــجٌ زاهٍ وأطــــلالُ
مَعــالِـمُ جَلَّ رَبُّ الكــون مُبدِعُــهــا ... عجــائِبُ مــا لــهــا في الأرض أمثـالُ
وحين أصبحتِ في أحضان مملكة التـوحـــيد حــالفــك التـــوفيق والفــالُ
سَـــلِ النُّقــوشَ التي بالمجـد ناطقةً ... تاريخــهــا بمـــداد الفخـــر قَـــوَّالُ

ومِمَّا قِيل - أيضًا - عن "العُلا" كذلك على سبيل المثال لا الحَصْر قصيدة ابن "العُلا" سعادة العميد «أنس سليمان المطلق»، فقال فيها:

هـــي درةٌ بين المـــدائـــن والقـــرى ... وطـــأ الـــنــبيُّ تــرابــها بأمـــانِ
فتـبـاركَـــت أرضُ العُــلا بِـنَبِـيّها ... صـــلَّى بــهـــا فــتــلألأت كجــمـــانِ
ولــعـــلَّ إبــراهــيــمَ عطَّـر جَـوَّهـا ... في رِحْلَــتَيــه بقُـــدْرَةِ الــرحــمـــنِ
ويكـــون صــالحُ قد أقــام بحِجْـرِها ... آيـــاتُ رَبِّـــك عِــبــرة ومــعــاني
هـــذي العُـــلا بالشـاهقات تَأَلَّقَت ... والــبــاسِــقــاتُ بحــلــوة وبــراني

المؤتمر الدولي الأوَّل للآثار والسياحة بـ"العُلا" (تحدِّيات وتطلُّعات)

انطلاقًا مِن مقومات "العُلا" المذكورة أعلاه، وكون الجامعات مِن المؤسسات التي تُعْنَى بالبحث العلمي والمؤتمرات، وكون المشرف على الفرع من أبناء "العُلا"، وعلى الرغم من أنَّ الظروف لم تكن مُهيَّأة؛ لكون الفرعِ وليدًا وفي فترة تأسيس - وما أدراك ما التأسيس - نستطيع القول: إنَّنا في السَّنَة الأولى لم نعرف العُطلة الأسبوعية أو أيَّ عُطلة، وفي أواخر السَّنَة الأولى بَدَأَتْ فكرةُ عمل مؤتمر يُبرِزُ "العُلا" بما فيها مِن مقومات..

وبعد تبلور الفكرة.. قرَّرْتُ ونَفَّذْتُ مباشرة.. مُتَخَطيًا التخطيط الإستراتيجي، ليس عن عدم معرفة أو عدم اهتمام، وإنَّما كان سِباقًا مع الزمن باتِّخاذ التخطيط المعكوس - إنْ صحَّ التعبير - مِن أجل تحقيق الهدف البعيد، ومِن ثَمَّ الخوض في التفاصيل.

حدَّدتُ أنا وزملائي المختصين أهدافَ ومحاورَ المؤتمر، ثمَّ عرضتُ ذلك على سعادة أخي وزميلي أستاذ الآثار الكبير أ.د. «سعيد بن فايز السعيد» عميد كلية الآثار بجامعة الملك «سعود» سابقًا؛ فلسعادته باعٌ طويل في آثار "العلا"، فقام بالتعديل والتأييد والنُّصح، فله مِنَّا كلُّ الشكر والثناء والتقدير.

رفعتُ طلبًا برغبة فرعِ الجامعة بـ"العُلا" بإقامة مؤتمر دولي للآثار والسياحة لمعالي مدير الجامعة، والذي رَفَعَه بدوره لمعالي وزير التعليم العالي، ومِن ثَمَّ للمَقام السامي بالديوان الملكي. ولكون المؤتمر مؤتمرًا ليس كأي مؤتمر عِلْمي، بل هو مؤتمر تاريخي له خصوصيتُه.. لذا أخذ إجراءات في عِدَّة جهات مسؤولة بالدولة، مِن أهمها وَزارة الداخلية

والخارجية والهيئة العامة للسياحة والآثار، فطَلَبَت الهيئة مِن الديوان التنسيق مع الجامعة، فتحَقَّقَت بحَمْد الله موافقةُ المقام السامي برقم ٥٥٦٢/ م ب، وبتاريخ ١٤٣٢/٨/١٧هـ لإقامة المؤتمر بالتنسيق مع الهيئة العامة للسياحة والآثار.

وأتذكَّرُ أنَّ سعادة الدكتور «حسين أبو الحسن» أحد مسئولي الهيئة العامة للسياحة والآثار ومِن أبناء العُلا البَرَرَة.. أنه اتَّصل عليَّ وأنا في "باريس" عائدًا مِن (أمريكا)، وبشَّرَني بموافقة المقام السامي.

وحينما وَصَلَتُ أرضَ الوطن بَدَأْتُ أُشَكِّلُ لجانَ المؤتمر مِن زملاء في جامعة طيبة، ومن رجال الهيئة العامة للسياحة والآثار، وهي اللجنة المنظمة برئاستي، والمُشَكَّلة مِن رؤساء جميع لجان المؤتمر، وكذلك اللجنة العلمية برئاستي أيضًا، وباقي اللجان كـ(العلاقات العامة، والإعلام، والتسويق والمالية، والمعارض، والأمن والسلامة).

ولتأخر الموافقة للأسباب المذكورة سالفًا.. ولأن الهدفَ الرئيس قد تحقق بالموافقة على عقد المؤتمر، ولإخراج العمل بالصورة المناسبة المرجوَّة.. طلبتُ مِن الديوان تأجيل موعد عقد المؤتمر سَنَة؛ لاستكمال واستدراك ما تمَّ تأجيله من الخطة الإستراتيجية بتفاصيلها؛ لتكون إقامة المؤتمر في الفترة من ١ إلى ٣ ربيع الثاني ١٤٣٤هـ الموافق ١١-١٣ فبراير٢٠١٣م.

وقد اخترتُ هذا الوقت بالذات لأسباب كثيرة، منها: الطقس الممتاز، ومنها: وجود بعثات فرنسية وألمانية في (المملكة)، سواء بـ"العُلا" أم "تيماء" أم "دومة الجندل".

وبدأ العملُ على قَدَم وساق؛ فأعلنَّا عن المؤتمر على صفحات إعلان المؤتمرات الدولية الإلكترونية، ووصل صدى المؤتمر لأكثر مِن ٢٤٠٠ مركز بحثي حول العالم، فضلًا عن جهات قُصِدَتْ بعينها.

وقد بَدَأَت اللجنة العِلْمية ولجانها الفرعية تستقبل مئات البحوث وتُراجِعُها وتُحَكِّمها، إلى أنِ اختُيرَ أربعون بحثًا مُحكَّمًا، وُزِّعَ على ثماني جلسات، بالإضافة إلى خمس محاضرات رئيسة، وسِتِّ ورش عمل، مع معرض مُصاحِب مُشارك فيه العديدُ مِن الهيئات العامَّة والخاصَّة والمجتمع المحلي.

كُلُّ ما ذُكِرَ أعلاه غطى أهداف ومحاور المؤتمر، وهي كالتالي:

<u>أهداف المؤتمر:</u>

١- تبادل الخبرات في مجال الآثاروالسياحة.

٢- إبرازالدور الحضاري للإنسان في محافظه "العُلا".

٣- استعراض سُبُل حماية التراث الثقافي والعمراني في محافظة "العُلا".

٤- بحث أوجه التوظيف الاقتصادي لموارد التراث الثقافي.

٥- عرض التجارب والتطبيقات العلمية للتنمية المستدامة في مجال الآثاروالسياحة.

٦- استعراض المقومات السياحية في محافظة "العُلا".

٧- تعزيز آفاق التعاون بين القطاعين العام والخاص في مجال السياحة والآثار.

<u>محاور المؤتمر:</u>

١- آثار "العلا" وتاريخها:

- آثارما قبل التاريخ.
- آثارما قبل الإسلام.
- الآثارالإسلامية.
- آثار "العلا" في أدب الرحلات.

٢- إدارة موارد التراث الثقافي:

- الحجر (مدائن صالح) موقع تراثي عالمي.
- إستراتيجية إدارة التراث.
- حماية التراث الثقافي والمحافظة عليه.
- الحِرَف والصناعات التقليدية.

٣- التراث العمراني:

- تأهيل وتوظيف مواقع ومباني التراث العمراني.
- التجارب الناجحة في استثمار مواقع التراث العمراني.
- ترميم وصيانة مباني التراث العمراني.

٤- التنمية السياحية:

- الأهمية الاقتصادية للمشروعات السياحية.
- المقومات الأساسية للسياحة.
- تطوير المنتجات السياحية.
- التسويق السياحي.

وما أنْ رُفِعَت معاملةُ الديوان الملكي بطلب الموافقة لعقد المؤتمر، ورغم مسؤولياتي في العديد مِن مجالات عمل الفرعِ الوليد.. غير أنَّ المؤتمر أصبح نُصْبَ عيني، سواء باستقطاب أعضاء هيئة التدريس أم سفري للمؤتمرات، بهدف المشاركة أو الحضور فقط، ولكنِ الْآنَ مع كلا الهدفين، فأنا منظم ورئيس مؤتمر دولي، فاطلعتُ على كُلِّ تفاصيل هذه المؤتمرات الدولية، وزُرْتُ عِدَّة مراكز تُعْنَى بالتراث والسياحة، وعلى رأسها متحف اللوفر؛ لأبحث عن صور "العُلا" وما قد يُثري المؤتمر المُرتَقَب.

وفي أثناء الاستعدادات لتنظيم المعرض المصاحب.. شاركتنا دارة الملك «عبد العزيز» وعلى رأسهم معالي الدكتور «فهد السماري» أمينُها العام لعرض صور "العُلا" التي التقطها السيد «جمتلر» البريطاني الجنسية عام ١٩٦٤م، فرَحَّبْنا بالسيد «جمتلر» وحَرَمه ضَيفينِ مُقَدَّرَين، كما شاركنا العديد مِن القطاعات العامَّة والخاصَّة.

واستمرَّ العملُ الدءوبُ في الترتيب والتجهيز، وتخطِّي جميع العقبات الكَؤود والآراء، ومحاولات تثبيط الهِمم وما إلى ذلك، وهناك في ذلك الكثير مِن المسكوت عنه، والذي سيظل مسكوتًا عنه.

وما بين عمل وآخَر.. تنساب الأيامُ يومًا تِلْوَ الآخَر، وكأنَّها قطرات مِن المياه التي تتساقط مِن بين أَكُفِّ المسؤول الأوَّل عن نجاح أو فشل المؤتمر.. وكلَّما مَرَّ يومٌ تَيَبَّسَ كفاي، وكادتا تحترقان في العشر الأواخر قُبيل عَقْد المؤتمر؛ نعم إنَّني أحترق لإنجاح المؤتمر على كافة الأصعدة؛ لتأخذ "العُلا" مكانتها الطبيعية في المجتمع المحلي والدولي على سواء.

في عَشْرِ المعاناة والاحتراق كان هناك خطٌّ ساخنٌ مع الديوان الملكي، ومع مَن يرعى المؤتمر، ومع الداخلية والخارجية، ومع الباحثين، ومع سفارات (المملكة) حَوْلَ العالَم، وكذلك تحضير التأشيرات والحجوزات وما إلى ذلك مِن أُمور فرعية لكنَّها كثيرة وتأخذ وقتًا وجهدًا يُثير العَجَب!

لقد أدركتُ - أيامَ العشر - ما معنى أنْ تَظَلَّ مُستيقِظًا لأيام، حتى وإن خلد جَسَدُك - بعضَ سويعات - إلى النوم.. فالعقلُ لا ينام، ولا يزال يُفَكِّر.. والقلبُ لا يتمنَّى، ولا يزال يأمُل.. مِن أجل الاستعداد الأمثل لهذا المؤتمر.

ورغم التوتر الذي انتاب بعض الزملاء، وانتابني كذلك مهما حاولتُ إخفاءَه.. إلا أنَّ رجاءنا في الله تعالى كان هو المَعين الذي نستلهِمُ منه الثبات والثقة والتحمُّل والإصرار على أنْ ننجح.

وها هي بوارق الأمل تلوحُ في الأفق حين أُخبِرنا أنَّ صاحِبَ السمو الملكي الأمير «فيصل بن سلمان» سوف يُشَرِّفُنا برفقة صاحب السمو الملكي الأمير «سلطان بن سلمان» لحضور المؤتمر؛ فما أنْ وَصَلَ الخبر- وقَبْلَ وُصول سموه لـ(المدينة) بعد حصول سموه على الثقة الملكية بتعيينه أميرًا لمنطقة (المدينة المنورة) على ساكنها أفضل الصلاةُ والسلام.. حَتَّى بدأت الأمور المعقدة تأخذ طريقها إلى الحل، وبدأت الإجراءات تُنهى مِن كُلٍّ مِن الديوان والداخلية والخارجية والسفارات مِن خارج (المملكة)، وكذلك الحجوزات، وزادت وتيرة العمل، واكتملت كافة التجهيزات في زمن قصير!!

وبَدَأَتْ لجنة الاستقبال والعلاقات العامة باستقبال الوفود قَبْلَ يومين من انعقاد المؤتمر؛ فجاءت الوفود المشاركة من عِدَّة دول حَوْلَ العالَم.

وقد وَصَلَ أمير (المدينة) إليها قَبْلَ يوم واحد فقط مِن يوم افتتاح المؤتمر، فتحرك في يوم الافتتاح وتحركت (المدينة) معه بكافة دوائرها، وعلى رأسهم إمامُ الحَرَم النبوي الشريف فضيلة الشيخ «الثبيتي»، ومعالي مدير الجامعة الإسلامية.

لم تكن العشرون دقيقة التي تَحَصَّلْتُ عليها من أَجْل النوم كافية ليلة المؤتمر حتى أشعر بقسط مِن الراحة التي سأحتاجها.. ولكنَّ الله سبحانه يمنح القوَّة لعباده على قَدْرسعيهم وجُهدهم ونِيَّاتهم.

يومَ الافتتاح.. كانت عروس الجبال في أفضل حُلَّتها.. وقد استقبلنا ضيوف المؤتمر وعلى رأسهم أصحاب السمو الملكي الأمير «سلطان» والأمير «فيصل»، ومرافقيهما مِن أصحاب السمو الملكي، وأصحاب

الفضيلة والمعالي، كما استقبلنا سعادة القنصل العام الفرنسي الدكتور «لويس بلين» وحَرَمه؛ وقد سبق أَنْ جاءتنا معاملة رسمية مِن وزارة الخارجية برغبته في زيارتنا زيارة مُجامَلَة، وقد نَسَّقْتُ مع سعادته بتأجيل موعد زيارته إلى موعد المؤتمر.





سعادة القنصل العام الفرنسي أثناء زيارته للفرع

كما استقبلنا السيد «جمتلر» البريطاني وحَرَمَه، والذي حضر للمشاركة بصُور "العُلا" في المعرض، وجميع المدعوين مِن رجالات الآثار في (المملكة)، وعلى رأسهم أبو الأثريين ومَن وَضَعَ حَجَرَ الأساس للأثريين سعادة الأستاذ الدكتور «عبد الرحمن الطيب الأنصاري»، وجميع مديري جامعات (المملكة العربية السعودية)، وأهالي "العلا" وأعيانها، والمجتمع المحلي بأطيافه.

لقد كان الحضور الجماهيري غفيرًا، بعدَ جَوْلَة على المعرض المُصاحِب، ثمَّ إلى مكان حفل الافتتاح.. وما أَنْ خطوتُ خطواتي نحو المِنَصَّة، وألقيتُ كَلِمَةَ الافتتاح المُسَجَّلَة على موقع (youtube)، والتي منها:

«مِن فَيء الحضارات، وإطلالة التاريخ، وشواهد العراقة والبناء.. مِن ممالكٍ سادت في الأرض، وبَقِيَتْ شواهِدُها سِجِلًّا يحكي ما مضى على هذه الأرض، التي احتضنت هذا المؤتمر.. مِن "العُلا".. ولكُلِّ حَرْفٍ منها دهشة وعَجَب.. مِن صرحِ "العُلا" العلمي فرعِ جامعة طيبة، أُحييكم أجمعين.. شعوري لا تَصِفُه العبارات»!!...

«أُبارِكُ لوطننا ومنطقتنا ومحافظتنا وجامعتنا تحقيقَ هذا الحُلْم الجميل، المتمثل في انعقاد هذا المؤتمر، الذي نُعِدُّه الدائرة الأولى لمنظومة عِلْمية ثقافية اجتماعية، ستكتمل بإذن الله على أيدي أجيال، تضع نهضة الوطن غايةً لا تنثني دونها.. إنَّ احتضان جامعة طيبة لهذا المؤتمر لهو أصدق الدَّلالات لإنجاح هذه الرؤية... وها نحن اليوم نرى المنظومة تكتمل على أيدي الشباب السعودي المُخلِص، بقيادة ولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير «محمد بن سلمان» حَفِظَه الله، صاحب رؤية (المملكة) ٢٠٣٠م، في ظل خادم الحرمين الشريفين الملك «سلمان بن عبدالعزيز» مَلِك الحزم والعزم والإنجاز».

لقد بدأ المؤتمرُ جلساتِه العِلْمية وورش العمل والمحاضرات خلال ثلاثة أيام عاشها الفرع بالضيوف وأعضاء هيئة التدريس والطلاب؛ إذْ إنَّنا أشركنا طلابنا في المؤتمر؛ ليعيشوا جَوَّ المؤتمرات العالَمية.. فما أجملها من أيام لا تَصِفُها الأقلام!!.. لقد تحققت لنا فيها الآمال والأحلام، وبخاصَّة للطلاب الَّذين سجلناهم، وتركنا لهم حُرِّيَّة إجراء المقابلات والتصوير وحضور بعض المحاضرات؛ فقد عاشوا العالمية في عُقر دارهم، وكانت تَجْرِبَةً ثريَّة لا تمحوها ذاكرةُ الأيام؛ فقد تَجَذَّرَتْ في نفوسهم كتجذُّر التاريخ في أرض "العُلا".

في اليوم الثاني رَتَّبْتُ مفاجأةً كبرى للجميع مِن المُنَظِّمين والزملاء والهيئة والضيوف والأمن، وهي عزيمة خاصَّة بطريقتي البدوية.. بيوت شِعروشبة ناروخَيل وإِبِل في مكان خيالي وساحر.. يا الله.. ما أجملَ هذا اليوم وهذا الغداء الذي تخلله الحداء والهجيني على الخَيل والإِبِل!!.. لقد ظهر التراث الشعبي البهيج في مكان يُسَمَّى "وادي المعتدل"، وكان يومًا بهيجًا للرجال والنساء، وبعد الغداء الشعبي السعودي كانت شهادة القنصل العام الفرنسي بالمؤتمر والتي نقلتها الدكتوره «رباب» من (تونس) في القسم الثالث من الكتاب.

بعد الغداء والترفيه قُمنا بجولة في "مدائن صالح"، وكانت إحدى عالِمات الآثار الدكتوره «ليلى نعمة» الفرنسية تشرح للوفود تفاصيل النحت في الجبال؛ فإنَّ لها باعًا طويلًا في آثار "العُلا" منذُ أحد عشر عامًا.

لقد ألقت هذه العالِمَة مُحاضرةً رئيسة قيمة بالمؤتمر افتتحَتْها بقولها: «إنَّني تغمُرُني السعادة.. ليس لأنَّني بـ"العُلا"، حيث إنِّي عِشْتُ مع آثارها حوالي ١١ عامًا.. إنَّما لأنِّي في أوَّل مؤتمر عِلْمي دولي، نتناقشُ فيه عن آثار "العُلا" وما توصَّلْنا إليه خلال ١١ عامًا»، كما أنَّها ألقت هذه المحاضرة أيضًا في "واشنطن" بـ(أمريكا).

وفي نهاية أعمال اليوم الثالث والأخير مِنْ أيام المؤتمر وهذه التظاهرة العِلْمية.. أَلقَيْتُ الكلمة الختامية وتوصيات الموتمر، ومن أهمها ما يأتي:

١- رفع برقية شُكْرلخادم الحَرَمَين الشريفين الملك «عبد الله» رَحِمَه الله على موافقته الكريمة على إقامة المؤتمر، واهتمامه بكُلِّ ما يَهُمُّ الثقافة والتعليم.

٢- شُكْر إلى صاحب السمو الملكي الأمير «سلمان بن عبد العزيز آل سعود»، ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع.

٣- شُكْر لصاحِبَي السمو الملكي الأمير «سلطان بن سلمان»، والأمير «فيصل بن سلمان» حَفِظَهما الله؛ لتشريفهما حضور حَفْلِ افتتاح المؤتمر والمعرض المصاحب.

٤- تشجيع الاستثمار السياحي في محافظة "العُلا".

٥- تضافر الجهود للمحافظة على المواقع الأثرية والمباني التراثية وتوثيقها، والحدُّ مِن الزَّحْف العُمراني والزراعي، ووضعها ضمن مسارات سياحية في "العُلا".

٦- إسهام الجامعات والمراكز البحثية المتخصصة في دعم البحث العِلْمي بمجال السياحة، ونشرها على المستوى المحلي والدولي.

٧- تفعيل الأنشطة الثقافية والمهرجانات لدعم "العُلا" واجهة سياحية ناشئة، وتكاملها مع الوجهات السياحية في محافظتي "تيماء" و"الوجه".

٨- الاستفادة مِن التقنيات الحديثة في الترويج السياحي والتعريف بالمواقع الأثرية والتراثية.

٩- دعم البنية التحتية؛ لكي تصبح بيئة مناسبة لتحقيق التنمية السياحية في المحافظة.

١٠- المحافظة على التراث غير المادي وتوثيقه لحمايته مِن الاندثار، والاستفادة منه مُنتَجًا سياحيًّا.

١١- إنشاء مركز الحِرَف والصناعات اليدوية في محافظة "العُلا"، ووضع الآليات التي تُسهِم في الاستفادة مِن الحِرَف الموجودة في المنطقة، وتطويرها لخِدْمة المجتمع المحلي.

١٢- نَشْر الوعي بين المواطنين بأهمية الآثار والسياحة، وقيمتها الحضارية والاقتصادية والثقافية.

١٣- تشجيع إيجاد منتجات سياحية بيئية وزراعية، وإدخال ثقافة السياحة البيئية في المناهج اللاصفية في التعليم العام والجامعي.

١٤- تضافُر الجهود لإنشاء مُنتزهات وحدائق بيئة في محافظة "العُلا".

١٥- تضافُر الجهود المعنية لتأهيل المواقع الأثرية والسياحية في محافظة "العُلا" وتوفير الخِدْمات اللازمة.

١٦- دعم تفعيل خُطَّة التنمية السياحية في محافظة "العُلا"، ومعالجة المعوقات التي تَحُولُ دون تنفيذها.

١٧- تشجيع الاستثمار في مجال السياحة في محافظة "العُلا"، وجَلْب رؤوس الأموال.

١٨- مُساهمة المجتمع المحلي في العناية بنوادر التراث الثقافي بمحافظة "العُلا"، وتنمية الاستثمار، وبخاصَّة بلدة "العلا" التراثية.

١٩- تشجيع إعادة القِطَع الأثرية للجهات المعنية للمُساهمة في الحفاظ على التراث الوطني.

٢٠- التوسُّع في أعمال التنقيب في المواقع الأثرية في محافظة "العُلا" وبخاصَّة المشاريع التي يجري تنفيذها في موقعي "الخريبة" و"مدائن صالح".

٢١- إنشاء كلية تغذية وزراعة في فرع جامعة طيبة في محافظة "العُلا".

٢٢- مساهمة جامعة طيبة في مشاريع تسجيل وتوثيق التراث الثقافي في محافظة "العُلا".

٢٣- التركيز على تأهيل الكوادر البشرية العاملة في مجال السياحة والآثار مِن خلال برامج تدريبية متخصصة في الجامعات والمراكز البحثية.



ومن فضل الله تعالى أنَّه كان في المؤتمر علماء مِن مختلف أرجاء العالَم مِن (أمريكا) و(بريطانيا) و(ألمانيا) و(فرنسا).. فضلًا عن علماء الدول العربية، وصَدَرَ عن المؤتمر كتابٌ مُكَوَّن مِن ثلاثمائة صفحة، ورُقِّي العديد مِن الأعضاء مِن خلال هذا المؤتمر.

وبعد خَوْضِ غِمار تَجرِبَة هذا المؤتمر.. أَيقَنْتُ حقيقةَ أنَّ الرِّجال تَصنعُ المستحيل، بعد توفيق الله عزَّوجلَّ، كما شَهِدَ للمؤتمر بذلك أبو

الأثريين وواضع حَجَر الأساس للآثار بـ(المملكة العربية السعودية) سعادة الدكتور «عبد الرحمن الأنصاري» أثناء حضوره فعاليات المؤتمر؛ فقال ما نَصُّه: «هكذا تفعل الرِّجال»، وكانت شَهادة نعتزُّ بها، ونَضَعُها وِسامًا على صدورنا، أنا ومَن شاركني مِن زملاء أجِلَّاء.

ورغم كُلِّ شيء.. لا أُخفي سعادتي بتحقيق ما تحققَّ؛ فهو بمثابة العقد الفريد الذي زَيَّن عُنق مدينتي، مدينة التاريخ والجبال والجمال.. والرِّجال!!

حِكْمةُ أمير!!

بعد أنْ نال الفرع - والحَمْدُ لله - سُمعةً طيبةً بين الأوساط العِلْمِيَّة.. شَرَّفَنا بالقُدُوم صاحِبُ السُّمُو الملكي الأمير «سُلطان بن سلمان» حَفِظَه الله، وكانت الزيارة بعد طلب منِّي؛ لكَوني مُشرفًا على فرعِ جامعة طيبة بـ"العُلا"..

وفي أثناء الزيارة قُمْتُ بتعزيته في وفاة عَمِّه صاحِب السُّمُو الملكي الأمير «سلطان» فقيد الإنسانية الذي نَفَعَ اللهُ به الكثيرين، وذَكَرْتُ له أنَّه نَفَعَني شخصيًّا، فسألني سُمُوُّ الأمير عن ذلك النَّفْع، فأَخْبَرْتُه أنَّني طَلَبْتُ ترقيةً لـ(الدكتوراه) أثناء دراستي لـ(الماجستير) في (أميركا) ولم يتحققَّ لي ذلك، وطلبتُ إجازة بدون مُرَتَّب مِن أَجْلِ إكمال (الدكتوراه)، فتقدَّمْتُ بطلب سداد ما عليَّ مِن رُسُوم تسجيل وأعباء مالية، فقام سموهُ رَحِمَه اللهُ بِدَفْعِها، فعَلَّق سُمُوُّ الأمير على ذلك بحِكْمَة الأُمَراء تعليقًا لن أنساه.. وكان له أَثَرُه في نَفْسي فيما بعد.. «هو ما نَفَعَك.. بل نَفَعَ الوطن بك»!!

لقد ظَلَّت هذه الحِكْمةُ عالِقَةً وحاضِرَةً بذِهْني، وكأَنِّي قد حُمِّلتُ مسؤولية كبرى تِجاه وطني.. مسؤوليةٌ أَحسَسْتُ بها عندما دعاني سعادَةُ الأستاذ الدكتور «عبدالحق عزوزي».. رئيس المركز المغربي للدراسات الإستراتيجية والدولية.. لِأَجْل حُضور منتدى "فاس" الدولي في (المغرب) !!

لقد عَزَّزَتْ تلك الحِكْمةُ صُورَةَ العَرَب في ذِهني.. في عُمقِهم التاريخي والثقافي والفِكْري.. وجَعَلَتْني أَشْعُرُ أنِّي سفيرٌ لوطني في هذا المؤتمر، الذي شارك فيه كذلك سعادة الأستاذ الدكتور «عبدالله الخطيب» مِن جامعة الملك «عبدالعزيز»، وسعادة الملحق الثقافي السُّعودي في (فرنسا) آنَذاك الأستاذ الدكتور «إبراهيم البلوي»، بالإضافة إلى العديد مِن الشخصيات الأُخرى المُؤَثِّرَة.

وكان على هامش المنتدى افتتاح الجامعة الأورومتوسطية، وهي جامعة مشتركة بين دولة (المغرب) والاتحاد الأوروبي، وقد أُنْشِئَت هذه الجامعة للمتميزين مِن الطلبة.

وكان موضوع المنتدى يدور حَوْلَ دَوْر التربية والتعليم في تنمية المجتمع وحوار الحضارات، وقد شارك فيه صَفْوَةٌ مِن المُخْتَصِّين في الفِكْر والأدب والدِّين ورِجالات السياسة، وممثلو المجتمع المدني مِن القارات الخَمْس التي ضَمَّت أكثر من ٨٠ دَولَة حَوْلَ العالَم، وللحديث بقية عن هذا المنتدى تحت عنوان نصف وطني الآخر.

نِصْفُ وطني الآخَر!!

لقد كانت مُشاركتي في منتدى "فاس" الدولي مِنَ اليوم السابع إلى العاشر مِن شهر ديسمبر عام ٢٠١٢م، وكانت مع مجموعة قوية من العلماء الأفذاذ، عَدَدُهُم عشرة أعضاء.. يُديرُ الجلسة معالي مدير جامعة الأخوين، وضِمْنَ أعضاء الجلسة وزير الصناعة المصري، ومدير عام التعليم (الإلكتروني) الفرنسي، بالإضافة إلى عالِمَة ماليزية تَحمِلُ خَمْسَ براءات اختِراع، وكذلك كان حاضِرًا مدير جامعة الإمارات الدكتور «النعيمي»، وأيضًا وزير التعليم العالي الجزائري الأسبق، وعالِم فرنسي، وعالِم وعالِمة جاءا مِنْ (إسبانيا).



وكانت مشاركتي عن «الاقتصاد المعرفي والنهضة التعليمية التي مَرَّت بها (المملكة العربية السعودية)»، وفي مَعرِض الإجابة عن الأسئلة.. صَوَّبَتْ نحوي امراةٌ أمريكيةٌ - مِنْ أَصْلٍ إيرانيّ - سُؤالًا تُنكِرُ أَحرُفُه حالَ المرأةِ السُّعودية قائِلَةً: «كيف يتحدث البلوي عن النهضة والابتعاثات.. وهم مُعطِّلُون للمرأة (نِصف المجتمع)»؟!

في هذه اللحظة تحديدًا شَعُرْتُ شُعورًا بالغيرة على وطني، وعلى نِصْفِه المُتَمَثِّل في المرأة السُّعودية، وتَذَكَّرْتُ حِكْمةَ الأمير «سُلطان».. فإذا بهذه الكلماتُ تَخرُجُ مِنْ فمي دُون تحضير:

«أشكُرُ الأستاذة على سؤالها هذا بهذا المَحفَل الكبير.. ولكن للأسف هذه صورة نمطية مغلوطة عن حال المرأة عندنا بـ(السُّعودية).. فكيف تظهر هذه الصورة وقد ذَكَرْتُ قبلَ قليل أَنَّ عدد الطلاب المُبتَعَثين ٤٦ ألف طالب وطالبة.. مِنهم ٤٤% من الإناث؟!.. كما أنَّني أُديرُ فرع جامعة فيها ما يُقارِبُ الـ٧ آلاف طالب وطالبة لهم حقوق متساوية؛ فما يُتاحُ للطالِب يُتاحُ للطالبة.. بل كيف يَتِمُّ الترويج لهذه الصورة المغلوطة في ظِلِّ وُجود عالِمات سُعوديات في تخصصات مُتَعَدِّدة لديكم في (أميركا).. مثل «غادة المطيري» و«حياة سندي» التي سَمِعْتُ أنَّها مِن أصغر خمسَ عشرةَ عالِمة بالعالَم، وغيرهما الكثير؟!..

نحن نَحرِصُ - سيدتي الكريمة - على الحُسنيين.. إتاحة كُلِّ الفُرَص للمرأة، مع المحافظة عليها، وعلى عاداتنا وتقاليدنا.. كما أَنَّ الملك «عبدالله» رَحِمَه الله قد أدخل النساء في مجلس الشورى الذي يتخذ قرارت على مستوى الدولة.

إنَّ سياسة (المملكة العربية السعودية) تستمدُّ مَعينَها وقُوَّتَها مِن الدِّين الإسلامي.. والدِّين لا يُعَطِّلُ المرأة أو يُقَلِّلُ مِن شأنها.. بل يصونها، ويُعطيها الفرصةَ لبناء مجتمع صالح ليحيا حياةً ترقى بالقِيَم الإنسانية.. وفي الوقت ذاته يُعطي المرأة الحقوق والرعاية والإكرام والتفضيل.....».

مُحارَبَةُ النَّجاح!!

تُوجَد شَوَائِبُ تردَّدْتُ - كثيرًا - في ذِكْرها.. لكنَّها تَحدُث بين الناس والمؤسسات في كُلِّ زمان ومكان!!

فعند انتهاء فترة معالي الدكتور «منصور النزهة» وتكليف معالي الدكتور «المزروع» بإدارة جامعة طيبة بـ"المدينة المنورة".. ومِن قَبْلهما الرَّجُل القائد الفذ سعادة الدكتور «إبراهيم المحيسن»، الذي كان له الأثر الكبير في بناء الفروع، وكان سندًا لنا.. في كُلِّ تلك المراحل ظهرت شوكة مجموعة ممَّن يحاربون النجاح بشتى السُّبُل: فأعطوا معالي المدير الجديد صورة سيئة وتقارير سيئة عنِّي بوصفي مشرفَ فرع جامعة طيبة بـ"العُلا"، كما تبيَّن فيما بعدُ!!

ففي أثناء زيارته الأولى للفرع.. كان معه بعضُ الزبانية الذين كانوا يُبدون لزملائنا بالفرع أنَّ الدكتور «سالم» سوف يُعْفَى مِنْ منصبه!!

وبحُكْم أنَّه لم يعرف الفرع وإنجازاته.. كان يُريدُ أنْ تَمُرَّ الزيارة على عَجَل: فعند وصول معالي المدير إلى قِسم البنين ولمكتبي يُرافقه سعادة الوكيل آنذاك، ومعالي رئيس الجامعة الحالي الدكتور «عبد العزيز السراني».. لَمَستُ أنَّهم يرغبون في الانتقال سريعًا إلى قِسم النساء، فبادَرْتُ وتكلَّمْتُ مع معاليه قائلًا: «هذه أوَّلُ زيارة لمعاليكم لنا، فأعطونا الفرصة كي تسمعوا ما لدينا مِن إنجازات واحتياجات وخُطط تشغيلية»، وكُنْتُ قد جَهَّزتُ عَرضًا تقديميًّا لإنتاجنا العِلْمي، فدَعَوتُه إلى غُرفة الاجتماع، حيث أضع على طاولة الاجتماعات مائة وعشرين عملًا ما بين كِتاب وبَحث مُحَكَّم داخليًّا وخارجيًّا في شتى مجالات العلوم.

بدأتُ في عرض منتجاتنا واحتياجاتنا وحالتنا الحالية وخُطَّتنا المستقبلية.. فانبهر الرَّجُل انبهارًا كبيرًا.. ثمَّ انتقلنا إلى شطر النساء فذُهِل مِمَّا سَمِعَ وشاهَد!!

بَعْدَ ذلك.. انتقلنا لمبنى البنين في المسرح؛ للاجتماع مع أعضاء هيئة التدريس، وعندما حاولتُ الخروجَ ليصير النقاش حُرًّا.. فإذا به يُمسِك بيدي، ويقول لي: «لا تخرج»؟!

وحاول الزبانية إثناءنا عن تقديم واجِب الضيافة؛ فزعموا أنَّ معاليه لا يأكل مِن الولائم، فأخبرتُهم أنَّ تقديمَ واجِبِ الضيافة هو بمثابة التقدير حتى وإن لم يأكل الضيف، وعندما دعوتُ معاليه استجاب بترحاب!!

بَعْدَ الغداء خرجنا وهو مُمسكٌ بيدي، وقال: «والله يا دكتور مكتوبٌ فيك شيء ما يكتبه مسلم بمسلم»!!

لقد كان إبلاغه لي بتلك المعلومة بمثابة عدم تصديق لها، ولا لكاتبها وواضعها، وقد انقلبَ السِّحرُ على الساحر؛ فبعد الزيارة وَجَدْتُ معاليه يُوصي الوكيل بإضافة الدكتور «سالم» إلى لجان استقطاب أعضاء هيئة التدريس بالجامعة!!

سبحانَ الله!.. لقد انعكس الأمرُ تمامًا، بالرغم مِن أنَّهم لم يتركوا السلوكَ السيِّءَ في محاربة النجاح؛ فوضعوا العَراقيل الواحدة تلو الأخرى، وكأنَّهم يُصِرُّون على تعطيل أي حِراكٍ يدفع عَجَلَةَ التنمية في المؤسسات العِلْمية إلى الأمام!!

بعد ذلك جاءتني دعوة مِن جامعة السوربون بـ"باريس" كأستاذ زائر، وكانت في اللغة الفرنسية، فإذا بأعداء النجاح لا يُريدون لهذه الدعوة أنْ تتمَّ!!

بَعْدَ جِدال طويل حَوْلَ إجراءات روتينية لا يَعرِفُ القائمون عليها كيفيةَ التصرُّفَ نَحْوَها؛ لكون ذلك الأَمْر نادر الحدوث، وبخاصَّةٍ عندما تجيءُ الدعوة مِن جامعة عريقة تُعَدُّ أوَّلَ جامعة مَنَحَت الدكتوراه

بالعالَم.. بعد هذا الجِدال اضطُرِرْتُ إلي إرسال خطاب لجامعة الملك «عبدالعزيز» لترجمته، وكذلك أرسلتُ لجامعة الملك «سعود» من أَجْل معرفة كُلِّ الإجراءات النظامية في ذلك..

تُرجِمَ الخطابُ، وأُرْسِل خطابٌ مِن جامعة الملك «سعود» عن حالة مُماثلة استُخدِمت فيها المادة (٧٧) التي فيها مميزات ممتازة.

وعلى الرغم مِن اتضاح الأَمْر لهم.. غَيرَ أنَّ الجامعة رَفَضَت بحُجَج غير منطقية، فحاولتُ أنْ أُقابِلَ الوزير أثناء زيارة المؤتمر الدولي للجامعات بـ"الرياض"، ولكنَّ أحد الزملاء له عَلاقة مع الوزير قد أَخَذَ الأوراق ليُقَدِّمَها للوزير لكي أحصل على الموافقة، ولكنَّ زميلنا لم يُسَلِّم المعاملة للوزير، بل سلَّمها لمكتب الوزير، فكان التوجيه عاديًّا حَسْبَ النظام، وهنا فَرِحَ الزبانية!!

ومِن الغريب أنْ ترفض الجامعة في الوقت الذي عليها فيه أنْ تفخر أنَّ أحد أعضاء هئية تدريسها يُطلَب في جامعة فرنسية عريقة أستاذًا زائرًا!

وصلني خطاب شديد اللهجة يُفيدُ بعدم الموافقة، غير أنِّي أَبَيتُ مِثْلَ هذا الظلم؛ فقررتُ مقابلة معالي وزير التعليم العالي شخصيًّا.

ما لها مَنْ يعوقها!!

اتَّجَهْتُ إلى وَزارة التعليم العالي بـ"الرياض" وقابَلْتُ معالي الدكتور «أحمد السيف» نائب الوزير، فتكلَّمْتُ معه عن الموضوع، وبخاصَّةٍ أنَّه سَبَقَ أنْ زارنا بـ"العُلا" زيارَةَ عَمَل لوضع حَجَر الأساس لمشروع مباني الطالبات بالفرع.

وفي أثناء الحديث أَبديتُ له رغبتي المُلِحَّة في مُقابلة معالي الوزير؛ فهَّيأ لي ذلك، وقابلتُ بالفعل معالي الوزير الدكتور «خالد العنقري» وعَرَّفتُه بنَفْسي فوَجَدْتُه يَعرِفُني مِن خلال عَمَلي، فقُلْتُ: «شهادةُ العمل خَيرٌ مِن شَهادة الرِّجال.. ولكنْ أنا خَدَمْتُ سابقًا بوَزارة التربية والتعليم، وهذا خطاب مِن رأس الهَرَم فيها معالي الوزير آنذاك الدكتور «محمد الرشيد» رَحِمَه الله، وسلَّمتُه التوصية على أساس أنَّ لديه خلفية عن عَمَلي السابق؛ فقرأها بِتَمَعُّن شديد لفتَ انتباهي.

بعد ذلك أوضحتُ لمعاليه طلبي وأهميته لـ(المملكة)، وكذلك للوَزارة والجامعة، فضلًا عن الفائدة الخاصَّة، وذَكَرْتُ أنَّ كُلَّ زملائي لم يُقصِّرُوا، ولكنَّها حالة نادرة، بل هي الأولى مِن نوعها بالجامعة، لذلك يحتاجون توجيه معاليكم، فصَمَتَ، ولم يُبدِ أيَّ شعور.

حاولتُ أنْ أَعرِفَ ما بداخله، وأَخُضَّ الماء الراكِد.. فقُلْتُ له: «معالي الوزير.. أنا يكفيني شَرَفًا أنِّي سَلَّمْتُ على معاليكم، ولو ما حصل شيء...»، لم أُكمِل جُملَتي حتَّى قاطعني قائلًا: «لا لا يا دكتور»، فإذا بي أقول: «أَجَلْ.. خَلِّها.. عطية عُنقري ما لها مَنْ يعوقها»، وهذا مَثَلٌ قديم استخدمتُه في مكانه، فضَحِك!!

استأذنتُ معاليه في الخروج، وكُلِّي ثِقَةٌ في الله، ثم في الموافقة على الإيفاد، فتحقَّقَتِ الموافقةُ، والحَمْدُ لله.

حَجَرُ الأساس!!

بعدَ أنْ تَرَكْتُ الفرع بِعِدَّة أشهر، وأثناء تجهيزي لإيفادي إلى (فرنسا).. اجتَمَعَ معالي مُدير الجامعة الدكتور «عدنان المزروع» مع لجنة مِن الجامعة مِن أَجْلِ الإعداد لحَفْلِ وَضْعِ حَجَر الأساس لمجمع كليات البنات تحت رعاية صاحب السُّمُو الملكي أمير "المدينة" «فيصل بن سلمان»، ومعالي نائب وزير التعليم العالي الدكتور «أحمد السيف».

وقد طلبني معاليه للاجتماع معهم، وأَسنَدَ لي شَرَفَ إلقاء الكَلِمَة عِنْدَ إقامة الحَفْل، بوصفي المُشْرِفَ على الفَرْع سابِقًا، ومَن بَذَل قَصارى الجُهد والعمل الدؤوب في التأسيس، حتى وصل الفرع إلى ما وَصَلَ إليه.

وقد جاءت كَلِمَتي بالحَفْل على النَّحْو التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله الذي تَتِمُّ بنِعْمَتِه الصالحات.. والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدِنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد..

صاحِبَ السُّمُو الملكي/ الأمير «فيصل بن سلمان بن عبد العزيز».. أمير منطقة "المدينة المنورة".. حَفِظَه الله..

معالي نائب وزير التعليم العالي/ الأستاذ الدكتور «أحمد بن محمد السيف»..

معالي مدير جامعة طيبة الدكتور «عدنان المزروع»..

أصحابَ الفضيلة أصحابَ السعادة زملائِيَ أعضاء هيئة التدريس.. أبنائِيَ الطلاب.. أيُّها الحفل الكريم..

السلامُ عليكم ورَحْمَةُ الله وبركاته..

ما أَسرَعَ ما تنقضي الأيَّامُ، وفيها قَبَسٌ مِن عَمَلٍ، ونَفَسٌ مِن أَمَل، عَمَلٌ يتحسَّس ملامِحَ الإنجاز.. وأَمَلٌ يَتَلَمَّس مَفاتِحَ الإعجاز، وبين هذا وذاك تفاؤُلٌ يُزَكِّيها.. وقصة نحكيها!!

يَسُرُّني - في هذا المقام - أنْ نتحدث عن مشهد مِن مشاهد النهضة التعليمية، التي تزدانُ بها بلادُنا الغالية؛ تحقيقًا لرؤية قائِدِها خادِمِ الحَرَمَين الشريفَين.. وولي عَهدِها الأمين حَفِظَهُما الله، والتي تُنَفِّذُها حُكومَتُنا الرَّشِيدَة حَفِظها الله.

ومن باب «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ».. لقد تأسَّس هذا الفرع عام ١٤٣٠هـ بكلية علوم وآداب، وكادِر من سَبْعَة أعضاء هيئة تدريس وثلاثة موظفين.. ودارت عَجَلَةُ العَمَل الدَّؤُوب.. فتَمَّ الشُّروع في ضَمِّ المعهد الصحي للبنات، وكلية التربية للبنات، وإعادة هيكلتهما، وفتح باب القَبول بقِسم الطلاب، واستِقطاب أعضاء هيئة تدريس مِن ذَوِي الكفاءة، ومن كافة التخصصات مِن الداخل والخارج.

لقد كانت طاقةُ الفرع الاستيعابية لا تتجاوز ألف طالب وطالبة.. وها هي الآنَ قد تجاوزت اليوم سبعة آلاف طالب وطالبة، وأكثر مِن مائتي عضو هيئة تدريس.

كانت المَهَمَّة هي تحقيق رسالة الجامعة أكاديميًّا واجتماعيًّا وبحثيًّا، وبعدَ أنِ استقام الفرع واشتدَّ عُودُه.. ثُمَّ استغلظ واستوى على سُوقه.. أَيْنَعَتْ ثِمارُ هذه الجهود، وقَطَفْنا العامَ المُنصَرِم الثَّمَرَةَ الأولى بتخريج الدُّفْعة الأولى مِن كلية الآداب مُنتَظمين ومُنتَسبين، بينهم مَن تجاوز السبعين مِن عُمره كأكبر طالب جامعي!

وكان للمجتمع نصيبٌ في هذا العطاء العِلْمي.. فقد أقام الفرع العديد مِن الدورات والمحاضرات والبرامج المتخصصة في اللغة الإنجليزية، والحاسب الآلي، والإدارة، والتطبيقات الوظيفية، واستفاد منها كثيرٌ مِن منسوبي الإدارات الحكومية وأفراد المجتمع.

هذا فيما يتعلَّق بمَهَمَّة التعليم وخِدْمَة المجتمع.. وأمَّا ما يتعلَّق بالبَحْث العِلْمي فقد أَسْفَرَ الحِراك العِلْمي البَحْثي عن أكثر مِن مائة وعشرين عَمَلًا بحثيًّا مُحكَّمًا، فيما يَخدِمُ التعليم والمجتمع والبيئة والصِّحَّة، وتَمَّ مَدُّ جُسُور عِلْميَّة وثقافيَّة مع شتى الجامعات والمراكز العالمية.

صاحِبَ السُّمُو..

إنَّ مِن الإنجازات التي نَفخَرُ بها - كفرع حديث تأسيس - إقامَةُ المؤتمر الدولي الأوَّل للآثار والسياحة، بالتعاون مع الهيئة العُليا للسياحة والآثار، وبهندسة رائِدُها المُبدِع صاحب السُّمُو الملكي الأمير «سلطان بن سلمان» حَفِظَه الله، وتشريف سُمُوِّكم الكريم.

كما قام فريقُ عَمَلٍ مِن الفرع بالمشاركة في إعداد أَوَّل تقرير وطني لحالة البيئة بـ(المملكة العربية السعودية)، بالتعاون مع مركز البيئة والتنمية للإقليم العربي وأوروبا (سيداري)، وتَمَّ تسجيل اكتشاف غَير مَسبوق في قِسْم الأحياء، ونُفِّذَت العديد مِن المشاريع المدعومة مِن الوَزارة والجامعة.

صاحِبَ السُّمُو.. أيُّها الحَفْلُ الكريم..

إنَّ مِنْ أعظمِ الهِبات التي نَحمَدُ اللهَ عليها حُصولَ الفرع على أرض تبلُغُ مَساحَتُها ٩ مليون متر مربع، وقد تَمَّ عَمَل دراسة لإنشاء مدينة جامعية مُتكامِلَة على أُسس ومعايير بناء المُدُن الجامعية، فيما يُسَمَّى (ماستر بلان)، ولخمسين سَنَة قادِمَة، وبِطاقة استيعابية (عشرون ألف طالب وطالبة).

واعتُمِدَتْ هذه الدراسةُ مِنْ قِبَلِ اللجان المُخْتَصَّة ومجلس الجامعة، وتَمَّت تَرسِيَتُها على مكتب استشاري مُتَخَصِّص، وتَمَّ تَسَلُّمُ المرحلة الأولى مِنَ العَمَل.

وها نحنُ اليومَ نحتَفِلُ بِوَضْعِ حَجَرِ الأساس بمجمع كليات الطالبات على جزء مِن هذه الأرض، وبعد هذا كُلِّه، وبين يدي هذه الفَرحة.. فإِنَّ الشُّكْرَ والحَمْدَ للهِ على ما تحقَّقَ إنجازُه مِنْ أعمال تُوِّجَت بهذه اللحظة.

ثُمَّ الشُّكْر لِحُكُومتنا الرشيدة، وعلى رأسها خادِمِ الحَرَمَين الشريفين، وولي عَهْدِه الأمين، والنائب الثاني، والشُّكْرُ والتقديرُ موصُولٌ لكم سُمُو الأمير على اهتمامكم الذي سَرَّعَ وتيرةَ العمل وعلى متابعتكم الشخصية الحثيثة لهذا المشروع، وكُلُّنا أَمَل - بَعْدَ الله - في سُمُوِّكُم أَنْ يكون هذا المشروع نَواةً لجامعة مُسْتَقِلَّة؛ لِتَنْضَمَّ إلى بقية الصُّرُوح العملية في بلادنا الغالية.

والشُّكْرُ مُجَلَّلٌ بالتقدير لِزُملائي أعضاء هيئة التدريس.. والإداريين والإداريات الذين صبروا واجتهدوا وتفانَوا وأتقنوا، وكان لي شَرَفُ العَمَلِ معهم.

وإنِّي أدعو اللهَ أَنْ يُوَفِّقَهم - مِنْ بَعْدي - لِحَمْل الأمانة، وهُم على قَدْر المسؤولية إنْ شاء الله، وأَنْ يستكمِلُوا مسيرةَ الإنجازات.

وشُكرًا للمجتمع الذي أرانا رُوحَ المواطنة، سواء في إداراته الحكومية أو أفراده المُخْلِصِين.

وخِتامًا.. أسألُ اللهَ أَنْ يَرزُقَنا الإخلاصَ والإتقانَ؛ للمُساهَمَة في نهضة وطننا العظيم؛ فإنَّنا نَظَلُّ جُنودًا مُخلِصِين أينما كُنَّا، ومتى كُلِّفْنا، وآخِرُ دعوانا.. أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِين.

إلى بلاد الغال!!

كانت بلادُ الغال تَضُمُّ عِدَّةَ مناطق: (فرنسا) و(بلجيكا) وجُزءًا مِن (ألمانيا) يقع غربَ نهر الراين.. ثمَّ تَحَوَّلَت بلادُ الغال إلى اسم الإفرنكيين (فرنسا) الحديثة حيثُ الثورة الفرنسية والإمبراطور «بونابرت» والثقافة والسياحة والعِلْم.. و"باريس"!

وفي جامعة السوربون التي تَخَرَّج فيها كثيرٌ مِنَ المشاهير، منهم الحُكَّام والأُدَباء والفلاسفة، الذينَ كانَ لهم أَثَرٌ كبيرٌ في نهضة بُلدانهم.. التَقَيْتُ بالعديد مِنَ العلماء مِنْ شتى أنحاء العالَم ومِنْ (فرنسا)، والتَقَيْتُ بكِبار المسؤولين، وحَضَرْنا العديد مِنَ المؤتمرات والمعارِض.



لقد كانت سَنَةً حافِلَةً بالفعاليات التي أَسهَمَت - إسهامًا كبيرًا جدًّا - في تطوير حصيلتي العِلْمية والمعرفية، وبخاصَّة بعدَ أنْ زُرْتُ جامعاتٍ عِدَّة، وجمعياتٍ لها باعٌ في النواحي التِّقَنِيَّة والعِلْمية.

وفي ظل هذه الفترة لم أحرمْ نَفْسِي مِن الترفيه والتجوُّل في عِدَّة أماكن، وبخاصَّةٍ في "باريس" التي تَمَيَّزت بوجود بِنية تحتية عجيبة، وبها مبانٍ تَصِل إلى سبعة أدوار تحت الأرض، وهناك تَقَدُّم هائِل في السِّكَك الحديد والمترو والتِّرام والقطارات، التي كانت وسيلةَ انتقالي المُفَضَّلة.

ولا أنسى تلك الأيام الرائعة التي ارتدْتُ فيها أريافَ (فرنسا) المعروفة بجمال مناظرها في رِحلة جَمُلَتْ بوجود الأخ العزيز الدكتور «إبراهيم البلوي» الملحق الثقافي في "باريس".

واستمرَّت رحلتي إلى (فرنسا) مُدَّة سَنَة، وهي مدرسة تختلف تمامًا عن المدرسة الأمريكية؛ فهي تضمُّ عَبَقَ التاريخ، وبها "باريس" مدينة الأنوار والثقافة.

لقد مارستُ هوايتي في الاستكشاف، بزيارة عدد مِن المُدُن الفرنسية، وذَهَبْتُ للبلدان المجاورة كـ(بلجيكا)، (إسبانيا)، (إيطاليا)، (سويسرا)، و(ألمانيا).

وبإحدى الليالي الباريسيَّة اتَّصلَ بي أَحَدُ الأقارب، وأثناء الحديث معه أخبرني أنَّ له جارًا يسأل عنِّي كثيرًا، ويقول: إنَّهُ زميلي في كلية الملك «عبد العزيز» الحربية، فطلبتُ منه أنْ يُكلِّمني عن طريق مكالمة الفيديو فإذا به العقيد «عبد الله مفرح العنزي»، فسُرِرَتُ كثيرًا لرؤيته، وأحسسْتُ أنِّي قَطَعْتُ مِنَ العُمر الكثير؛ فقد أرجعني إلى ما قَبْل الثالثة والثلاثين وإلى ذكريات الشباب..

وفي أثناء الحديث ذَكَرَ لي أنَّ أصدقاء الدُّفْعَة (٤٦) يسألون عنِّي وأنَّهم يجتمعون سنويًّا، واجتماعهم بـ"الرياض" بعد شهرين، وأنَّهم سيُرسِلُون لي دعوةً للحضور...

في الحقيقة فَرِحْتُ كثيرًا بهذا الاتِّصال، وتَعَجَّبتُ أنِّي بَقِيْتُ في ذاكرة ونُفوس زملائي، واستحضرتُ حِكْمَةَ الأديب فولتير: «أيَّتُها الصداقة.. لولاك لكان المرءُ وحيدًا، وبفضلك يستطيع المَرءُ أنْ يُضاعِفَ نَفْسَه، وأنْ يحيا في نُفوس الآخَرين»!!

عَقِبَ عودتي مِنْ فرنسا إلى أرض الوطن الحبيب التقيتُ بالأهل والأصدقاء، وسَلَّمتُ على الجميع، ثمَّ توجَّهتُ إلى "الرياض" لحضور اجتماع الدُّفْعَة (٤٦)، وكان ذلك يوم ١٩ جماد الآخر عام ١٤٤٠هـ بليلة لا تُنسى مِنْ ليالي عاصمتنا الحبيبة.

كان الاستقبال والاحتفاء والضيافة على أفضل ما يكون: فقد استقبلوني أنا والزميل الجليل العميد ركن/ «عيسى فارس القطامي» مِن مملكة (البحرين) الشقيقة ضُيوفًا في هذه الليلة التي نَعُدُّها مِن ليالي العُمر المميزة؛ إذْ أكرمنا بكلمات الثناء الصادقة النابعة مِنْ قلوبهم الصافية، وأهدونا دُروعًا تذكارية.



الكاتب وزميله اللواء «محمد فهد الهديان» (الحرس الملكي)

وبعد تناولنا العشاء.. شاهدنا العروض التراثية المتنوعة لمناطق مملكتنا الحبيبة، ومِن العجيب أنَّ زملائي في الكلية يتذكَّرون ذكريات جميلة في السَّنَة التي قَضَيْتُها معهم، مِمَّا دعاهم إلى أنْ يكتبوا ما يتذكرونه مِنْ مواقف طريفة وجميلة في القِسم الثالث مِنَ الكتاب.

القِسم الثالث

شَهادة الزملاء ومُشاركاتهم

مُقَدِّمَة

حينما عَلِمَ كثيرٌ مِنَ الزُّمَلاءِ الأعزَّاء بِكِتابي هذا.. أرادُوا أنْ يُشارِكوني فيه ما شَهِدوهُ مِنّي، وأنْ يكتُبوا فيه ما عَلِمُوهُ عَنّي، وبَعْدَ أنْ قُمْتُ بالسؤالِ عن مشروعية ذلك بَحْثًا واستِشارةً.. خَتَمْتُ كِتابِي بما أفادُوا فيه وأجادُوا بسِيرةٍ موضوعيَّة (غيرية) بعيدة عن الذات والأنا، ولعلي هنا أُوضِّحُ مَشروعيَّةَ هذه الشَّهادات، والفائدةَ مِن هذه الكِتابات، مُسْتَنِدًا إلى الكِتاب والسُّنَّة النبويَّة، ثُمَّ فوائد ما كُتِبَ:

وَرَدَتْ نُصوصٌ شَرعيَّة تُفيدُ بأنَّ المؤمنين هُمْ شُهَداءُ الله في أرضِه، منها قولُه تعالى: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ»[١]، وقولُه جل وعلا: «وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»[٢]، وحديثُ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ»[٣]، وغيرُها مِن النُّصوصِ الشرعيَّةِ التي تَدُلُّ على أنَّ المؤمنين شُهداءُ الله في أرضه.

وانطلاقًا مِن هذه النصوص.. جاءَت هذه الشَّهادات والمُشارَكات مِن بعضِ الزُّملاءِ والأصدقاءِ؛ ليشهَدوا بما عَلِمُوا، ويكتُبوا ما رأوا مِن مَسيرتي معهم، ومُخالَطتي لهم، و ما سَمِعُوه عنّي، سواء أثناء الزَّمالة في العمل أم الصَّداقة خارجَ العمل، في الماضي أو الحاضر، على اختلافِ جِنسياتِهم ومَشارِبِهم، وتَجارِبِهم ومَراتِبِهم، وتَخصُّصاتِهم ووظائِفِهم؛ لتكتملَ الصورةُ في هذه الشَّهادات والمُشارَكات، وتَجتَمِعَ جُلُّ الأفكارُ والرِّوايات، كلٌّ مِن زاويتِهِ التي يرى منها، ومِن ذاكرته التي يستذكر منها.

حَقًّا.. فمنهم مَن جاء بما فَقَدَتْهُ الذاكرة مع الأيام، ومنهم مَن جاءَ بشهادات آخرين في مواقف مُختلفة مُفيدة، ومنهم مَن وصفَ حَدَثًا

(١) سورة التوبة: الآية (١٠٥).

(٢) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٣) متفق عليه: «صحيح البخاري»: [٩٧/٢] و«صحيح مسلم»: [٦٥٥/٢]، واللفظ للبخاري.

بطريقتهِ وثقافتهِ الخاصَّة، ومِنْهم مَن حَكى وسَرَدَ قِيَمًا وسُلوكًا قد لا تكون الآنَ مِن أولويَّات الأبناء، فعسى ذِكْرُها أنْ يكون مُحَفِّزًا إيجابِيًّا لهم في الحياة.

وخِتامًا.. أَعتَزُّ وأفتخرُ بمُشارَكة زُملائي وأصدقائي الأجِلَّاء؛ فلهم منِّي الشُّكرُ والثَّناءُ، وأقول: «اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ»(١)، وصلَّى الله وسلَّم على خاتَم الأنبياء والمُرسَلِين.

(١) كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا زُكِّيَ قَالَ: "اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ". ذكره البخاري في (الأدب المفرد)، ص ٢٦٧. وقال المحقق: "قال الشيخ الألباني: صحيح".

ثَمَّةَ أَشْياءُ مُشْتَرَكَةٌ

بقلم سعادة اللواء / «نصَّار حجِّي بن بقية السلطاني العنزي»
الإدارة العامة للخِدْماتِ الطبيَّةِ بوَزارة الداخليَّة

زامَلْتُ «سالم بن عبد الرحمن البلوي» قَبْلَ أربعةٍ وثلاثين عامًا؛ حيث كُنَّا نَعمَلُ في إدارة الأَمْن والسَّلامة بمستشفى قوى الأَمْن بالرِّياض.

للوَهْلَةِ الأولى شَدَّ انتباهي بملامحهِ الجادَّة وانضباطه في العمل؛ فَكُنَّا نتقابلُ في مكتبِ مُشرِفِ الأَمْنِ والسَّلامةِ لتسجيلِ الحضورِ في بدايةِ العملِ، وحسب وقت المناوبة المسائيَّةِ التي تبدأُ في الساعة الثالثةِ ظُهرًا وتنتهي الساعةَ الحاديَةَ عَشْرَةَ ليلًا.. لنتقابلَ في ذات المكتب للتوقيعِ والانصراف.

فَقَد كان من حُسْن الطالِع أنَّ هناك أشياءَ مشتركةً بيننا، منها: كِلانا كان يَدرُس إضافةً إلى عمله، عَرَفْتُ ذلك في البداية من خلال الملاحظة، فَتَرانا نَحمِلُ دائمًا حقيبةً أو كُتبًا، وبعد التوقيع في سجل الحضور يذهبُ كُلٌّ منّا إلى موقعهِ الذي سيكون مسؤولًا عنه سواء في مداخلِ المستشفى أم في أحد الأدوار أم في غُرفَةِ التحكُّم أم غير ذلك من المواقع.

هذا الأمر المشترك بيننا عَرَفْتُ تفاصيلَه بعد عدَّة أيَّام؛ حيث حانت فُرصة مَّا ليسأل أحدُنا الآخرَ عن سبب حملِهِ لتلك الكتب وغيرها؛ فقد كان «سالمٌ» - وهذا هو الاسم الذي كُنتُ أناديه به - يَدرُسُ في الكليَّةِ المتوسِّطة للمُعلِّمين تخصُّص رياضيات، وأنا أَدرسُ في جامعة الملك «سعود» بكليَّة الآداب تخصُّص إعلام.

مَثَّلَ هذا التعارفُ جعلنا نتوافق فكريًّا إلى حدٍّ مَّا، وثِقةً بيننا دون أنْ نخوضَ في التفاصيلِ في البداية.. مرَّت الأيَّام والشُّهور، فبدأنا بالتعارفِ أكثرَ فأكثرَ، وبخاصة إذا ما كُنَّا نغطِّي موقعًا مَّا في الوقت نَفْسهِ (الشِّفت)، أو كُنَّا في موقِعَيْنِ قريبَيْنِ نتجاذبُ فيه أطرافَ الحديث في

الساعات التي يكون بها العمل هادئًا، وغالبًا يَحدُثُ ذلك بعد الساعة التاسعة مساءً وهو وقت انتهاء زيارة ذوي المرضى المُنوَّمين في المستشفى.

توطَّدت العَلاقة بيننا أكثر فأكثر، وتنامت المحبَّةُ بيننا فأخذنا نتقابلُ في أوقاتِ الرَّاحة وتناول العشاء في مطعمِ المستشفى. ومن البدهيّ أنَّ أغلب أحاديثنا كانت تدور حول الدراسة والعمل والمُستَقبلِ، ومع مرور الوقت بدأْنا نتحدَّث حول الظروف، والأحوال، والمعوقات، والحلول المتعلِّقة بدراستنا، وعملنا، وقَدْ توطَّدت العَلاقة حتى أصبح كُلٌّ مِنَّا يَعرِفُ سَكَنَ الآخَر.

كان العمل فقط هو ما يجمعُنا، وهو ما نستطيع من خلاله الحديث لعدم وجود وسائِلِ اتِّصالٍ في ذلك الوقت، سواءٌ هواتف ثابتة أم متنقلة، إضافةً لعدم وجود وقت كافٍ لذلك؛ فنحن بين دوامٍ صباحيٍّ في كُلِّيَّاتنا حسَبَ المواد، وغالبًا ما تَمتَدُّ حتى الظُّهر، وأحيانًا إلى الثانية بعد الظُّهر، وبين عملنا المسائي من الثالثة ظُهرًا، وحتى الحاديةَ عَشْرَةَ مساءً.

إضافةً لذلك فَقد يختارُ أحدُنا الدوامَ الليليَّ من الساعة الحاديةَ عشرَةَ مساءً حتى الساعة السابعَةِ صباحًا، وذلك بحسب جدول المواد الذي يختاره في الكُلِّيَّة. ولكن غالبًا كان دوامُنا مسائيًّا الأمر الذي جعلَنا نجتمعُ غالبًا، ونتجاذبُ أطرافَ الحديث.

وقد نَمَتِ العَلاقَةُ بيننا بعد مُضي سَنَة تقريبًا، وأصبحنا نخوض ونتناقش في مواضيع أخرى منها الشِّعر، والأدب.

زَهَتِ العلاقة بيننا في مكان العمل؛ فليس وقت للالتقاء خارج العمل، وهذا الأمر خَلَقَ جوًّا من الأُلفة والمحبَّة، وجَعَلَني أستطيعُ قراءته بعناية تامَّة، وأُسجِّل انطباعاتي عنه في ذلك الوقت سيَّما ونحن تقريبًا في منتصف العشريناتِ من العُمر، ربَّما هو في بداية العشرينات من عمره، ومن هذه النقطة المهمَّة أستطيع أن أسرد ما يختلج في الفؤاد عن انطباعي نحو أخي «سالم بن عبدالرَّحمن البلوي».

ما لَفَتَ انتباهي في ذلك الوقت بشخصية زميلي «سالم بن عبد الرحمن البلوي» الجِدِّيَّةُ في التعامل، والانضباط في العمل، وكانت ملامحه وتصرفاته تشي بهذا الأمر؛ فملامحه الحادَّة أضفت إلى شخصيته الكثير من الاحترام؛ فلا وقتَ لديه للحديث الطويل مع أحدٍ من الزُّملاء أو المُشرفينَ، ولا يجرؤُ أحدٌ ما التجاوز عليه في أيِّ أَمْرٍ يَخُصُّ العمل أو سواه، هذا الأمر جَعَلَه بعيدًا عن أيِّ خلافات تحدُثُ في مكان العمل.

إذًا شخصيته، وسلوكه، وانضباطه جَعَلَت منه متميِّزًا ليس في مجال العمل وحَسْب، وإنَّما في قراءتي له، وهذا ما يَهُمُّني هنا لأَكتُبَها شهادةً في سِيرته الذاتيَّةِ. شخصيته الجادَّةُ، وملامحه الحادَّة لا تعني أنَّه كان جافًّا أو صعبًا في التعامل، على العكس من ذلك؛ فَقَد كان لطيفًا ودودًا خلوقًا في سلوكه العام مع زملائه، ومُتعاوِنًا ومُتسامِحًا مع الجميع.

الذَّاكرةُ والعَسكرِيَّة

بقلم عميد متقاعد بالقوات المسلحة / «إبراهيم عسيري»

الأخ الدكتور «سالم عبد الرحمن البلوي» مَلامِحُ رَجُلِ البادية تَرْتَسِمُ على مُحَيَّاه: مَنْطِقُهُ، قامَتُهُ، حَركَاتُهُ، تَجِدُ فيه الجلافةَ والشِّدَّةَ مع دماثة الأخلاق، كما تَجِدُ فيه القوَّةَ مع الطِّيبةِ.

وكَمْ كانَ رَجُلًا صبورًا جَلْدًا، يَتَحَمَّلُ ويُقاسي، ومِن المواقف التي أَتَذَكَّرُها له أَنَّنا كُنَّا في قسم الدِّراسةِ، وبينما المُعَلِّمُ يشرح عن الواحةِ، إذا بصوتِ نائمٍ يرتفعُ في القِسم، وتتَّجهُ الأنظارُ لذاك الصَّوت فإذا به «سالمٌ»، فقال المُعَلِّم: «دَعُوهُ».. ثم أيقظه فقال له: «نائِمٌ؟»، فقال: «لا»، فسأله المُعَلِّمُ: «ماذا تعرف عنِ الواحةِ»؟، فَبَدَأَ «سالمٌ» يشرح له عَنِ الواحة، ثم سأله المُعَلِّمُ: «متى سَمِعْتَ عنِ الواحةِ آخِرَ مَرَّة»؟ فقال: «عندَما كُنتُ في المتوسِّطة»، فقال المُعَلِّم: «ماذا تَقولونَ عنهُ؟.. نائِمٌ أم مُستَيقِظٌ»؟!

الموقِف الآخَر:

سألتُه ذات مَرَّةٍ: «أين كنتَ عندما تحرَّكنا من الأقسام إلى المسجد»؟ قال: «ذهبتُ إلى قيادة كتيبةِ الطَّلبَةِ، ثُمَّ إلى التَّعليم أُريدُ شخصًا هناك، ووَجَدْتُهم يُصَلُّون فَصَلَّيتُ، وعندما سَلَّم الإمامُ قُمْتُ وشَرَدْتُ».

ومِنْ هذا الموقِفِ أَرى أَنَّهُ مَعَ اتِّصافِهِ بِالصِّفات التي ذكرت، ومع كثرةِ مخالفاتِهِ إلا أنَّه كان مُتَدِيِّنًا مُحِبًّا للصَّلاة، حتَّى ولو كان المكان الذي يُؤدِّي فيه هذه الشعيرة ممنوعٌ دخولُ الطلبة إليه، وإنْ عَرَّضه للجزاء والعِقاب.

إعداديٌّ بِشخصيةٍ نِهائِي

بقلم عقيد متقاعد بالقوات المسلحة / «عبد الله مفرح الطويلعي العنزي»

هناك أيَّام جميلة في حياتك تكونُ محفورةً بالذاكرةِ، لا تُنْسَى أبدًا، ومن الذكريات الجميلة..

أذكرُ أيَّامَ التحاقِنا بكلية الملك «عبد العزيز» الحربيَّة.. كان معي بالغُرْفَةِ مجموعةٌ من الزُّملاء، منهم الدكتور «سالم بن عبد الرحمن البلوي»، وقد كُنتُ مُعجَبًا جِدًّا به؛ لشجاعته وجسارتِهِ، مع التدريبِ القاسي والضَّغط النَّفسي؛ فقد كان يُخفِّفُ عنِّي وعَنْ زملائي بِالنُّكتة والضَّحِك والمواقفِ الجميلةِ.

أَذْكُرُ أنَّ القهوةَ كانتْ ممنوعة بالغُرَف، وكذا الشاي، ومَنْ يعملْهُما فكأنَّما ارتكب جريمةً يستحقُّ عليها العقاب العسكري، وعلى الرُّغمِ من ذلك فَقَد كان يُوفِّرها لنا دائمًا بطريقته الخاصَّة!

كانت قهوةُ أكياس جاهزة بهيلِها، وكانت رائحتُها جميلة جِدًّا، وكان يضع ماء بكوب حديدي مصروف لنا مع زمزمية الماء، ثم يضع (الهيتر) ويشبكه بالكهرباء حتى يغلي ثم يفتح كيس القهوة ويضعه ويتركه يغلي، يا الله! ما أطيب رائحتها! وكان ضابط الخفر والمناوبون يأتون على رائحتها، ثم يجازوننا الاثنين عند السارية، جزاءً عسكريًّا قاسيًا (امتد، انهض، ازحف...)، وأثناء الجزاء كان يقول: «أَبشِر باللي يَقهويك بَعدَ الجزاءِ».

وفي أحد الأيَّام جاءتْ لجنة تَفتيشِ الغرف برئاسةِ النَّقيب «سعد القرني»، وكان تفتيشًا دقيقًا جِدًّا، وكان يَقِفُ أعضاءُ لجنةِ التفتيش مع وكيل رقيب الفصيل، وعريف الفصيل، بينما يَقِف كُلُّ طالبٍ عند دولابه والشد السفري أمامه، ويعطي رئيس اللجنة للعريف أمْرًا بنزع البطانية من الشد السفري الطالب الأوَّل، ثمَّ الثاني...

وعندما وَصَلَ لـ«سالم عبد الرحمن» قام هو بنزع البطانية بكُلِّ قوةٍ مُفتَخِرًا أمامَ اللَّجنة، لا يوجد شيءٌ إلَّا أكياس القهوة التي تطايرت على اللجنة وتناثرت بالغرفةِ، نظر أعضاء اللجنة لبعضهم، ثمَّ نزع العريف بسرعة البطانية التي تَخُصُّني، وإذا بأكياس الشاي تتناثر، وأدركوا أنَّ «سالمًا» هو مَن عَمِلَ ذلك، فتبسَّمَ رئيسُ اللَّجنةِ ولم يُصدِر لنا عِقابًا؛ لأنَّهم يبحثون عن أشياء أخرى.

وفي أحد الأيَّام كُنَّا بالتمام المسائِي، وكان رقيب أول الكلية «طارق السرحان» على وشك أن يُعْطِيَ التَّمام لضابط خفر، وهم (٩٠٠) تِسعُمائَةِ طالبٍ تقريبًا، ولا تسمع منهم صوتًا، وكان حضور طالب الإعدادي متأخِّرًا يُعَدُّ جريمةً كبرى، وبينما نحن كذلك إذ بـ«سالم» يأتي مهرولًا مُتأخِّرًا، فاستعدَّ استعدادًا عسكريًّا أمام رقيب أول الكلية، فقال له: «انصرف لسريَّتك بسرعة»، فانطلقَ مهرولًا نحو سريَّته، فاستعدَّ من بعيد يستأذنُ رقيب السريَّة كما يفعلُ الطالبُ النِّهائيُّ لا كما يَجِبُ أن يفعلَ الطالب الإعدادي بأن يقف أمام الرقيب ويستعدُّ الاستعداد العسكري الكامل، وفعل مثل ذلك مع وكيل رقيب الفصيل، فصاح طلاب النهائي صيحة واحدة: «بَدري عَلَيك يا إعدادي»[١].

كان «سالمٌ» في حديثي النهائي شخصيَّة قويَّة، لا يَهاب أحدًا؛ فقد عَجِزوا عنه، فصاروا يَتَحاشَونَهُ، ومع مرور الأيَّام ظهر تميُّز «سالم» الدراسي، وشاعَ بينَ الطلابِ ذكاؤُهُ، وصار يُدَرِّسُ طلاب النهائي عندنا في غرفتنا، ويشرح لهم الرِّياضياتِ والكيمياءَ والإنجليزي، مما جعل أكثر مَن في الكلية - بعد انتهاء الاختبارات - يقولون عنه: «هذا رقيب أول الكليَّة»، أَي الأوَّلُ على دُفْعَتِهِ.

---

(١) كلمة عند العسكر تقال عند استعظامهم صدور أَمْر من شخص لا يتوقع صدور ذلك منه.

القُلوبُ الكبيرةُ

بقلم البرفسور / «أسامة المقدادي»

أستاذ كلية الهندسة بجامعة غرب فرجينيا- أمريكا

كانَتِ البدايةِ في شهر حزيرَانَ سَنَةَ ٢٠٠٦م، وكان اللقاء عَبْرَ بُكاء طفلٍ، وصياحِ رجلٍ أُردني صاحب كشرة جميلةٍ، يُنادي ابنه: «يا ولد اهدأ واسكت...»، وإذا بصوت من بعيدٍ يقول: «السلام عليكم».. رَجُل ملامحُهُ البَدويَّةُ ودمُه العربيُّ واضحةٌ للعيان.. ما زِلْتُ أَتَذَكَّرُهذا اليوم، واقتربتُ أنا وابني الذي وَجَدَ الصُّحبةَ الطيبةَ مع أبناءِ جاري العزيز أبي «عبد الرحمن».. تبادلنا التعارفَ، وكانتِ الطمأنينةُ بجوار عربي مسلم من ميزاتِ السَّكنِ الجَديدِ.

في نَفْس الأسبوع وإذا بأبي «عبد الرحمن» يدعوني لتناولِ الطَّعام في بيتهِ بمناسبةِ رحيلي بجوارِه، وكأَنَّهُ أعادَني إلى أيَّام (الأُردن) القديمةِ والكرم العربي أيَّامَ آبائِنا الطَّيِّبين التي من النادر جِدًّا أن نَجِدَها هذهِ الأيَّام.. خلال ذلك العشاء تعرَّفتُ على عدد من الأصدقاء الجُدُد، وكُنْتُ جديدًا على الوِلاية؛ حيث انتقلتُ من ولاية "كولورادو" حديثًا .

وَجَدْتُ في أبي «عبد الرحمن» تعريفَ المُحاربِ الصِّنديدِ الذي لا يَستَسلِمُ ولا يكِلُّ ولا يَمَلُّ أبدًا.. كان جاري العزيز طالب دراسات عليا بعد انقطاع دام سنوات عديدة، لكن طاقته وعزيمته مَهَّدَت كُلَّ الصِّعاب لكي يستمرَّ ويتفوَّقَ في تخصُّصه الذي كان مزيجًا من الرياضيات والإحصاء والتربية وعلوم الحاسوب، وهو ليس بالموضوع السهل!

كان أبو «عبد الرحمن» أبًا ليس لأطفاله وحَسْبُ بل كان أبًا وأخًا لكُلِّ الطلَّابِ السُّعوديين والعرب في مدينة "مورقانتاون"؛ فقد كان بيته دائمًا عامِرًا، وأَذكُرُ يومًا أنّي التَقَيتُ بأكثرَ من ثلاثين شخصًا في عشاءٍ في بيته المتواضعِ.. بَيت صغير لكن فيه قلوبٌ كبيرةٌ، تحت كُلِّ هذه الضغوط الدراسيَّة والاجتماعيَّة ومسؤوليَّة أطفاله؛ حيثُ إنَّه كان مُقيمًا مع أطفاله بدون زوجة.. كان هو الأب والأُم بالنسبةِ لأولادِهِ.. مع كُلِّ هذه الضغوط كان أبو «عبد الرحمن» يجود بالمهام كالزيتون الذي كُلَّما عَصَرتَه جاد عليك بزيت مبارك. كُنتُ أقول له: «يا أبا عبد الرحمن أنت لا تُنجز المهامَّ الصعبةَ إلا تَحتَ الضَّغطِ».

كانت لدى أبي «عبد الرحمن» عَلاقاتٌ وثيقةٌ بالملحقيَّة الثقافيَّة السعوديَّة، وكان له احترامُه بالملحقيَّة الثقافيَّة، وفي إحدى الزِّيارات صاحَبْتُه لزيارة الملحقية، وكان الله في حِفْظِنا حتى وصلنا إلى البيت.. وأثناء رحلة العودة - بعد أن ضللنا الطريق - كِدْتُ أَنْ أَصدمَ غزالًا لولا رحمةُ الله ولطفه.

وأَذْكُرُ أنَّ أبا «عبد الرحمن» كانت له عزيمة قوية جِدًّا؛ فقد ترك التدخين.. قرَّرَ تَركَ التدخين دون سابق إنذار.. كالعادة خرج أبو «عبد الرحمن» بسيارته المشهورة والغنية عن التعريف "زوبا" إلى الطريق السريع منتقلًا من ولاية إلى ولاية ومن مدينةٍ إلى مدينةٍ وجوالُه مُغلَقٌ حتّى وَصَلَ "بنسكولا" في "فلوريدا".. وما أدراك ما "بنسكولا" وذكريات الشباب في ثمانينات القرن الماضي!

وبعد ثلاثةِ أسابيعَ بالتنقُّل من مدينة لأُخرى.. "تامبا"، "أورلاندو"، "ميامي".. حتى وَصَلَ آخِرَ مكان بـ"فلوريدا" وهي مدينة "كي وست"، وإذا بأبي «عبد الرحمن» يَعودُ بدونِ سيجارة ولا تدخين.. والحَمْدُ لله أنَّه تركه، والحَمْدُ لله أنّي أيضًا تركتُ التَّدخين بعد أبي «عبد الرحمن» بعقد من الزَّمَن.

وقد صَدَقَتِ العربُ وصَدَقَ «لُقمان بن عاد» حين قال: «رُبَّ أخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أمُّك».. كان يوم عودة أبي «عبد الرحمن» للسعوديَّة بعد انتهاء الدراسة يوم فرحٍ لأهله وأقاربه، لكن ليس لجاره الذي توحَّد بَعْدَهُ، هنيئًا لكُلِّ من قابَلَكَ وعَرَفَكَ وعاشَرَكَ يا ابنَ الأَكرَمين.

مِنَ الدُّبلوم المُتَوَسِّط إلى إدارَة الجامِعَة

بقلم / «حميد بن سليم المقبلي» اختصاصي تقنية الطب النَّووي
مدير مستشفى النِّساء والولادة والأطفال بتبوك وزارة الصحة

الأخ الكبير والصديق النُّصوح الدكتور «سالم بن عبد الرحمن البلوي».. والده «عبد الرحمن» صاحِبٌ وصديقٌ لوالدي رَحِمَهُما الله تعالى وأسكنهما فسيحَ جناته.

عَرَفْتُ «سالمًا» معرفةً وثيقةً عندَما كنْتُ طالبًا في المرحلةِ الثانوية، وهو مُعَلِّمٌ بـ"العلا". وخلال تلكَ الفترة تَعَلَّمْتُ من «سالم» مبدأَ تَطوير الذات، وإنْ كُنْتُ حينها لا أعرف ذلك المبدأ كمفهوم إداري أو اجتماعي، لكنَّه كان مُحَفِّزًا، وبخاصَّةٍ عندما ترى مُعَلِّمًا يبحث عن تطوير الذات ويَسعى لإكمالِ دراسَتِه، عِلْمًا بأنَّ الظُّروف كانت غيرَ مُهيَّأة.

حينها التحقَ «سالم» بجامعة الملك «عبد العزيز» بـ"جدة"، وأكمل مرحلة البكالوريوس تخصُّص حاسب آلي بدلًا من الرِّياضيات.. في تلك الفترة التَحَقْتُ أنا بالوظيفة ولا زال «سالم» قريبًا من القلب بعيدًا عن العين..

وفي تلك الأيَّام والليالي.. ومُنذُ أَنْ عَرَفْتُهُ كان «سالم» - برغم مشاغله وطموحاته - بارًّا بوالِدِهِ، وعندَما يَحِلُّ نِداؤه تتوقَّف جميعُ مشاغل «سالم»، ويبقى أبوه رحمةُ الله عليه حاضِرًا.

ومِنَ المَواقِف التي لا تَغيبُ عنِّي أنَّ وَالِدَه عندما يتعب ويحتاج للمستشفى يقول: «وين سالم» أو هكذا.. ولعلي أقولُ جازمًا أنَّ «سالمًا» كان يتولَّى تشخيص حالة والده، وإنْ كان هذا الأمر غريبًا في ظاهره إلَّا أنَّ البِرَّ وثِقَةَ الأبِ في ابنه هي الإجابة عن ذلك. تَميَّزَ «سالِمٌ» بقوَّةِ الشَّخصيَّة وقَبوله التحدِّي؛ فهو شخصيّة لا تعرف المستحيل.

وفي عام ١٤٢٧هـ الموافق ٢٠٠٧م طلبتُ من «سالم» قبولًا لإكمال دراستي في (أمريكا)، وكان حاضِرًا في كُلِّ خُطواتي إلى أن وَصَلْتُ (أمريكا) فاستقبَلَني «سالم» في مطار "دالاس" في "واشنطن" مُبتَسِمًا، وكُنتُ لا أعلم ما يعلم العاقل، وعَرَفْتُ - فيما بعد - أن ذلك تأثير السَّاعة البيولوجية أو «Travel jet lag».

كان «سالم» كريمًا وصديقًا للكرماء؛ فقد أَخَذَني لمنزل صديقه في "واشنطن" «أبي خالدٍ ناصر العجمي» الذي كانَ يعمل في السفارة السُّعوديَّة.. وفي الصَّباح الباكرِ أَخَذَ ذَبائِحَهُ واتَّجه بنا إلى "وست فرجينيا".. ولما وَصَلْنا منزلَهُ وجدناه مَجلِسًا للمدينَةِ بِأكملها لجميع المغتربين من سعوديين وعرب ومسلمين: السعودي، الأردني، المصري، السوداني، ومَن معهم.

تَوَالَتْ المناسبات والتَّرحيب بضيف «سالم» والاحتفاء بي، وكانَ في اعتقادي أن ما يُقدَّمونه لي هو في الأصل تقدير لـ«سالم» ورَدٌّ لجَميله معهم.

بدأ «سالم» بترتيب أموري وإجراءات السَّكن والدراسة، وتحمّلَ عبئًا إضافيًّا مع ما لديه من أعباء عائلية ودراسيَّة، وكانت اللغةُ تشكِّلُ عائقًا كبيرًا إضافةً إلى الغربة، جميع ما أحتاجه كان يتمُّ بواسطة «سالم»، من استخراج تليفون، رخصة قيادة، حساب بنكي، مراجعة الملحقيَّة الثقافيَّة، وغيرها..

وكان مما يُريحني - بهذا الجانب - أنَّه فعل مثل ذلك للكثيرين مثلي، فكان بشكل مستمرٍّ لدى مكتب القبول والتسجيل ومعهد اللُّغة للحصول على قَبول للطلاب من مُختَلَف الأطياف.

بدأ الفصل الدراسي لعام ٢٠٠٨م، وما أَنْ شارفَ على الانتهاءِ حتى تقدَّم أبو «عبد الرحمن» لمناقشة رسالة الدكتوراه، وعندما حان موعد المناقشة كُنتُ حاضرًا مع بعض الزُّملاء من المبتعثين وأبناء «سالم» الثلاثة حَفِظَهم الله، وفي قاعة المناقشة جَلَسْنا في المكانِ المُخَصَّصِ للحضور، وأمامَنا لَجنَةُ المناقشة و«سالم»، وكانَ النقاشُ حاسِمًا وشَيِّقًا في آنٍ واحدٍ، ومن المعروفِ أنَّ المُشرفَ على الرِّسالة يكون مع الطالب، إلا أنَّ البروفسور الأمريكي أ.د. «فليبس» قد كَسَرَ القاعدة وبدأ بتوجيهِ الأسئلة لـ«سالم» بشكل مباشر، وكأنه يقول لأعضاء اللجنة: إنَّ هذا الطالب لديه المعرفة والمعلومة وأنا معكم عليه.

كان ضمن المناقشين رئيس قسم الإحصاء بالجامعة البروفيسور الأمريكي أ.د. «سبيستان دياز»، والذي أبدى إعجابه الشديد بالأسلوب الإحصائي المُتقَن الذي انتهجه «سالم» في دراسته لنيل الدكتوراه.

ومن المواقِفِ التي تُظهِرُ مكانةَ «سالم» وقَدْرَهُ عند مَن عَرَفوه وتعامل معهم خلال دراسته في (أمريكا).. موقف مدير مكتب الطلاب الدوليين الدكتور «مايكل» أثناء زيارة سعادة الملحق الثقافي الدكتور «محمد العيسى» لجامعة "غرب فرجينيا" عندما حضرنا لمقابلته والسلام عليه حيث كان الاجتماع واللقاء في إحدى الصالات الكبيرة بالجامعة، وقد بَدَأَ بالفعل الدكتور «مايكل» بكلمته لتعريف سعادةِ الملحقِ الثقافي السعودي بالجامعة وتخصُّصاتِها وخدماتِها للطلاب الدوليين، وما أَنْ دخلنا مع البابِ إذا بِهِ يتوقَّفُ ويستأذن الحضور ويتقدَّم نَحوَنا مُرَحِّبًا ومُحتَفِيًا بمجيء «سالم»، في رسالة واضحة وصريحة لمكانة هذا الرَّجُل، ويُعرِّف به، ويقوم الملحق الثقافي ويلتقينا ويصطحب «سالمًا» ويجلس بجواره، ثم يعود الدكتور «مايكل» ليُكمِل عرضه التقديمي؛ فهذا الموقف من ذاك الأمريكي يشهد بأنَّ «سالمًا» رَجُلٌ مُختَلِفٌ عن غيره، وأنه يحظَى بتقديرواحترام قيادات الجامعة.

وبعد العَودة لأرض الوطن تَقَلَّد الدكتور «سالم» الإشراف على فرع الجامعة وقام بتأسيسه ووضع أركانه، وكُنتُ - كغيري من أهل "العلا" - نُراقِبُ ما يَحدُث من نَقلاتٍ وتأسيس مُميَّز وسريع وخدمةِ وطنٍ ومجتَمعٍ من خلال صرحِ جامعةِ طَيبَةَ فرع "العلا"؛ فمبدأ «سالم» مع الجميع واحِد وهو الخِدْمة، والخِدْمة فقط، ومَدُّ يَدِ العَونِ والمُساعدةِ لجميع فئاتِ مُجتَمعِ "العلا" وشرائحِهِ.

كان «سالِمٌ» ابنًا بارًا بـ"العلا" وأهلها لا ينتمي لمجموعة أو فئة دون الأُخرى.

بدأت البرامج والتخصُّصات النهارية والمسائية، وأؤكد وأجزم أنَّه لا يُوجدُ أحدٌ من سكان "العلا" وما جوارها إلا وقد استفاد من الجامعة وخِدْماتها سواء من خريجي الثانوية أم من الموظفين؛ حيث فتح لهذه الفئة- أقصد الموظفين والعاملين بـ"العلا" - أبوابَ الانتِساب والالتحاق بالجامعة لتحسين مستواهم الوظيفي والعِلْمي بطبيعة الحال، وقد استقطبَ أبناءَ المنطقة المؤهَّلينَ والمميَّزينَ لمشاركته في بناء الجامعة وتأسيسها وابتعاثهم، ومنهم اليوم أساتذة وأعضاء هيئة تدريس عُيِّنوا مُعيدين في تلك الكلية الناشئة.

لقد كان لـ«سالم» تأثيرٌ إيجابيٌّ ودَعْمٌ قويٌّ للمنطقة وأبنائها من خلال فتح أبواب تحقيق التَّطلُّعات لهم.. خلال إدارة «سالم» لفرع الجامعة بـ"العلا" كان شعاره الذي أطلقتُه عليه ويتَّفق معي فيه الكثيرون من أبناء "العلا" المُنصِفين هو (سالم للجميع).

وكشاهد على العصر في تلك المراحل المتعدِّدة من مسيرة «سالم» وفَّقهُ الله.. جَزَمْتُ أنَّ الدكتوراه ليست بالحصول على اللَّقب أو الدرجة العلميَّة وحَسْبُ، وإنَّما هي ترجمة لما يَحدُث بعد الحصول عليها من إنجازات.

ولعلِّي في نهاية مقالي المقتضب أو ما لديَّ من معلومات وحقائق عن شخص سعادة الدكتور «سالم» أقول بأنَّهُ جَمَعَ الحَزمَ واللِّينَ والإِصرارَ والتَّحدِّيَ وبَذْلَ المعروف والإخلاص والأمانة التي يَستَحِقُّها الوَطَنُ من أبنائهِ الذي قدَّمَ لَهم من خيراتِهِ الشَّيءَ الكثير.

«سالِم» لا تأخذُه في الحق لومَةُ لائِم.. صحيح بأنَّه مُرهِقٌ وشديد ولا يهابُ الصعوبات ويُتعِبُ مَن يعمل معه، وبالتأكيد مَن يأتي بعده سيتعب كثيرًا لمجاراة (الرتم) المرتفع من وتيرة العمل السابقة لكنَّه ترك أثرًا وبصمة مميَّزة في حياة أهل المنطقة عامة. وأرجو من الله العلي القدير أن يكتب له الأجر والثواب.

العِصاميَّة والتميُّز

بقلم: الدكتور / «خليفة حماد البلوي»
أستاذ مشارك كلية التربية - جامعة تبوك

عندما أسترجِعُ الذاكرة، وأَتَذَكَّر أشخاصًا كافَحوا في هذه الحياة حتى وصلوا إلى التميُّز وصنعوا أثرًا يَقتدي به الآخرون.. أَتَذَكَّر أشخاصًا معدودين على الصعيد الشخصي، ومنهم سعادة الدكتور «سالم عبد الرحمن البلوي».

لقد رافقتُ الدكتور «سالمًا» في بداية رحلة الدكتوراه، عندما قرر أن يستكمل دراسته للحصول على درجة البكالوريوس في الحاسب الآلي من كلية المعلمين في جدة عام ١٤١٩هـ، وكنت آنذاك أدرس في جامعة الملك «عبد العزيز».. لاحظتُ - من خلال مرافقة الدكتور في تلك الأيَّام - إصراره على تحقيق هدفه وتميُّزه في دراسته بالرغم من مشاغله، وأنَّ الظروف لم تكن مهيأة للتميُّز.

وفي ربيع عام ٢٠٠٩م كُنتُ طالِبَ ماجستير بجامعة "وست فرجينيا" في (الولايات المتحدة الأمريكية)، ومن ضمن مقررات الفصل كان لديَّ مقرَّر إحصاء، في ذلك المقرر وَجَدتُ أثرًا من تميُّز الدكتور «سالم»، وهو ما ذَكَرَه لي الدكتور «سبستيان دياز»، ذلك البروفيسور الأمريكي المميَّز المتمكِّن من تخصصه، عندما قرأ اسمي - في أول محاضرة - اقترب مني وسألني بابتسامة تعجُّب عما إذا كُنتُ أعرف «سالم البلوي»، قلتُ له وبكُلِّ فخر: «نعم، هو قريبي»، ثم سألني: «أين هو الآن؟ وكيف حاله»؟، قال لي: «هذا الشخص من أميز الطلبة في الإحصاء حيث إنني كُنتُ أحدَ المناقشين لهذا الطالب، ولاحظتُ تمكُّنَه في التخصُّص، وذلك من خلال التحليل الإحصائي برسالته ومن المناقشة».

كان يروي لي بلسانه بكُلِّ انبهار بأن «سالمًا» كان يُريدُ أن يذهب بلجنة المناقشة إلى الإحصاء لعرض تميُّزه وقُدرته على الإبداع في هذا المجال، وكان مُتعَجِّبًا من تَمَكُّن «سالم» من استخدامه للأساليب الإحصائية المتنوعة، وقُدرته على عَرض نتائج دراسته بشكل يعكس أن لدى هذا الطالب تَمَكُّنًا عاليًا في الرياضيات والإحصاء بشكل خاص، بالرغم من أنه طالب عربي، وهذا أول بحث له.

في الحقيقة.. لم تكن هذه المناقشة عادية بالنسبة لي كطالب ماجستير، وكشخص يَعرِف عصامية الدكتور «سالم» وتميَّزَهُ.. لقد عاد بي هذا الموقف عشر سنوات إلى عام ١٤١٩هـ وإلى كليَّة المعلمين في "جدة"، وذَكَّرني بالمعدل الذي حصل عليه في ذلك الفصل.

في الحقيقة لقد تردَّدت كثيرًا في التحدث عن سيرة الدكتور «سالم»؛ فهو عَلَمٌ من أعلام قبيلة "بلي"، غني عن التعريف، سيرتُه مليئة بالإنجازات التي نفخر ونقتدي بها في مجالات متعدِّدة. وما كتبتُه هنا ما هو إلا شهادة لما ذَكَرَ لي الدكتور «دياز».

وأما عندما أتحدَّث شخصيًّا عن الدكتور «سالم» فإني أتوقَّفُ كثيرًا عند كُلِّ موقف من مواقفه المميزة بارك الله فيه ووفقَّه ونفع بِهِ وبِعِلْمه.

الإنسانية والعِلم

بقلم: الدكتوره / «عائشة محمد خليفة البلوي»
أستاذ المناهج وطرق التدريس المساعد بجامعة تبوك

الأخ الفاضل الدكتور «سالم» أبو «عبد الرحمن» هو من الأشخاص الذين ينطبق فيهم حديثُ رسول الله صلَّى الله عليهِ وسلَّم: «إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ».

وحقيقةً.. كان الدكتور «سالم» للخير مفتاحًا، وللشر مغلاقًا، وهذا ما حَدَث فترة مناقشتي للرسالة؛ حيث إنِّي بحثتُ عن الزُّملاء الذين ناقشوا قَبلي، وسألتُ عن لجنة المناقشة: ما طريقتُهم؟، وكيف يكون طرح الأسئلة؟ فكانت أكثر الإجابات سطحيَّة، ولم تُذْهِبْ أو تُغيِّر الخوفَ والقلق الذي كان عندي بعد تحديد المناقشة، ويَسَّر اللهُ أن نتحدث أنا وزوجي الدكتور «وافي» مع سعادة الدكتور «سالم»، ونسأل عن جميع الأمور، وبخاصَّة أنَّه قد ناقش رسالته قَبلي، وكانت اللجنة قد أثنت عليه خيرًا، وتحدَّث عنه جميع أعضاء اللَّجنة لطلابهم، وأوصى بعضُهم طلابَه بالجلوس مع الدكتور «سالم»، والاستفادة منه ومن رسالته باعتبارها مَرجِعًا..

وهذا ما وَجَدْتُه فعلًا أثناء حديثي معه، جميع الملاحظات التي نبَّهني لها فعلًا تمَّ استجوابي بخصوصها، وبخاصَّةٍ في جزء الإحصاء، والذي كان يُشَكِّلُ لي الهاجس الأكبر، وعند المناقشة - بفضل الله ثُمَّ بتوجيهات الدكتور «سالم» - استطَعْتُ تحضير الرُّدود المناسبة لبعض الفقرات التي كانت من الممكن أن تُؤخَذ عَلَيَّ لو لم أتمكَّن من الرَّدِّ عليها أمام اللَّجنة.

نسألُ اللهَ أنْ يُبارِكَ له في عِلْمِهِ ووَلَدِه ونَفْسِه، وأنْ يَنْفَعَ به وبعِلْمِه، وأن يَجْزِيَه عنَّا خيرَ الجزاء.

عقليَّة عِلْميَّة.. تُؤمنُ بالشورى

بقلم: أ.د / «سامي محمد زلط»
أستاذ البيولوجي - جامعة قناة السويس
ورئيس مجلس أمناء مؤسسة الطبيعة والعِلْم

تركتُ (مصر) وانتقلتُ للعمل بجامعة طيبة – فرع "العلا"، وصلتُ محافظة "العلا" الجميلة صاحبة الآثاروالمناظر الطبيعية الخلابة لِأَجِدَ نَفْسي بينَ أحضان الطبيعة في مدينة هادئة تحتضنها الجبال من كُلِّ الجوانب، واستبشَرْتُ خَيرًا؛ لأنِّي مُحِبٌّ للطبيعة؛ فقد عِشتُ سنوات عمري السابقة أعمل في "شبه جزيرة سيناء"، وتعايشتُ مع بَدْوِ "سيناء"، وعَشِقْتُ أرضَها، وكُنتُ أحلُم بالانتقال والعيش في "سيناء" لولا الالتزامات المهنية، ولذا كانت "العلا" المكان المناسب الذي طالما أحببتُ أن أعيش فيه.

بدأتُ أُفكِّرُكيف ستكون طبيعة سكان "العلا"؟، وكيف ستكون طبيعة ونظام العمل بالكلية؟، حملت حقيبتي ومعي جهازالحاسوب الخاص بي، وذهبتُ لأول يوم عمل بالكلية لاكتشف أنَّ الكلية وُلِدَتْ مع حُضوري، وأنَّ الدِّراسة ستبدأ بها لأول مَرَّة هذا العام في هذا المبنى، والذي كان مُخَصَّصًا لتحفيظ القرآن الكريم.

في الواقع.. المبنى مُصَمَّم بطريقة جميلة للهدف الذي أُنشِئ من أَجْلِه، ولكنه لا يصلح ليكون مَقَرًّا لكلية بحجم كلية العلوم والآداب، خصوصًا وأنَّ الكليَّة ستحتوي على أقسام علمية كبيرة: (الأحياء، الكيمياء، الفيزياء، الرياضيات، الكمبيوتر)، وأيضًا أقسام أدبيَّة: (لغة عربيَّة، دراسات إسلامية، اجتماعيات، لغات وترجمة، إعداد تربوي)، فضلًا عن باقي كليات الفرع، وهي: (الكلية الطبية التطبيقية، وكلية المجتمع).

تقابلتُ مع الأستاذ «أحمد السحيمي»، وأخبَرَني أنه وكيل كلية العلوم والآداب، ووجدُته جالِسًا على مكتب داخل حجرة صغيرة، وأبلغني أن مكاتب أعضاء هيئة التدريس تَقَع في مكان مُخَصَّص للرِّجال مُلحَق بمبنى شطر الطالبات، ذهبتُ لرؤية المكان ووجدته عبارة عن حجرتين مزدحمتين بأعضاء هيئة التدريس من الأقسام الأدبيَّة، وقليل من الزملاء من الأقسام العلمية، والذين كانوا يقومون بتدريس الطالبات التربويات في المراحل السابقة قَبْلَ البَدء بتحويل شطر الطالبات التربوي إلى كلية علوم وآداب (بنين وبنات).

لم أَجِد المكان مناسبًا؛ لازدحامه وانعدام التجهيزات به، فَعُدتُ للأستاذ «أحمد السحيمي» وأبلغتُه بالوضع، وأبلغني أن أجلس بجانبه في الحجرة الخاصة به؛ لأنها الحجرة الوحيدة المتاحة الآن، لحين حضور سعادة عميد الكلية المُعَيَّن لإدارة الكلية.

في اليوم التَّالي حضرتُ للمكتب لأجد الأستاذ «أحمد السحيمي» جالِسًا على مقعدٍ بجانبي، وإذا بزميلٍ جديد يجلِسُ على المكتب، قدَّمني الأستاذ «أحمد السحيمي» للزميل وقدَّمه لي بأنَّه الدكتور «سالم بن عبد الرحمن البلوي» عميد الكلية الذي ستقع على عاتقه إدارة الفرع وكلياته بهذا الحجم، وبإمكانيات لا أقول ضعيفة ولكن غير موجودة أساسًا. لا توجد معامل طلابية أو بحثية، لا توجد أجهزة كمبيوتر، لا توجد مكتبة، لا توجد قاعات تدريس، ولا مكاتب أو كراس، لا شيء، يوجد فقط عدد قليل من أعضاء التدريس في تخصصات عِلْمِيَّة محدودة.

أَشفقتُ على الرَّجُل من المهمَّة الصعبة المُلقاة على عاتقه، خصوصًا وأنَّ الكلية بصدد استقبال أول دُفعة من الطلاب بعد أيَّام معدودة، ولا أعلم ما هو فاعل؟!

قـرَّرَ الـدكتور «سـالم» عَقْدَ اجتمـاع مسـائي لجميع الـزُّمَلاء للتعـارُف، حَضرَ الجميع وتحدَّثوا عـن تخصصاتهم وآرائهم بخصـوص تجهيز الكلية وكيفيـة إدارتهـا، واتَّـضح لـي - مُنـذُ اللحظـة الأولـى - أنَّ الرَّجُـل يُـؤمِن بالشـورى ويتطلـع إلى الآراء البَنَّـاءة، وأنَّ الإدارة ستسـير طبقًـا لمَـن لديـه الخبرات وحُبُّ العمل.

في صـباح اليـوم التـالي، طلبـني الـدكتور «سـالم»، وكـان معـه مـدير العلاقـات العامـة بالكليـة الأسـتاذ «محمـد السـحيمي» ووكيـل الكليـة الأسـتاذ «أحمـد السـحيمي»، وطلـب أن نتعـاون جميعًـا لتجهـيز المكـان بأسـرع وقـت ممكـن؛ حـتَّى يكـون مُعَـدًّا لتسـيير أعمـال الأقسـام العلميـة والأدبيَّة.

وهنـا بـدأت مهمَّـة انتحاريَّـة بمعـنى الكلمـة، عمليـة سِباق مـع الـزمن لتجهـيز المكاتـب وإعـدادها، والمعامـل ووصـلات الميـاه والغـاز والكهربـاء والمكتبة، والمسرح، وقاعات التدريس، ومعمل للغات، ومعمل حاسـوب، وغيرها من التجهيزات المُهمَّة لبدء العمل.

بـدأت عمليات التجهيز والإعـداد لِأَجِدَ نَفْسي أبدأ يـومي من الصـباح الباكر، ولا أتركه سوى في المساء المتأخر، والدكتور «سالم» يتحرَّك في كُلِّ مكان داخل المبنى؛ ليُقرِّر أين ستكون المكاتب الإدارية، وأين ستكون المعامل وغيرها من التجهيزات.

وَجَـدْتُ رَجُلًا يرى أن كُلَّ شيءٍ ممكنٌ، ولا يُوجـد مـا يُسَـمَّى بالـصَّعْب، وكُنَّا نتجـوَّل بالمكان ومعنـا الـزملاء والمقـاولون والمشـرفون الإداريـون من الكلية ليُقَرِّرَ كَسْرَ حوائط، وعمل فتحات، وتحويل ممرات، وأحسستُ أننـا نعمـل في مجـال الهندسـة والمبـاني، وكانـت خـبرات الـدكتور «سـالم» واضـحة وضـوح الشـمس، وأيقنتُ أنه لديه خبرة كبيرة في هذا المجـال،

ولولا خبراته لما تَحَوَّل المكان في زمن قياسي ليحوي مكاتب إدارية، مكاتب أعضاء هيئة التدريس، معامل، قاعات، مسرحًا يَسَعُ لعدد ١٠٠ شخص، مكتبة.

بالفعل مَرَّت فترة عصيبة أبلى فيها الدكتور «سالم» وفريق العمل الاستشاري الذي صاحبه بلاءً حسنًا، وأصبح المكانُ بَعدَ مَجهودٍ مُضْنٍ مُعَدًّا بصورةٍ مُرْضِيَةٍ لاستقبال الطلاب وبدء الأعمال.

كُنتُ أسير مع الدكتور «سالم» وفريق العمل وأقول: «لقد كُتِبَ عليَّ التعبُ والشقاءُ طوال حياتي، كُنتُ أظن أنني بعد مشواري الطويل أنَّ العُلا ستكون مُعَدَّةً للراحة، وأَنْ أتفرَّغ للتدريس والبحث العلمي، ولكن يبدو أن القَدَرَ له رأي آخَر»، ولكن حَمِدْتُ اللهَ أن الذي يقود العمل شخصٌ بعقلية وتفكير الدكتور «سالم»، حيث وضح حُبُّه للإنجاز، ولا يُؤجِّلُ عملَ اليوم إلى الغد، ودؤوب في متابعته للأعمال، ووضح جليًّا أن إعداد الكليات وتجهيزها ونجاحها هي حياتُه، وشَعُرْتُ أن كليات الفرع تُطارِدُه في مَنامه.

كُنا نُنهي العمل الشاق طوال اليوم ونعود لبيوتنا في المساء للراحة، ولكن مع الدكتور «سالم» لا يَجِب أن تفكر بهذه الطريقة.. كان يتصل ويطلب أن نصاحبه في المجلس الخاص به لاستكمال التخطيط ومتابعة الأعمال ومراجعة ما تَم، ووضع خُطة اليوم التالي. هكذا كان يُفَكِّر، وكُنا نجلس لوقت متأخر بالليل بجانب موقد النار والقهوة والعشاء لاستكمال الأعمال.

كانت فترة عصيبة وشاقة، ولكنها كانت مُمتِعة؛ لأنك ترى التغيير يَحدُثُ يوميًّا، وترى أن هناك أملًا أن تَجِدَ المبنى مُناسِبًا لبدء العمل، خصوصًا وأنَّ العمل كان يُديره الدكتور «سالم» وكأننا جميعًا أسرة واحدة، وكأن الجميع أصحاب بيت وليسوا موظفين أو متعاقدين، وهذا كان مُهِمًّا وحيويًّا.

تَمَّ تجهيز المبنى، وليتنا ما أنهيناه؛ لأنَّ الدكتور «سالم» الدؤوب النشيط لن يجلس بدون أن يُطَوِّرَ أو يُحدِث شيئًا، ولا بُدَّ أن يستفيد من كُلِّ الخبرات والإمكانيات المتاحة لديه لخِدْمَة هذا المكان.

بدأنا نُخَطِّط لتنظيم العمل الإداري، وأيضًا الجداول الدِّراسيَّة وانتظام العملية التعليمية.. ثم هَدَأت الأمورُ نِسبيًّا، وبدأ العمل يسير ضمن إمكانيات محدودة، ولكنها كافية لتحقيق الهدف، ولكن سُرعان ما بدأ الدكتور «سالم» مشروعَه الجديد، وهو البحث العلمي، وبدأ يَقودُ فريق عمل من الباحثين المتميزين بالكلية، للبدء في تفعيل مركز البحوث، والذي كان ضمن خُطَّة كلية العلوم، وقام بتعييني مُشرِفًا على المركز، وطلب أن أقوم بشرح كيفية تقديم مشاريع بحثية للزملاء، وتشجعيهم على صياغة مشاريع بحثية، للبدء في العمل البحثي بالكلية.

ولم يكتفِ بذلك، بل قام بصفته عضوًا في مجلس الجامعة بطلب أن تمثل فروع جامعة طيبة مثل فرع "العلا" و"ينبع" في مجلس البحوث الخاص بعمادة البحث العلمي بـ"المدينة المنورة".

ورشَّحني لهذا المنصب، ليتم بالفعل ولأول مَرَّة تمثيل للفروع بمجلس عمادة البحث العلمي، وأيضًا لأول مَرَّة يتم تمثيل عضو متعاقد وليس سعوديًّا في هذا المجلس المُوَقَّر.

ولقد عَمِلْتُ مع أعضاء المجلس المُوَقَّر برئاسة الأستاذ الدكتور «أحمد الجريد»، ونتج عن هذا النشاط أَنْ حَصَلَتِ "العُلا" على مشروعين بحثيين في العام الأول، ثم تلتها مشاريع أخرى في الأعوام التالية.

لقد كانت بداية البحث العلمي في كلية العلوم والآداب بـ"العلا" منذ هذا التاريخ، وبهذه الطريقة المتميزة التي شرع في تنفيذها وأَصَرَّ عليها الدكتور «سالم»، والحَمْدُ لله نرى الآن فرع "العلا" يُنجِزُ الأعمال التدريسية وأيضًا الأعمال البحثية.

استقرَّت الأُمور نسبيًّا بالكليات، وبدأ يتضح أن هناك كليات واعدة تعمل بإمكانيات بسيطة، ولكنها تُدارُ بحِكْمَةٍ وبِهِمَّةٍ ونشاطٍ، وهذا ما عَهِدْتُه على الدكتور «سالم».

هو بالفعل رَجُلٌ عَمَلِي، لا يتطلع إلى الأعمال السطحية، ولكن يهتمُّ بالأعمال الحقيقية التي تعودُ بالنَّفْعِ على المكان، ودائمًا كُنتُ أقول: «إنَّ هذا الرَّجُل مُحِبٌّ لوطنه وبلاده، بدليل أنه لم يتوانَ في الاستفادة من كُلِّ خِبرات المتعاقدين والسعوديين في تطوير المكان»، وهذا الشيء شجعني كثيرًا على مساعدته ومشاركته فيما كان يُخَطِّطُ له.

سارت الأمور على ما يُرام بالكلية، واتَّضح أن هناك نظامًا تعليميًّا وبحثيًّا مُرَتَّبًا ومُنتَظِمًا، وبدأت الجامعة تُوقِنُ أن فرع "العلا" يسير في الاتجاه الصحيح.

ولأن الدكتور «سالم» يُؤمِنُ أن الحياة الهادئة ليس بها مُتعة، ولا بُدَّ أن نُنجِزَ مَهامَ المدنية جديدة، ولا يَجِب أن يجلس أعضاء هيئة التدريس والطلاب والإداريون يُؤدون أعمالًا روتينية يومية فقط. وهنا بدأ يُفَكِّر في إقامة مؤتمر عِلْمي ضخم تستضيفه "العُلا"، ويكون على أعلى مستوى.

وكعادته اقتنع بالفكرة، وبدأ اتِّخاذ الخطوات الجديَّة لتنظيم المؤتمر، وتواصل مع الجامعة وهيئة السياحة والآثار آنذاك، ووافق المقام السامي على عقد المؤتمر الدولي، وتشكَّلت اللجان من الجامعة والهيئة، وبدأت السفريات لـ"الرياض" و"المدينة المنورة" والاجتماعات الدورية في كُلِّ الأماكن، وبدأنا حصر الفنادق والقاعات المُتاحَة بـ"العُلا" لاستضافة المؤتمر، خصوصًا أن الدكتور «سالمًا» حرص أن يكون مؤتمرًا عالميًّا، تحضره جميع الجنسيات، وبالتالي وضع هذا عبئًا كبيرًا على لجان المؤتمر.

استمرَّ العمل فترات طويلة، وأخذ مجهودًا كبيرًا، وبالفعل عُقِدَ المؤتمر بمحافظة "العلا"، وكان بكُلِّ المقاييس مؤتمرًا ناجحًا باعتراف الجميع، ويكفي الدكتور «سالمًا» فخرًا شهادةُ فريقِ هيئة السياحة والآثار، والذين تمرَّسوا ونظَّموا مؤتمراتٍ عديدةً خلال عَمَلِهم، ليشهدوا بأن هذا المؤتمر كان من أنجح المؤتمرات التي شاركت فيها الهيئة، ولولا مجهود ومثابرة الدكتور «سالم» والدعم من جامعة طيبة لما تحقَّق هذا العمل الضخم.

وهنا أعود لشخص الدكتور «سالم» وأتخيَّلُ مشاعِرَه أنْ يرى أفكاره قد تَحَوَّلت إلى واقع وحقيقة، نعم تَعِبَ الجميع، ومَرَّ الجميع بظروف وفترات غاية في الصعوبة، ولكن لن يأتي النجاح والتقدُّم إلا بأفكار غير تقليدية تستحق التعب والعناء.

والواقع كُنتُ أتناقش دائمًا مع الدكتور «سالم» والأستاذ «محمد السحيمي» عن مسألة الطموح والأفكار، وكُنا دائمًا نتناقش أن الإنسان من حقِّه أن يَحْلُمَ، ويأمُلُ أن تتحقق أحلامُه، ولكن كُنا أيضًا نُؤمِنُ أن الأحلام لها حدود، ويجب أَلَّا نحلم بالمستحيل، ولكن نراعي في أحلامنا أن تكون ضمن إمكانياتنا التي تُؤَهِّلنا لتحقيق تلك الأحلام، وهذا دائمًا ما كُنتُ أنا والأستاذ «محمد السحيمي» ننظر إليه ونناقشه مع الدكتور «سالم»، لمعرفة ما هو الممكن وما هو غير الممكن، ودائمًا ما كُنا نَصِلُ لاتفاق؛ لأن الدكتور «سالمًا» يحترم الآراء ولا يتجاهلها، ويناقش، وما يراه مُقنِعًا يُنَفِّذه، وما يراه غيرَ مُقنعٍ لا يُكلِّف الأشخاصَ بالسَّير في حَمْلِه، ولكنه يُديره بطريقته الخاصة، وهذا كان مُريحًا كثيرًا في التعامل مع شخصية الدكتور «سالم».

مرَّت الأيَّام، بل السنوات بالعمل في الكلية، ولا أظن أنَّنا جلسنا يومًا بدون فكرة أو مشروع أو خُطَّة، وأصبح الفرع شُعلَةً من النشاط والعمل، وأصبح الفرع يُدَرِّس دبلومات للغات والكمبيوتر لخِدْمَة المجتمع المدني، ليس فقط بـ"العُلا" ولكن بجميع محافظات منطقة "المدينة المنورة".

هكذا بدأ العمل بفرع جامعة طيبة بـ"العلا" مع الدكتور «سالم» وفريقه، وقبل أن تنتهي الفترة القانونية لإشرافه على الفرع وعمادته للكلية كان وبفضل الله ثُمَّ بمجهوده الكبير ومعركته الكبرى في الحصول على قطعة أرض كبيرة بمحافظة "العلا"، وموافقة الجامعة على بناء كليات جديدة لشطر الطالبات، وأخرى لشطر الطلاب مُجَهَّزَة بجميع الإمكانيات المطلوبة، ولله الحَمْدُ حضرنا جميعًا افتتاح مبنى فرع جامعة طيبة بمحافظة "العلا"، وهذا عمل أظن أن الدكتور «سالمًا» يَجِب أن يكون فخورًا به طوال حياته؛ لأنه قدَّم خِدْمَةً جليلة ليس فقط لسكان "العُلا" ولكن لسكان منطقة "المدينة المنورة" والمنطقة الشمالية الغربية لـ(المملكة)، وإن شاء الله سيكون هذا الصرح منارةً للعِلْم والعلماء في (المملكة).

نسألُ الله سبحانه وتعالى أن يحتَسِبَ تلك الأعمال في ميزان حسنات الدكتور «سالم»، وأن يَأجُرَنا سبحانه وتعالى على ما قُمنا بعمله في هذا البلد الجميل.

نسألُ الله تعالى أن يُوفِّق (المملكة العربيَّة السعوديَّة) والقائمين على أَمْرِها لما فيه الخير والسَّداد، وأن يُكثِر من الرِّجال الذين يعملون لمصلحة هذا البلد الأمين.

مقابلة مُثْمِرة على الصَّعِيدَيْن العِلْمي والإنساني

بقلم: د / «فاتن محمد عدلي»

أستاذ مشارك بالمركز القومي للبحوث التربوية والتنمية

لم أَكُن أتخيل أَنْ أُسافر لـ(السعودية) يومًا ما؛ فالقيود الاجتماعية تُخيفُني بِشِدَّة، ولم يَكُن هناك نِيَّةٌ مُطلَقًا لمغادرة (مصر)، ولكن إرادة الله فوق الجميع؛ حيث فاجأتني صديقة تُحِبُّ العمل بـ(المملكة) أنَّهم في حاجة إلى أساتذة مشاركين، ومن كثرة إلحاحها وافقتُ أَنْ أتقدَّم بشرط أن تصطحِبَني.

وبالفعل ذهبتُ إلى الملحقية الثقافية السعودية بـ(القاهرة) برفقة صديقتي مُقَرِّرَةً أَنْ أذهبُ كما أنا بِزَيِّي المُعتاد، وبدون غطاء رأس، وأكاد أكون السيدة الوحيدة بهذه الهيئة، فعادةً ترتدي السيدات لبسًا مغايِرًا لطبيعتها بمثل هذه المقابلات الوظيفية، وفقًا بالطبع لطبيعة الوظيفة.

وكان في المقابلة الشخصية د. «سالم البلوي» الذي استقبلني بوَجْه باسم، أزاحَ عنِّي عِبْءَ التوتُّر أو اختِلاق حِيَلٍ للهروب من فرصة السَّفَر. وأخذتِ المقابلةُ شكلًا وَدودًا، تحدثنا فيه عن التعليم، والمعلوماتيَّة، وتبادُل الخبرات البحثية والمهنية. ولم أشعر بالوقت إطلاقًا. إلَّا أنَّني فوجئتُ بصديقتي تقول بأنَّني قد أخذتُ وقتًا طويلًا في المقابلة، شَكَّتْ معه أنه ممكن قَبولي..

في الحقيقة.. كانت المقابلة مُثمِرَة على الصعيدين العِلْمي والإنساني. وبخاصةٍ أنها كانت المَرَّة الأولى التي أتعاملُ فيها بشكلٍ مباشرٍ مع رَجُل سعودي.

والحقيقة.. أن مقابلتي مع سيادته غَيَّرت كثيرًا من الصورة الذهنية التي تعلَّقتْ في مُخيِّلَتي عن الرِّجال العرب أنهم لا يتعاملون مع النساء، وعندما يتعاملون تكون المعاملة في أضيق الحدود الممكنة.. ولكن وَجَدْتُ الدكتورَ «سالمًا» شخصًا مُتفتِّحًا، مَرِحًا، مُتَقَبِّلًا الاختلافات الفكرية والعِلْمية. وفي نهاية المقابلة لم يَعِدْني بالقَبول إلا إذا تَمَّ اعتذار زميلٍ آخَر في نَفْس التَّخَصُّص.

وبعد يوم تلقَّيْتُ اتصالًا بصوتٍ مُرحِّبٍ، جعلني أشعرُ أنَّه أحد الزَّملاء العرب الذي أعرفه من زمن، يُخبرني بقَبولي، وضرورة التَّوجُّه بكامل أوراقي للملحقيَّة الثقافية لتوقيع العقد.. ورَحابَةُ الصَّوتِ بَدَّدتْ داخلي كُلَّ مَخاوف السَّفَر.

وفي يوم توقيع العقد أتذكَّر جيِّدًا أنَّني سألتُه إذا كان له جذور مصرية لقرابة الأداء بالأداء المصري المَرِح، دون أدنى تجاوز قد يُقلِق الطرف الآخَر. وممَّا زاد ترحيبي بالسَّفَر ما أضافه لي من معلومات عن مدينة "العُلا" التي أحببتُها - وما زِلْت - قَبْلَ أن تطأها قَدَماي.

ومع أول يوم لاستلام العمل فوجئتُ أنَّ الكلية تَعرِفُ عني وعن خبراتي الكثير، رُبَّما لو قدَّمْتُ نَفْسِي بِنَفْسي لم أَكُن أُقدِّمُها بهذا الشكل المُشَرِّف.

كثيرٌ من المواقف الرائعة التي خَبِرتُها مع رئيس عمل وزميل وأخ عزيز جَعَلَتْ من تجربةِ الغُربةِ تجربةً ثَرِيَّةً حافِلَةً بالمواقف المُشَرِّفة، التي كُلَّما تَذَكَّرتُها ابتَسَمْتُ، ودَعَوْتُ لكُلِّ مَن تعاملتُ معهم بالخير والحُب، بعيدًا عن أيِّ مصالح أو اختلافات تشوب التعامل الصَّادق مع الجميع.

الخطوات الواثقة

بقلم: د / «عبد الرحمن المقبل»
قسم اللُّغة الإنجليزية - كلية العلوم والآداب بالعلا - فرع جامعة طيبة
الوطن: الجمهورية اليمنية

الزمان: ١ ربيع الثاني ١٤٣٤هـ، الموافق ١١ فبراير٢٠١٣م.

المكان: "العلا"-قاعة الحفل الافتتاحي للمؤتمر الأول للسياحة والآثار بـ(العلا".. (تحدِّيات– وتطلُّعات).

يَدعو مُقَدِّم الحَفْل سعادة الدكتور «سالم عبد الرحمن البلوي» المُشرِف على فرع جامعة طيبة بـ"العلا" وعميد كلية العلوم والآداب لإلقاء الكلمة الترحيبيَّة بضيوف المؤتمر من الأُمَراء وكِبار الضُّيوف والخُبَراء من كافَّة دُوَل العالَم المُهتَمِّين بـ"العُلا" وآثارها.

يتقدَّم الدكتور «سالم» بخُطوات واثقة الى المِنَصَّة للترحيب بضيوف المؤتمر، تلك الخُطوات اختصرت كُلَّ شيء: اختصرت الماضي والحاضر والمستقبل.

نعم.. اختصرت الماضي؛ فالمؤتمر لم يكن وليد لحظة، بل تطلَّب أيامًا وشهورًا من التخطيط والعمل الجاد كان خلالها الدكتور «سالم» لا يكاد ينام أو يرتاح.

منذ اليوم الأوَّل لي في كليَّة العلوم والآداب بـ"العُلا" وأنا أُشاهد الجُهد الكبير الذي يَبذُلُه الدكتور في تسيير أمور فرع الجامعة، وحَلِّ مشاكله، وبخاصةٍ وأن فرع "العُلا" كان ما زال وليدًا وفي فترة تحتاج الكثير من الجُهد والتَّعَب.

ورغم ذلك فاجأ الجميع بأنه ينوي إقامة مؤتمر دولي للسياحة والآثار في "العُلا"، ولأنَّه رَجُلُ أفعال لا أقوال.. بدأ في عقد الاجتماعات والتخطيط للمؤتمر، وعَمِلَ ليلَ نهارَ حتى صار الحُلْمُ حقيقة!!

اختَصَرت خُطواته من مقعده إلى المِنَصَّة ليُلقي كلمته الحاضرة؛ فيومها "العُلا" ولأوَّل مَرَّة في تاريخها تستقبل تلك الكوكبة من الضيوف من الأُمَراء و المسؤولين والخُبَراء والمُتخصِّصين لعقد المؤتمر بهدف إبراز الدَّور الحضاري للإنسان في محافظة "العُلا"، واستعراض سُبُل حماية التُّراث الثقافي والعُمراني فيها، وبحث أَوجُه التَّوظيف الاقتصادي لموارد التراث الثقافي وعَرْض التجارِب والتطبيقات العمليَّة للتنمية المُستدامَة في مجال الآثار والسياحة، واستعراض المُقوِّمات السياحيَّة في محافظة "العُلا" وتبادُل الخِبْرات في مجال الآثار والسياحة، وتعزيز آفاق التَّعاون بين القطاعين العام والخاص في مجال السياحة والآثار.

هذه كانت أهداف المؤتمر الرئيسة التي من خلالها فتح المؤتمر آفاقًا جديدة لـ"العُلا" وأهلها.

اختَصَرَتْ خطوات الدكتور «سالم» المستقبل.. مستقبل - "العُلا" - فقد كان المؤتمر نقطةَ تحوُّل في تاريخ محافظة "العُلا"، وما تشهده "العُلا" اليوم من تطوُّر في كافَّة المجالات هو من ثِمار المؤتمر الأوَّل للسياحة والآثار بـ"العُلا"؛ فقد فتح عيون العالَم على أهمية "العُلا" كمركز تأريخي حضاري سياحي، ولَفَتَ الأنظارَ إلى أهمية التَّوظيف الاقتصادي للمواقع التَّاريخيَّة والسياحيَّة، وهو ما تَحرِص عليه الهيئة الملكيَّة لـ"العُلا".

لقد اخترتُ الموقف هذا بالذّات لأنَّه يَجُول بخاطري كُلَّما رأيتُ التطوُّرَ الذي تشهده "العُلا" والفعاليات السياحيَّة المختلفة من شتاء طنطورة وغيره فأتَذَكَّر بُعْدَ نَظَر الدكتور «سالم» وخُطواته الواثقة نحو المِنَصَّة ليقولَ لضيوف المؤتمر وللعالَم أجمع: «مرحبًا بكم في "العُلا"».

تنمية فرع جامعة طيبة بمحافظة العلا في الفترة بين ١٤٣١ - ١٤٣٤هـ

بقلم: د / «نعيم حسين غالي»
كلية العلوم والآداب بالعُلا سابقًا
الوطن: الجمهورية التونسية

بسم الله والحَمْدُ لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ..

كان التحاقي بكلية العلوم والآداب بـ"العُلا" في شهر شوال من عام ١٤٣١هـ، وعند وصولي لـ"العُلا" مع مجموعة من الدكاتره من جنسيات مختلفة من (تونس) و(الجزائر) و(مصر) و(الأردن) و(سورية)..

كان في استقبالنا سعادة العميد والمُشرِف على فرع جامعة طيبة بـ"العُلا" الدكتور «سالم بن عبد الرحمن البلوي»، وكان كثير الاهتمام بوضع الوافدين الجُدُّد من سكن وإعالة، وسَلَّم كلًّا مِنا مبلغًا ماليًّا على وَجْه السُّلْفة لنتدبرَ أُمورَنا.

بدأنا في تشكيل نواة علميَّة من أفضل أعضاء هيئة التدريس بالكليَّة وتعدَّدت الاجتماعات والجلسات، وكُنا نتداول مواضيع ذات أهمية عالية من زاوية أكاديميَّة ومجتمعيَّة وتنمويَّة.

وتُوِّجَت هذه الحوارات بتبنِّي فكرة بحثيَّة تحترم الخصوصيات الحضارية لمحافظة "العُلا"، وتَهدِفُ إلى تنمية السياحة الثقافية والزراعية لتتحوَّل "العُلا" لوجهة سياحية عالمية.

وكان سعادة العميد د. «سالم البلوي» يعمل في صمت وبشجاعة الفرسان.. يقود فريقًا من الباحثين على مستوى عالٍ، ساهم في وضع لَبِنَة عِلْمِيَّة هدفُها تثمين الكنوز التاريخيَّة والحضاريَّة لمحافظة "العُلا" واستثمارها لإنشاء وجهة عالميَّة للسياحة الثقافيَّة والطبيعيَّة والأثريَّة.

كان دائمًا يُردِّدُ كلمات لا تزال في مسامعنا.. «هدفنا هو خِدْمَة "العُلا" و(المملكة العربيَّة السعوديَّة) من موقعنا كباحثين».. «علينا أن نستكشف فُرَص تحقيق التنمية للوطن الغالي».. «علينا أنْ نخدم المجتمع السعوديَّ ونُمَهِّد له طريق التقدُّم».. «هذه هي مسؤوليتنا كعلماء وباحثين».

لَقَدْ غَرَسَ في أعضاء فريق العمل حُبَّه لوطنه وخِدْمَة المجتمع السعودي إلى درجة أننا كمقيمين أجانب صار لدينا إحساس عميق بالمسؤوليَّة لخِدْمَة الدولة السُّعوديَّة بنَفْس مستوى شُعور الإخوة السعوديين بحُبِّهم لوطنهم والتَّفاني في خِدْمَته.

مَجْموعَةُ إِنْسان

بقلم أخيكم المُحِب / «المرابط محمد يسلم الشنقيطي»

الأستاذ المشارك بكليَّة الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة طيبة بالمدينة

في عام ١٤٣٠هـ تأسَّس فرع جامعة طيبة وتولى قيادته رَجُل من أبناء المحافظة اسمه د. «سالم بن عبد الرحمن البلوي»، فتفاءَلْنا باسم الرَّجُل «سالم».

ولما رجعنا إلى الخَبَر في موقع الجامعة وَجَدْنا - من خلال تعليقات القُراء على الخَبَر - سيلًا من الثناء والمَدْح والترحيب؛ فـ«سالم بن عبد الرحمن البلوي» شخصية مشهورة من أبناء قبيلة "بلي" المشهود لهم بالشهامة والنُّبْل والكرم.

وفي أول اجتماع للعميد الجديد بأعضاء هيئة التدريس، واختيار القيادات.. اختارني العميد الدكتور «سالم البلوي» وكيلًا له لشؤون الطلاب، واستمرَّت علاقتي بالدكتور «سالم البلوي» يجمعنا العمل الأكاديميُّ مَعًا لمدة أربعة أعوام من العمل والتَّأسيس والبناء والتَّطوير لفرع جامعة طيبة بـ"العلا" حتى انتهاء مُدَّة عمادته للكلية وإشرافه على فرع الجامعة بـ"العُلا".

وفي افتتاح الفرع شَرُفتُ باختياري مُقدِّمًا للحفل في حفل استثنائي بهيج وتنظيم منقطع النظير حسب شهادة الكثيرين، ومنهم: المشرف على فرع جامعة طيبة بـ"ينبع" الذي طلب منِّي في نهاية الحفل تزويده بالآليَّة التي تَمَّ بها التَّنظيم.

<u>"كاريزما" الدكتور/ «سالم البلوي»:</u>

ومَنْ يُخالِط الدكتور «سالم البلوي» يُلاحَظ أنَّه يتميَّز بصفات قياديَّة شكلًا ومضمونًا؛ أمَّا من ناحية الشكل فقامته الفارعة وهندامه المُرَتَّب الجميل، والابتسامة التي لا تُفارِق مُحَيَّاه، وأمَّا فيما يتعلَّق

بالمضمون فلَيِّنٌ جانِبُه، وتواضعه تواضُع الكِبار، واحترامه لجميع منسوبي الفرع ووقوفه إلى جانبهم في السَّراء والضَّراء، وفَتَحَ قَلْبَه قَبْلَ باب مكتبه للزُّوار والمُراجعين، وقضاء حوائجهم، وحَلَّ مشكلاتهم في الإطار الذي يُتيحه النظام، وتقديره لعوائد المجتمع المتمثِّلة في الاحترام والتوقير وخصوصًا لكِبار السِّن، وكان يقول لحُراس الأَمْن: «إذا جاءكم كبير في السِّن فافتحوا له الباب، وأَدخلوه عليَّ مُباشرة».

وكانت هذه السِّمات الشخصية تَفرِض على كُلِّ مَنْ جالَسَ الدكتور «سالم البلوي» من الناس والمُراجِعين الاحترام والتقدير، وكُنا نقول - نحن أعضاء هيئة التدريس - في قاعة الاجتماعات: «إنَّ هذا الرَّجُل يَصلُح للقيادة فعلًا».

القُدرة على اتِّخاذ القرار:

فعندما تَمَّت الموافقة على إنشاء فرع الجامعة بـ"العلا".. اتَّخذَ المُشرف على الفرع الوليد قرارًا جريئًا بإطلاق برنامج الانتظام لدراسة الطلاب والطالبات في جميع التخصُّصات بالكليَّة الوليدة، إضافةً إلى إطلاق برنامج الانتساب مدفوع الثمن، وكان قرارًا مصيريًّا وجريئًا؛ لحداثة التَّجْرِبَة، وقِلَّة المصادر البشرية والكادر الأكاديمي بالكلية؛ لكن الله يَسَّر الأمر، ونجحت التَّجْرِبَة.

لقد كان يجمَعُنا في أي وقت من ليل أو نهار في قاعة الاجتماعات بالكليَّة، أو في منزله العامر، فيعرض علينا بعض القرارات التي ينوي اتِّخاذها، فيستمع لآراء الجميع قَبْلَ اتِّخاذ القرار المُناسب، وكانت معظم هذه الاجتماعات تستمرُّ حتى بعد منتصف اللَّيل؛ بالرغم من أنَّ الجميع لديهم محاضرات تتطلَّب حضورهم إلى الكليَّة مُبَكِّرًا في صباح اليوم التالي، وأوَّلهم عميد الكليَّة الدكتور «سالم البلوي»؛ مما جعل منسوبي الكلية من أعضاء هيئة تدريس وموظفين يُؤدُّون تلك الأعمال، ويقومون بتلك التكاليف بكُلِّ حُبٍّ وارتياح، وبروح الفريق الواحد، كما قال المتنبي:

وإذا كانت النُّفوس كبارا تَعِبَتْ في مُرادِها الأَجسامُ

مواقف اجتماعيَّة:

ولمَّا كان الدكتور «سالم البلوي» يرجع إلى محيط معروف بالشَّهامة والكرم والسَّخاء والنَّخوة.. أقصد قبيلة "بلي" العربيَّة.. فلم نستغرب ما كان يتميَّز به في هذا الجانب؛ فهو رَجُل اجتماعيٌّ بطَبْعِه؛ فلم تمنعه شواغل العمل الإداري والاجتماعات المتكرِّرة، وزياراته المتتالية لإدارة الجامعة بـ"المدينة المنورة" من تنظيم دعوات في منزله، وترتيب رحلات بَرِّيَّة يدعو لها جميعَ منسوبي الفرع، من أعضاء هيئة التدريس، والموظفين الإداريين، تبدأ من أوَّل النَّهار وتستمرُّ حتى غروب الشَّمس، في ضواحي محافظة "العُلا"، وأحيانًا في "ديرة" الدكتور «سالم البلوي» "الخشيبة"، فكانت تلك الطَّلعات فرصة لتعارف الجميع والتآلُف بين قلوبهم، وفيها كَسْرٌ لروتين العمل اليومي الثقيل، وتناقَش فيها أوضاع الفرع بكُلِّ حُرِّيَّة وعفويَّة، وبطريقة ترفيهيَّة، تتخلَّلها وجبات دسمة تتقدَّمها "الكبسة" اللَّذيذة المعمولة بلحم "الطليان" البريَّة.

مواقف أدبية:

لم نكن نعلم أنَّ المشرف على الفرع وعميد الكلية الدكتور «سالم البلوي» شاعر نبطيٌّ من الطراز الأول؛ حتَّى سَنَحَت لنا الفرصة ذات مساء من مساءات الكليَّة؛ حيث كُنا في قاعة المسرح بالكليَّة نقوم بعمل "بروفة" لإحدى الحفلات التي سيُقيمها الفرع، فلما صعد الدكتور «سالم البلوي» المِنَصَّة طلب منه أحد أصدقائه المُقَرَّبين أن ينشدنا إحدى قصائده الشعرية؛ ليكسر الروتين، ويُلطِّفَ الأجواء؛ فتحول سالم البلوي - مباشرة - من شخصية العميد إلى رُوح الشاعر وخيَّال القصيد، فشنَّفَ أسماعَنا بقصيدةٍ نبطيَّةٍ جميلة.

مواقِفُ إنسانيّةٌ:

إذا تحدَّثنا عن إنسانيَّة «سالم بن عبد الرحمن».. فهو مجموعة إنسان كما يُقال؛ فالجانب الإنسانيُّ أبرز ما يُمَيِّز شخصية الرَّجُل؛ فـ«سالم» إنسان يُضَحِّي بصحَّته ووقته في سبيل نَفْع الناس وفي مساعدتهم، ولعلَّ هذا الأثر نابِع من قِيَمِ التواضُع والكرم اللَّتين يتحلَّى بهما الرَّجُل كما ذكرنا آنفًا، فمِن تلك المواقف:

شاهدتُه يأخذ ملفات الطلبة ويذهب بها - بنَفْسِه - إلى إدارة الجامعة بـ"المدينة المنورة" ليشفع لهم في القَبول. ومن أغرب تلك المشاهدات: أنَّه قد يُمَكِّن بعض الطلاب من الدِّراسة، وملفاتهم ما زالت على مكاتب مسؤولي الجامعة بـ"المدينة المنورة" في طريقها نحو القَبول؛ لشدَّة حِرْصِه على مصلحتهم.

وقد بَذَلَ مالَه الخاص؛ حيث قدَّم قروضًا مُيَسَّرة لأعضاء هيئة التدريس المتعاقدين الجُدُد، وممَّن استفاد من تلك القروض كاتِب هذه السطور؛ فقد طلبتُ من الدكتور «سالم البلوي» استدانة مبلغ (٥٠٠٠٠) خمسين ألف ريال إلى أَجَلٍ تَمَّ تحديدُه بيني وبينه، من غير أن يشهد على ذلك الدَّيْن أحد من البَشَر، واللهُ خير شاهد، وعندما حان أَجَلُ الدَّيْن سَلَّمْتُه المبلغ مشكورًا وداعيًا له بالتوفيق.

وهذه التعاملات الماليَّة هي التي تُبرِزُ مَعدِنَ الرَّجُل؛ كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تغرَّنَّكم طَنْطَنَةَ الرَّجُل في صلاته؛ انظروا إلى حاله عند درهمه وديناره»[١].

ولهذا قيل:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسلا	وأَنــتَ بها كَلِـفٌ مُـغــرمُ
فَأرسلَ حكيمًا ولا توصِهِ	وذاكَ الحكيمُ هُوَ الدِّرهَمُ

---

(١) والطنطنة: الصوت.

ومن المواقف الإنسانيَّة التي لا أنساها - أنا شخصيًّا - لصديقي الوفي الدكتور «سالم بن عبد الرحمن»: أنَّي احتجت في إحدى المرات لتقديم مُعامَلَة إلى إمارة منطقة "المدينة المنورة"، فطلبتُ من الدكتور «سالم» الشفاعة لي في ذلك، فوافق على الفور، وحدَّد لي موعدًا لنُراجِعَ الإمارة معًا، وعند حضوري في الموعد المُحَدَّد فوجئت بالدكتور «سالم» يسبقني إلى مبنى الإمارة، ويُرتِّب دخولنا على أمير"المدينة" بنهار رمضان، وهو صائم في الحَرِّ الشَّديد، وقانا الله وإياه حَرَّ يوم القيامة.

وأخيرًا.. فإنَّ عَلاقتي بصديقي الغالي الدكتور «سالم البلوي» لم تنقطع ولله الحَمْدُ منذ أن عَرَفْتُه؛ فما زال حَبْلُ الوُدِّ بيننا موصولًا؛ رغم انتقالي من الفرع من عِدَّة سنوات؛ فمن الصعب على مَنْ تعرَّف على شخصيته أن ينساه؛ لأنه من الرِّجال القليلين، كما قال الإمام الشافعيُّ رَحِمَه الله:

وما أَكثَرَ الإخوانَ حينَ تَعدُّهم ... ولكنَّهم في النَّائباتِ قليلُ

وكما قُلْتُ أنا:

ماذا أُسَطِّر في جوانب شخصكم؟ ... متواضِعٌ كالبدرِ.. يعطي.. حاتِمُ

وإذا يقولُ النَّاس هذا شخص مَن؟ ... مجموعة الإنسان.. هذا سالِمُ

وصلى الله وسَلَّم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه.

كَلِمَةُ حَق للتَّاريخِ

بقلم: الدكتور / «محمد فتحي»
كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

أَكتُبُ هذه السُّطور بعد أنِ انتهتِ العَلاقاتُ الرَّسميَّة من سَبْعِ سنوات مَضَت، وهذا له دلالتُه؛ فقد يُتَّهَمُ المرءُ في شَهادته لعِدَّة أسباب، ولكني أَخُطُّ شَهادتي بعد عودتي لوطني بأربعة أعوام، وإحالتي إلى التقاعُد؛ فلستُ طامِعًا في أيِّ شيء مما قد يجعل الخُبَثاء - وهم كُثر في هذا الزمان - يتعرَّضون لشَهادتي.. فلا وصاية ولا ولاية ولا مَطمَع.

عندما تَوَجَّهت لـ"العُلا" بأوَّلِ عام من إعارتي بكلية البنات أحسستُ بنهايتي؛ فقد كنت في دار العلوم جامعة القاهرة المسؤول عن الأنشطة الطلابية من ندوات ومهرجانات ومعسكرات، ثُمَّ ذهبتُ لِأَجِدَ نَفْسِي أُحاضِر عَبْرَ شبكة تلفزيونيَّة بدائيَّة، ولا يُوجد لنا أي وظيفة سوى التَّلقين.

فَكَّرْتُ في العودة وإنهاء عقدي، ولكنِّي عَلِمْتُ بأنَّ هناك احتمالًا كبيرًا لافتتاح فرع للبنين، وسنقوم بالتدريس التفاعلي مع الطلاب، وعقب عودتي من الإجازة الصيفيَّة وَجَدْتُ تطوُّرًا هائِلًا لا يُصدِّقه عَقْل؛ فقد تمَّ استِئجار مبنى جمعية تحفيظ القرآن، وقد تَمَّ إعدادُه في فترة وجيزة جِدًّا ليكون مَقَرًّا لفرع البنين، وتَمَّ استقدام عدد كبير من أعضاء هيئة التّدريس من (تونس) و(سوريا) و(الأردن) و(مصر).

وفي أَوَّل اجتماع لنا مع عميد الكلية الدكتور «سالم بن عبد الرحمن البلوى».. وَجَدْتُ رَجُلًا من طراز فريد، يتَّسِمُ بالجسارة والإقدام وفرط النشاط، والطموح اللامحدود للوصول بالفرع إلى أعلى المستويات في زَمَنٍ قصير جدًّا بالقياس للإنجاز.

والدكتور «سالم» يجمع بين المتناقضات حَزْمٍ وحَسْمٍ ولِين، لا تُفارِقُه ابتسامةٌ ودودة مع إعطاء أوامر صارمة وانضباط يُغْبَطُ عليه؛ فهو بلا مُبالَغة أوَّل مَن يَحضُر الكليَّة، وآخِرُ مَن يُغادِرُها!

فَهُوَ يُؤْمِنُ بسياسة الباب المفتوح، ويُؤْمِنُ بأهمية الأنشطة الطلابيَّة ودورها في صقل المواهب ورَبْط الطالب بالجامعة والمجتمع.

وسياسة الباب المفتوح جَعَلَتْهُ قريبًا من الجميع.. الطلاب والأساتذة والإداريين وأهالي "العُلا"، وكُنتُ - مع إعجابي الشديد بنشاطه وطاقته - أُشْفِقُ عليه من حجم الأعباء والمقابلات اليوميَّة، ولكنَّها سياسة أثمرت كثيرًا؛ فوجدنا إقبالًا كبيرًا من رِجالٍ تجاوزوا سِنَّ التَّعليم الجامعي يَرغبون في الالتحاق ببرامج الانتِساب بالفرع.

نترك الكليَّة - جميعًا - ويستمرُّ الدكتور «سالم» في مقابلاته لِحَلِّ مشاكل الطلاب، وقد نُغادِرُ الكليَّة عصرًا ثم يُفاجِئُنا الدكتور «سالم» برسالة مُفادُها أنَّ هناك اجتماعًا عقب صلاة العشاء في مزرعته!

نذهبُ لِنَجِدَ استقبالًا حافِلًا من رَجُلٍ وَدُود شديد التَّواضُع، يقوم بنَفْسِه على خِدْمَتك، تعلو وجهَه ابتسامةٌ مُشرِقة، وبعد عِدَّة لقاءات اكتشفتُ أنَّ هذه اللقاءات - إلى جانب ما تحمله من معانٍ اجتماعية سامية - أذابت شُعورَنا بالغُربة والاغتِراب، كان لهذه اللقاءات أهدافٌ أُخرى أغلب الظَّنِّ أنَّها مقصودة.

فالدكتور «سالم» - بحِرَفِيَّة رائعة - يُحَدِّثنا عن تاريخ "العُلا"، وعن العادات والتقاليد حديثًا مُفعَمًا بالاعتِزاز بـ"العُلا" وتاريخها، ثم يُحَدِّثُنا عن حُلْمِه لهذا المكان، وأنه لم يأخذ حَقَّه الذي ينبغي أن يكون له، حَقَّه الذي يليق بموقعه الجغرافي، وطبيعته الفريدة، وتاريخه المجيد، ولعلَّ هذا الحُلْم كانَ وراء أوَّل مؤتمر علمي عالَمي يعقده الفرع عن السياحة في "العُلا".

وقد أثمرت هذه اللقاءات - داخل نفوسنا - ثمارًا طيبة؛ فقد عَقَدَت أواصِرَ حُبٍّ بيننا وبين المكان وتاريخه، وأفهمنا د. «سالم» - بقصد أو بدون قصد - عن كيفيَّة التعامُلِ مع أهالي "العُلا"، وطلابها، وكيف نتجنَّبُ المحظورات.

لقد وجَّه بُصلَتَنا جميعًا - بطريقة غير مباشرة من خلال حكايات السَّمَر الليليَّةِ - إلى ثقافة المكان، وفي المُقابِل كان يَعقِدُ جِلْساتٍ مع طلاب "العُلا" يتعَرَّف فيها على مشاكلهم، ويُرشِدُهم إلى كيفيَّة التَّعامل مع أساتذتهم والإفادة منهم.

ولكنَّ الظريف.. أنَّ هذه اللقاءات الوديَّة الحميمية.. قد تستَمِرُّ إلى مُنتَصَفِ اللَّيل، وفي الصباح نَجِدُ أَسَدًا جَسُورًا غاضِبًا؛ لأنَّ أحدَنا قد تَأَخَّر عن مُحاضَرَته خَمْسَ دقائق، وقد يَصِلُ الأَمْرُ إلى تهديد شديد اللَّهجة، فتحتارُ في أَمْر هذا الرَّجُل الَّذي كان - ليلةَ أمس - يُمازِحُنا في وُدٍّ ولُطْفٍ وبشاشة!

لكن في الحقيقة هذه سِمَةٌ من سمات الدكتور «سالم».. رَجُل يُجيد الفَصْلَ بين العلاقات الاجتماعيَّة وعَلاقات العمل.. رَجُل ذكي بالفِطرة، إداري بالدِّراسة والخِبرة.. يُحافظ - جيدًا - على مُعادَلَة المسافات؛ ففي العَلاقات الاجتماعيَّة تذوب عنده المسافات، وفي عَلاقات العمل تَجِدُ مسافات الحنكة الإداريَّة التي تجعله يُمْسِكُ بزمام الأمور، ويُحقِّقُ الانضباط الذي يرجوه.

وبحقٍّ.. مَن يجالِسُ هذا الرَّجُل.. يشعر بطاقة إيجابيَّة تُشِعُّ فيه، مصدَرُها قصَّةُ كِفاح هذا الرَّجُل الذي لا يَعرِفُ المستحيل، ولا يستسلِمُ للهزائم.. ترى فيه قولَ المتنبي يتحقق:

كُلَّ يوم لكَ احتمالُ جديد ... ومسير للمجد فيه مُقامُ

وإذا كانت النفوس كبارًا ... تَعِبت في مُرادِها الأجسامُ

وصَلِّ اللهم وسَلِّم على سيدنا ونبينا مُحَمَّد وعلى آلِه وصَحْبِه.

البصيرة

بقلم الأستاذة / «رباب الوسلاتي»

كلية العلوم والآداب سابقًا

الوطن: الجمهورية التونسية

١١ مايو٢٠١١م، تاريخٌ عَلِقَ في ذهني وجَعَلَ انطِباعًا مُمَيَّزًا في مُخَيِّلَتي، ذَهَبْتُ يومَها لإجراء مقابلة مع لجنة التعاقدات التي جاءت إلى (تونس) بغرض انتداب دكاتره مُدَرِّسين لصالح جامعة طيبة.

ها قد جاء دَوري، جَلَسْتُ قُبالَةَ إنسان مُحتَرَم وقَدَّمتُ له مِلَفِّي، عَرَّف بنَفْسِه قائلًا: «أنا الدكتور سالم عبد الرحمن البلوي عميد كلية العلوم والآداب بالعُلا والمُشرِف على فرع جامعة طيبة».. ثم قال لي بالحَرْف الواحِد: «نحن لا نبحث عن مُدَرِّس فقط، نحن نُريدُ شخصًا مُمَيَّزًا يُساعِدُنا على النُّهوض بجامعتنا إلى مصافِّ العالميَّة»، ثُمَّ سَكَتَ ونَظَرَ إلى سيرتي الذاتيَّة وقال: «أنتِ تَخَصُّص حاسب آلي» قُلتُ: «نعم»، ثُمَّ قال: «ماذا أيضًا»؟.. ودقَّق في سيرتي الذاتيَّة وإذا به يبتسمُ ابتسامةَ انتِصار، وقال: «هل تتقنين كُلَّ هذه اللغات؟.. (الفرنسية، الألمانية، الإنجليزية، الإسبانية، إلى جانب العربية»؟، قُلتُ: «نعم وبطلاقة»، قال: «إذن سوف تُدَرِّسِين الحاسب الآلي وسوف نحتاجك بعدها كثيرًا في مؤتمر دولي أنا بصدد التخطيط له».

قُلتُ في نَفْسِي: «ما هذا الرَّجُل الذي يُفَكِّرُ في اتِّجاهات مُتَعَدِّدة في الوقت نَفْسِه ويُتقِنُ كيف يُوظِّف ورقة رابحة، ما هذه البصيرة»؟

بَدَأَ العام الجامعيُّ وكان الدكتور «سالم» يشتغل ليلَ نهار، وكُنتُ - رفقة زميلاتي وزملائي - نذهب ليلًا إلى الكليَّة حتى نُكمِلَ عَمَلَنا.

الغريب في الأمر.. أنَّك لا تذهب وأنت مُكرَهٌ، بل تذهب وأنت كُلُّك تَحَدٍّ وثِقَة؛ فالدكتور «سالم» يُشعِرُك بأنَّ نجاحَه هو نجاحُك، وهو ثمار جُهدك وعطائك.

كان شخصًا إنسانيَّته تجعل منه شخصًا كامِلًا عمليًّا.. حتى إنَّنا كُنَّا نتفاجأ عندما يأتي بنَفْسِه ويُحْضِرُ لنا جميعًا وجبةَ العشاء.. كان تشجيعُه وحِرَفيَّته متواصلَيْنِ، يعلم كُلَّ كبيرة وصغيرة في كُلِّ قِسم من أقسام الكليَّة، كان يعرف الجميع ويُنصِتُ للكُل.

ها قد حانَ موعد المؤتمر الذي لطالما اعتبرتُه أولوية في دفتر مهامي، مؤتمر خَطَّط وجَهَّز له الدكتور «سالم» قَبْلَ سنوات.. مؤتمر نُقِشَ بنجاحه أَوَّلُ مظاهر التطوُّر والازدهار والانفِتاح في محافظة "العُلا".. المُؤتمر الدُّوليُّ للسِّياحة والآثار بـ"العُلا ".

خاطَبَني الدكتور قائلًا: «سوف يأتي أُناسٌ وعُلَماء، دكاتره مُختَصُّون من جميع أنحاء العالَم.. أمريكا بريطانيا سويسرا ألمانيا فرنسا.. سوف نُبَرهِن للجميع أنَّنا نستطيع التَّخاطب مع الكُلِّ، كُلٍّ بِلُغَتِهِ، قُلتُ: «سوف نُبْهِرُ الجميع دكتور».

قبل أسابيع من بدء المؤتمر كان كُلُّ شيء جاهزًا؛ فالدكتور «سالم» كان لا ينام أبدًا؛ فهذا التَّحدِّي الَّذي راهَنَ عليه يستحقُّ كُلَّ ذلك التَّعَب والجُهْد والحِرَفيَّة في العمل.

الجميع انبهر.. الجميع تفاجأ.. الجميع أَحَبَّ جوهرة السياحة والآثار "العُلا".. حتى إنَّني أذكُرُ أنَّ القنصل العامَّ الفرنسيَّ الَّذي كان من ضمن الضيوف الكِرام قال لي: «أنا جَدُّ مُعجَبٌ بالدكتور سالم.. الرَّجُل لم يَدَع شيئًا إلا أنجزه بإتقان».

ها نحن - اليوم - نَقطِفُ ثِمارَ تلك الجهود وذلك التَّعَب والعمل والمُثابَرَة، ها نحن نُعاصِرُ مهرجانًا يُضاهي أرقى المهرجانات العالميَّة.. ألا وهو "شتاء طنطورة".. وضع فيه الدكتور «سالم» حجر الأساس فاتِحًا الباب أمام السياحة والتَّطوُّر، وعلى الرُّغم من أنَّني عُدْتُ إلى بلدي.. إلا أنَّ "العُلا" وأهلَها باقون في قلوبنا.

شكرًا أيُّها الإنسان الكريم.. شكرًا أيُّها الدكتور العظيم.

فَرْعُ العُلا.. سُمُوٌّ وَشُمُوخ

بقلم: أ. د / سعد الدين إبراهيم المصطفى
الأستاذ بقسم اللغة العربية والمُشرف عليه سابقًا

هُوَ أَحَدُ فُرُوعِ جَامِعَةِ طيبة بـ"العلا" بإشراف سعادة الدكتور «سالم ابن عبدالرحمن البلوي» عَميدِ كلية العُلُومِ وَالأَدابِ والذي كان له أكبرُ الأَثرِ فِي نَجاحِ الفرعِ وَتطَوُّرِهِ؛ ذلك لأَنَّهُ بَذَلَ جُهُودًا جَبَّارةً داخِلَ "العُلا" مَشْكُورًا وخارِجَها مِن خِلالِ التَّنسِيقِ المُتَوَاصِلِ وَالمُستَمرِّ مَعَ الجِهَاتِ ذَاتِ العَلاقَةِ دَاخِلَ مَنظُومَةِ الجَامِعةِ وَالجِهاتِ الخَارِجِيَّة بِكَفَاءَةٍ عَالِيةٍ وَهِمَّةٍ كالصَّخرِ الأَصَمِّ لِلوُصُولِ بِالفَرعِ إِلَى مَصَافِّ الجَامَعَاتِ الحَديثَةِ المُتطَوِّرَةِ؛ لكي يُقدِّمَ الفَرعُ بِكُلِيَّاتِهِ بَرَامِجَ أَكادِيمِيَّةً مُتَطَوِّرةً وَاستِشَارَاتٍ وَبَرامِجَ تَدرِيبيَّةً مُتَخَصِّصَةً لِخِدمَةِ المُجتَمَعِ المَحَلِّيِّ وَالإِقلِيمِيِّ وَفقًا لِمَعَايِيرِ الجَودَةِ العَالَمِيَّةِ، وَجَعلِها قَادِرَةً عَلَى المُنَافَسَةِ عِلْمِيًّا وَعَمَلِيًّا.

وَقَد أَلقَيْتُ هذهِ الأَبياتَ تَعبِيرًا عَنْ حُبِّي للفَرعِ، ومِن بابِ حَدِيثِ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «مَنْ لا يَشكُرُ النَّاسَ لا يَشكُرُ اللّٰهَ».

١. تَأَسَّسَ الفَرْعُ وَازدَانَتْ مَعَالِمُهُ ... وَزَادَهُ أَلَقًا رُوَّادُهُ الصِّيدُ
٢. فَرعُ العُلا بِسَلامٍ صَارَ مُجتَمَعًا ... يَسُوسُهُ سَالِمٌ عِزٌّ وَتَمجِيدُ
٣. يَزُورُهُ النَّاسُ فِي عِزٍّ وَفِي شَرَفٍ ... يَبغُونَ عِلمًا وَفِيهِ الخَيرُ وَالجُودُ
٤. أَقسَامُهُ البِيضُ تُغنِي كُلَّ ذِي طَلَبٍ ... فَهْمٌ وَعِلْمٌ وَصَبرٌ ثُمَّ تَحمِيدُ
٥. قِسمُ الدِّراسَاتِ وَالتَّفسِيرِ أَجمَعُها ... فِيهِ اللُّغَاتُ وَتَارِيخٌ أَغَارِيدٌ
٦. فِيزِيَاءُ كِيمِيَاءُ أَحيَاءٌ وَحَاسُوبٌ ... ثَمَّ الرِّيَاضَةُ أَشغَالٌ مَحَامِيدُ
٧. لِلعِلمِ يَسعَى بَنُوهُ كُلَّ آوِنَةٍ ... يَزِيدُهُم عَمَلًا مُهرِيَّةٌ قُودُ
٨. فَسَالِمُ الخَيرِ فِي التَّقدِيرِ ذُو بَصَرٍ ... عَزمٌ وَصَبرٌ عَظِيمُ القَدرِ مَحمُودُ
٩. فَرعُ العُلا فِيهِ أَخيَارٌ عَمَالِقَةٌ ... فِي البَحثِ زَادٌ وَفِي التَّألِيفِ مَقصُودُ

وأَخيرًا ولَيسَ آخِرًا.. أَودُّ القَولَ: لولا الله تعالى، ثم «سالِم».. لما سَلِمَ الفَرعُ ونَشأَ وتَرعرَعَ؛ فَهُوَ الصَّبورُ الحازِمُ السَّاهِرُ المُثابِرُ لإِنجاحِ العَملِ وازدِهارِهِ بِقُوَّةٍ واقتِدار.

مدني بشخصية عسكرية

بقلم: عقيد متقاعد بالقوات البحرية الملكية السعودية
ومدير العلاقات العامة بـفرع جامعة طيبة بـ(العُلا) سابقًا/
«محمد عبد الله السحيمي»

من منطق عسكري.. الدكتور «سالم» يُمثِّلُ قائد الجيش، وكان معه مجموعةٌ محدودةٌ تشمل أَفضل أَعضاء هيئة التدريس يُشَكِّلون هيئة الأركان، فَكانَ يُعطي الفكرةَ وعلى هيئة الأركان إعداد الدراسات اللازمةِ والتي تتطلب - دائمًا - عملًا شاقًّا وطويلًا يشمل الكثير من المعلومات والإحصائيات والجداول.

وكان عمل هذه الهيئة يستمرُّ حتى ما بعد مُنتَصَفِ اللَّيل وهو يتدخَّل عند كُلِّ عَقَبَة، وفي كُلِّ الأحوال عند ذلك نجد عنده الحل، والمشكلة الرئيسة لديه أنَّ العمل الذي يحتاج إنجازُه شهورًا يُريدُ أن يُنهِيَه في أسبوع، ولقد رأيتُ بعضَ أعضاء العمل يفقد أعصابه من جراء التعب والإرهاق، فَكأَنَّ أيامَه كُلَّها عمل متواصل، وهذا مما يُمكِن اعتباره من سلبيات العملِ؛ لأَنَّهُ يُمثِّلُ انتقالًا من عمل كبير إلى عمل أكبر بدون فاصل بينهما، وهذا قد يكون مُتعِبًا لفريق العمل ورؤسائه أَيضًا.

ومن سلبياته: استنزاف فريق العمل؛ لأنَّه يُحِبُّ أن يعمل الموظفون وأعضاء التدريس بنَفْس وتيرة عَمَلِه، وهذا غير ممكن لأنه ليس بمقدور معظمهم، وهنا أَذْكُرُ كلمة لمدير إدارة الفرع في ذلك الحين حينما أَبدى الدكتور «سالم» تَذَمُّرَه من بُطء سَير عمله الإداري.. قال له المدير: إنه هو وموظفوه طبيعيون ويعملون بشكل مُعتاد والذي يُعَدُّ غير طبيعي هو أنت يا دكتور! فنحن لا نستطيع مجاراة قدرتك الفائقة على العمل ولو حاولنا، وقد تكون الفترة التي قضاها في الكليات العسكرية قد أَثَّرت في شخصيته، ولا ننسى زَجَّهُ في مواجهة الحياة القاسية في عُمر الطفولة.

ورغم شِدَّته في العمل إلا أن إنسانيته عالية جِدًّا؛ فهو دائم السؤال عن أحوال أعضاء هيئة التدريس والموظفين، ومُستَعِدٌّ - دائمًا - لِمَدِّ يَدِ العَون لِمَن يطلبه فيقوم بإقراض أعضاء هيئة التدريس الجُدُد من ماله الخاص لحين وصول مُستحقاتهم من الجامعة ويتفق مع بعض المحلات التجارية لتسهيل التأثيث وشراء الأدوات الكهربائية لأعضاء هيئة التدريس وعلى ضمانته.

ويهتَمُّ بالناحية المعنوية لأعضاء هيئة التدريس والإداريين؛ فمثلًا دَرَجَ الفرع في أيامه على تنظيم رِحْلات بَرِّيَّة في المناطق الجميلة المُحيطة بمحافظه "العُلا"؛ حيث يقوم الجميع - بما فيهم هو شخصيًّا - بإعداد وجبات الطبخ والشواء بعيدًا عن ضغط العمل. وقد أسهمت مثل هذه الرحلات في تقوية الروابط بين منسوبي الفرع من أعضاء هيئة تدريس وموظفين حتى أصبحوا كأُسْرَةٍ واحدة.

ومما يُمَيِّزُ الدكتور «سالم» قُدرَتُه الفائِقَة على الإقناع، وسياسة الباب المفتوح؛ فهو متعاون مع جميع المواطنين والطلاب وأعضاء هيئة التدريس، وبذلك كسب محبَّتَهم.

كثيرةٌ هي الذكريات مع الدكتور «سالم»، ولا يتَّسِعُ المجال لذِكْرِها، ولكن هذا غَيْضٌ من فَيْض؛ حيث يُعطي القارئَ الكريم صورةً عن الإنسان والقائد الإداري الدكتور «سالم عبد الرحمن البلوي».

أصالةً عن نَفْسي.. ونيابةً عن زملائي الخريجين

بقلم: النقيب/ «فوزان دخيل الله بن طما الأسلمي الحربي»

وزارة الدفاع

بعد مرور قرابة ثماني سنوات.. التقيتُ سعادةَ الدكتور «سالم» من غير موعد مُسبق.. جَمَعَنا القَدَرُ بأَمْرٍ من الله.. ثُمَّ الصُّدْفَة الرائعة في مدينة "جدة"، وعَرَفْتُه وبادرتُ بنداء اسمه، وفَرِحْتُ عندما التَفَتَ إليَّ وقال: «أهلًا حياك الله»؛ لأني لم أنسَ ملامِحَ ذلك الرَّجُل الكريم الذي أكرمني بحُسْن استقباله عند قَبولي في الجامعة، وعلَّمني عِلْمًا نافِعًا اكتسبْتُه أثناء دراستي عندما كُنتُ طالبًا أَدْرُسُ في جامعة طيبة فرع "العُلا"..

"العُلا" عروس الجبال.. "العُلا" الأثرية الملكيَّة التي عاش فيها عِدَّة أقوام، وكانت - وما زالت - منبع العِلْم والحضارة.

وفي ربيع الثاني من سنة ١٤٣٤هـ التاريخ الذي لايزال في ذاكرتي والذي عُقِدَ فيهِ المؤتمر الأول للآثار والسياحة بـ"العُلا" والذي نَظَّمَتْه جامعتي جامعة طيبة آنذاك بالتعاون مع الهيئة العامة للسياحة والآثار تحت شعار (تَحَدِّيات وتَطَلُّعات).. كُنتُ أحدَ الطلبة المشاركين في تنظيم ونجاح ذلك المؤتمر أنا وزملائي قرابة الثمانين طالبًا، دَعَمَنا ووقف معنا ذلك الرَّجُل الكريم عرَّاب ومُؤسِّس تلك الجامعة الناشئة بـ"العُلا" عروس الجبال الذي رأى أننا قادرون على تولِّي هذه المَهَمَّة وكُنَّا عند حُسْن ظَنِّه، وفعلًا كانت تحدِّيات وتطلُّعات..

استقبل المؤتمر أكثر من ٢٠٠ مائتي ورقة عمل من عِدَّة دول من علماء وباحثين، وتمَّت الموافقة على ٤٠ ورقة عمل طُرِحَتْ ونُوقِشَتْ خلال الثلاثة أيام بالمؤتمر، وعِدَّة محاضرات وورش عمل.

وأَتَتْ بِعِدَّة توصيات منها: التوصيات التي لا زِلْتُ أَذْكُرُها: تشجيع الاستثمار السياحي في محافظة "العُلا"، والحِفاظ على الممتلكات والثروات الأثرية ووقف الزحف العمراني والزراعي على المواقع الأثرية، وإسهام الجامعات والمراكز البحثية المتخصصة في مجال السياحة والآثار، وتفعيل الأنشطة الثقافيَّة والمهرجانات التي تدعم "العُلا" كوجهة سياحية.

ولأنَّ ذلك الرَّجُل الكريم له نظرة بأنَّ "العُلا" حضارة في الماضي وعِلْمٌ في الحاضر وخيال في المستقبل، وشخصيته تَهْتَمُّ بالتحدِّيات وتحديد الأهداف وتحقيقها.. أخذ يهتمُّ ويَصُبُّ كُلَّ جُهْدِه - بدون كَلَل ولا مَلَل - في كُلِّ ما فيه مصلحة بلده، ولتطوير "العُلا" وبنيتها التحتية..

واهتمَّ بفرع الجامعة بـ"العُلا" وطلابه وجميع منسوبيه بصفته المهنية المُشرف على جامعة طيبة فرع "العُلا" وصفته الاجتماعية كأحد رموز وكِبار أعيان محافظة "العُلا"، وخَطَّطَ ونَفَّذَ وحَصَدَ ثِمارَ ما زَرَع..

ومن بعد ذلك المؤتمر الذي بَثَّ في داخلنا طاقةً من الهِمَّة والطُّمُوح مُفعَمةً بالتحديات والمُنافَسَة الشريفة، والعمل بِرُوح الفريق لتحقيق الأهداف المرجوة مِنَّا لتمثيل جامعتنا في شتى المجالات وكافة الميادين..

بدأتُ بالعمل مع زملائي بقِسم الفيزياء وبدعم من أساتذتنا بالقِسم وإدارة الفرع على إنشاء نادٍ طلابي بجامعة طيبة فرع "العُلا"، وتَمَّ - بِحَمْدِ الله - إنشاءُ أوَّل نادٍ طلابي (نادي الفيزياء) تحت شعار: (الفيزياءُ عِلمُ العَصر).

وتوالت الأنشطة الثقافيَّة والعِلْمِيَّة والاجتماعيَّة والرياضية، وبَدَأَتْ جميعُ الأقسام بفرع الجامعة بإنشاء أندية طلابيَّة عديدة مثل: (نادي الفيزياء، نادي «الخوارزمي»، نادي الكيميائيين، نادي الأحياء، نادي الحاسب الآلي، نادي اللغة العربية، نادي اللغة الإنجليزية، ونادي الجوالة)، ومن هنا انطلقت المنافسة الشريفة بين الأقسام والأندية، والعمل بِرُوح الفريق..

وشارَكَتْ هذه الأندية الطلابيَّة - بكوادِرها وطاقتها البشرية - في العديد من المناسبات والمؤتمرات التي أصبحت تُقام بمحافظة "العُلا" بِناءً على توصيات المؤتمر الأوَّل للسياحة والآثار، وشارَكَتْ أيضًا في عِدَّة مناسبات خارج محافظة "العُلا" داخِلَ (المملكة) وخارِجَها؛ للاستفادة من خِبْرات وعلوم معرفيَّة ومُشارَكات تنافسيَّة وخِدْمَة مُجتَمَعِيَّة يحضُرُني بعضها وهي:

١- بطولة خادم الحرمين الشريفين للقدرة والتحمُّل بـ"العُلا".

٢- الرحلة الدولية الحادية عشرة للكشاف المسلم بـ(ماليزيا).

٣- مهرجان الحمضيات بـ"العُلا".

٤- زيارة جامعة الملك «عبد الله» للعلوم والتقنية بـ"ثول".

٥- زيارة جامعة الملك «عبد العزيز» بـ"جدة".

٦- رحلة استكشافية عِلْمِيَّة للبحر الأحمر بشاطئ "الوجه".

٧- زيارة جامعة الملك «سعود» بـ"الرياض".

٨- زيارة مدينة الملك «عبد العزيز» للعلوم والتقنية بـ"الرياض".

٩- مهرجان التراث العمراني بـ"العُلا".

استفدنا واكتسبنا من العِلْم والمعرفة الشيء الكثير خلال دراستنا بجامعة طيبة فرع "العُلا" أنا وزملائي حتى حقَّقَ كُلٌّ مِنَّا بتوفيق من الله مُبتغاه، وما زِلْنا نَستذَكْرُ تلك الأيَّام المليئة بالشغف والطُّموح لتحقيق الكثير والكثير لخِدْمَة دِيننا ثُمَّ مليكنا ووطننا..

وباعدَتْ بيننا المسافات، وكُلٌّ مِنَّا يسعى لتحقيق مُراده بعد تخرجنا، وما زالت قلوبنا تشتاق لـ"العُلا" وأهالي "العُلا" الكِرام الذين غمرونا بكَرَمِهم وحُسْنِ أخلاقهم واستقبالِهم لنا طوال سنوات الدراسة وذهبنا للبحث عن الرِّزق والعِلْم والعمل في رُبوع بلادي حَفِظَها اللهُ من كُلِّ

مكروه وخارِجَها؛ فمِنَّا مَن أصبح مُعَلِّمًا للأجيال، ومِنَّا مَنِ ابتُعِثَ لزيادة عِلْمِه والارتقاء بدرجته العِلْمِيَّة بعِدَّة دول وفي أفضل الجامعات العالَمية ومِنَّا مَنْ أصبح مُعيدًا بجامعات مملكتِنا الغالية، ومِنَّا مَنْ دخل القطَّاع الخاصَّ لزيادة قوة اقتصادنا لننافس به العالَم، وفينا مَن دخل السلك العسكري ضباطًا وأفرادًا للذَّود عن كُلِّ شِبْرٍ من وطننا الغالي وحماية بحاره وأجوائه وأراضيه من كُلِّ سُوء..

وأخيرًا وليس آخِرًا لا يَسَعُني في نهاية ما خَطَّه قلمي وأملاه عليه قلبي وعقلي إلا أَنْ أشكُرَ مَنْ أتاح لي هذه الفرصة لِأُعَبِّرَ أصالةً عن نَفْسي ونيابةً عن زُملائي عن عميق وخالص شُكْرِنا لذلك الرَّجُل الكريم عرَّاب ومؤسس جامعة طيبة فرع "العُلا" سعادة الدكتور «سالم بن عبد الرحمن البلوي» وعن كُلِّ مَنْ نَفَعَنا بعِلْمِه ومعرفته ودَعْمِه.

ولسعادة الدكتور «سالم بن عبد الرحمن البلوي» مواقفُ عديدة لخِدْمَةِ دِينه ثُمَّ مليكه ووطنه ومدينته أرض الحضارات، وثقته بالثروة الغنيَّة التي تحتضنها أرض "العُلا" وكأنَّه يعلم ويرى المستقبل وتطلعات مليكنا خادم الحرمين الشريفين الملك «سلمان بن عبد العزيز آل سعود» وسمو ولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير «محمد بن سلمان ابن عبد العزيز آل سعود» عرَّاب رؤية (المملكة العربية السعودية) ٢٠٣٠م.

تقبلوا خالص تحياتي واحترامي وتقديري..

أحببتُه قَبْلَ أن ألتقيه

بقلم البروفيسور / «عبد الجبار بن بلال بن منير الخالدي»
رئيس وحدة الإرشاد الأكاديمي بكليَّة العلوم والآداب بالعُلا
عضو هيئة التَّدريس بقسم اللُّغة العربيَّة

١٧ / ٢ / ١٤٤٢هـ - ٤ / ١٠ / ٢٠٢٠م

حقيقةً.. أحببتُ الدكتور «سالم عبد الرحمن البلوي» قَبْلَ أن أراه، كما قال الشاعر السوداني «التجاني» مُعَبِّرًا عن حُبِّه لمعهد "أُمِّ درمان" العِلْمي قَبْلَ أَنْ يراه: سَبَقَ الهَوى عينَيَّ في مضمارِهِ.

فالرَّجُل عَرَفْتُه قَبْلَ أَنْ أَلْتَقِيَه، جِئْتُ إلى كليَّة العلوم والآداب بـ"العُلا" في العام ١٤٣٥هـ، ووجدتُ سِيرةً عَطِرَة تُعَبِّرُ عن الدكتور «سالم» مُرَبِّيًا تربوِيًّا كريمًا سَمْحًا ذا مروءة وإغاثة، وكُل ما تَحْمِله معاني النخوة العربية.

وليس ذلك بمستغرب مِمَّنْ نشأ وترعرع في أسرة قوامها الخِصال الكريمة، «والبلد الطيبُ يخرجُ نباتُه بإذن رَبِّه...»، وعَرَفْتُ كُلَّ ذلك من خلال زملائي الذين عَمِلُوا معه أيامَ كان مُشرِفًا على فرع "العُلا" وعميدًا لكلية العلوم والآداب، وقد التقيتُه في المَرَّةِ الأولى بمناسبة زواجٍ في أَحد الأَماكن، وسَلَّمْتُ عليه وقُلْتُ له: «عَرَفْتُك قَبْلَ أن ألقاك»، فأعجبتني ابتسامَتُه وبشاشَتُه، فقرأتُ ثقتَه القويَّةَ بنَفْسِه واعتزازَه بعُروبته مع اعتمادٍ على النَّفْس وحَمْلٍ لها على المتاعب وارتكاب الصعاب، وذلك بعزيمة قوية وإرادة صادقة، وللهِ دَرُّ القائل:

بقَدْرِ الكَدِّ تكتسب المعالي ... ومَن طلب العُلا سَهِرَ الليالي
ومَن طلب العُلا في غير كدٍّ ... أضاع العمر في طلب المُحالِ

وتتزاحَمُ الكلمات في صدري للتعبير عن مجاهداته وعصاميته، وقد اختصَّه الله تعالى بالقَبول بين الناس؛ فـ«سالم» المربي الكريم المضياف الذي يؤمُّه الناس أفرادًا وجماعات لقضاء الحاجات؛ فهو الذي يعيش للآخرين ولا يعيش لنَفْسِه، وهذا عمر ثانٍ له، كما قال الشاعر:

دقَّـاتُ قـلـب المـرء قائلـة لـه إنَّ الـحـيـاة دقـائـقٌ وثـوانٍ
فاحفظ لنفسك بعد موتك ذِكْرَها فالـذِّكـرُ للإنسـان عُمـرٌ ثانٍ

وأخيرًا وليس آخرًا.. فرَجُلٌ بهذه السِّمات وهذه الخِصال التي شَطَّ بِيَ القلم في أنْ أُعَبِّرَ عنها حَرِيٌّ به أن يكون في الواجهة المجتمعيَّة والوطنيَّة والتربويَّة والأكاديميَّة والفِكْريَّة؛ فهو ابن (المملكة) البارُّ بها، وكما يُقال: «ألسنة الخَلْق أقلام الحق»، وهذا غَيضٌ من فَيض في حقِّ أخي وزميلي وصديقي الدكتور «سالم»، فأرجو المعذرة في تقصيري أن أُوَفِّيَه حَقَّه ومُستَحَقَّه، واللهَ أسألُ له التوفيق والسداد، وأن يجعله مِفتاحَ خير مِغلاقَ شر، وأن ينفع به البلاد والعباد؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصَحبِه وسلم.

مَسيرةُ كِفاحٍ وخِدمَةُ وَطَن

بقلم الأستاذ الفاضل / «حمزة محمد جابر الجهني»

من رجال "العُلا" المحسوبين

لم أستغرِب - أبدًا - من معالي الأستاذ الدكتور «محمد بن أحمد الرشيد» وزير التربية والتعليم الأسبق رَحِمَه الله - وهو الخبيرُ بالرِّجال - أن يُوجِّه خطابًا بِخَطِّ يَدِه إلى سعادة الدكتور «سالم بن عبد الرحمن البلوي» المُشرِف على فرعِ جامعة طيبة بـ"العُلا" سابقًا يَحُثُّه فيه على كتابة مُذَكِّراته، ويَصِفُها بأنَّها مليئة بالعطاءات والعِبَر.

وقد لمست أنَّ معالي الدكتور «الرشيد» لم يكتب هذه التوصية إلّا بعد أن خَبِرَ الدكتور «سالم» بعُمْق، وعَرَف أنَّ لديه ما يَستحِقُّ أَنْ يعرفه الناس، سواء كانوا من رجال التعليم بمراحله المختلفة أم من غيرهم ممَّنْ يَنشدُ المعرفة والتجربة الثريَّة من رَجُلٍ خاض غِمارَها وسلك دُروبَها لعِدَّة سنوات، ولكُلِّ مَن أراد أن يتفكَّر ويتأمَّل ويستوعب العِبَر، وما أكثرها في دهاليز هذه الحياة.

عَرَفتُ الدكتور «سالم» مُشرِفًا على فرعِ جامعة طيبة بـ"العُلا"، وكان هو أَوَّل مُشرِف يُعيَّنُ على فرعِ الجامعة، وهو الذي بدأ مرحلة التأسيس، وهي من أصعب المراحل التي تواجِهُ المُشرِف؛ فهذا الفرع هو من الفروع الفتيَّة، ويحتاج إلى المزيد من التَّرتيب والتَّنظيم والهيكلة وضَبْط سَيْرِ الدراسة واستِئجار المباني، وغير ذلك الكثير.

وقد بَذَلَ الدكتور «سالم» جُهْدًا كبيرًا مُضاعَفًا، وسَهِرَ كثيرًا لتذليل هذه العَقَبات، واستطاع - بحُسْنِ إدارته وجودة تصرُّفِه - أن يتجاوزها ويتغلَّبَ عليها، وقد وَفَّقَه الله إلى ذلك، وحَصَلَ على ثقة ودَعْم المسؤولين بالجامعة الأُم، وسارت أمور فرعِ الجامِعة على أَحسنِ ما يَنبغي لَه.

كان الدكتور «سالم» يُؤمِنُ بأنَّ للجامعة رسالتين الأولى داخِلَ أسوار الجامعة، وهي الدراسة الأكاديميَّة العِلْميَّة لطلاب الجامعة، والعمل على تطويرها والارتقاء بها وفقًا لما يُستَجَدُّ من أساليب الدراسة والعلوم الحديثة، ووفقًا لما يتطلع إليه المسؤولون وما يجعل من الطالب الجامعي مِثالًا ورمزًا للتمكُّن والتفوق والنُّبوغ.

والرسالة الثانية: هي خارج أسوار الجامعة، وهي تفاعُل الجامعة مع المجتمع والمشاركة في الفعاليات التي تَخدِمُ البيئةَ المجتمعية، وتنهض بالعَلاقة التي تَربِطُ الجامعةَ بالمجتمع المُحيط بها، وقد أخذ الدكتور «سالم» بالرسالتين كلتيهما.

والدكتور «سالم» واحِدٌ من أبناء "العُلا" الذين خدموها بإخلاص، وهو من أُسْرَةٍ عريقة معروفة وقد أحسستُ بمشاعره عند تأثُّره وتعلُّقه بوالده الشيخ «عبدالرحمن» رَحِمَه الله، وتمنَّى لو طال به الأَجَل ليرى ويَلمَس بنَفْسِه كيف أصبح ابنُه هذا الذي رعاه وتَعِبَ في رعايته وتربيته حتى نضج وتألَّق واستوى على عوده.

ويَحِقُّ للدكتور «سالم» أنْ يَعتَزَّ بوالده، وأن لا يغيب هذا الوالد العطوف عن مُخَيِّلَتِه؛ فالشيخ «عبدالرحمن» رَحِمَه الله رَجُل كريم خَيِّرٌ وهو من وُجَهاء وأعيان قبيلة "بلي" وممَّن يسعى في أعمال الخير وإصلاح ذات البَين.

والدكتور «سالم» يُحْسَبُ له - كثيرًا - ما حقَّقه من إنجاز في السعي لتملُّك الجامعة للأرض الكبيرة الواسعة الممتدة أطرافُها إلى مَساحات كبيرة، الواقعة جنوب "العُلا"، والمُقام على جزء منها حاليًا بعضُ مباني الجامعة، وهي نظرة مستقبلية واعِدَة لما سوف تُصبِحُ عليه الجامعة من توسيعات في السنوات القادمة إن شاء الله.

والدكتور «سالم» رَجُلٌ طَمُوح.. لم يَكتَفِ بشهادة الدكتوراه المتميزة التي حصل عليها، بل واصل مسيرته العِلْمِيَّة والعَمَلِيَّة في شتى المجالات:

فقدَّم البحوث، واشترك في المؤتمرات العِلْمِيَّة والدورات التدريبة حتى حقق طُموحَه وتَمَكَّنَ من شَقِّ طريقه بجدارة في دُروب هذه الحياة التي لا تعترف بالتواكل والمستحيل، وهو إلى جانب ذلك كُلِّه مُثَقَّفٌ واسِعُ الاطلاع، مُجيدٌ في الكتابة، مُتَحَدِّثٌ لَبِقٌ، حلو المعشر نقيُّ المظهر والمخبر مُتواضِعٌ إلى أبعد الحدود، لذلك أَحَبَّه وقدَّرَهُ الجميع.

وكتابه الذي أسماه (صراطي) بأقسامه الثلاثة سيكون له أثرٌ كبير في عقل ووجدان كُلِّ مَن يقرؤه؛ لأنَّه جَمَعَ فيه بين النَّجاح والفَرَح والتَّعَب والسَّهر والمعاناة والتَّجْرِبَة والمُتعَة والفائِدَة.. يَعرِضُها الدكتور «سالم» بأُسلوبه الشَّيِّقِ المُمْتِعِ كما عاشها، ويَدُلُّنا على أنَّ الحياة كُلَّها مزيجٌ غير متجانس من هذه السِّمات، والكَيِّس الفَطِن: هو مَن استفاد منها كما هي، ورَسَمَ على خارطتها طريقًا مُشرِقًا يستنيرُ به في دُروب حياته ومُستَقْبَلِ أيامه.

وأخيرًا.. فإنَّ في حياة الدكتور «سالم» جوانبَ كثيرةً لم أتحدَّث عنها أتركُها لأصدقائه وزملائه وتلاميذه، وهم كثرٌ بدون شك، وأسألُ الله له السعادة والتوفيق.

رسالة إلى والدي!!

والدي الحبيب.. بَعدَ مشيئةِ اللهِ تعالى، أراكَ ما زِلْتَ حَيًّا فينا، لم تَمُتْ، ولن تموتَ.. فما زِلْتَ موجودًا بيننا، لم تَرحلْ، ولن تَرحلَ.. لقد قِيلَ:

ليس مَنْ ماتَ فاستراحَ بمَيِّتٍ   إنَّمـا الميْـتُ مَيِّـتُ الأحيـاءِ

كأنْ لم يَكُن ارتحالٌ فيما خَلَّفْتَهُ مِنْ قِيَمٍ ومبادئ مادية ومعنوية؛ فإنَّ الذِّكْرَ للإنسان عُمْرٌثانٍ.

لقد كُنتَ لي القدوةَ الأولى، ونبراسَ عِزِّي الذي يُنيرُ دَربي، فَعَلَّمْتَني معنى الصمود في مواجهة مُعتَرَكِ الحياة.. لقد رَفَعَ اللهُ بك رؤوسَنا نحنُ أبناءَك وأسرتَك وقبيلتَك عند مَن عَرَفَكَ وعند مَن سَمِعَ عنك، لقد عَرَفَك الجميعُ كريمًا ذا مُروءة، وشُجاعًا ذا عِزَّة.

والدي الحبيب.. يُقَصِّرُ اللسانُ والقَلَمُ عن التعبيرعن مَكنون نَفْسي تجاهك؛ فتارةً أُعَبِّرُبالمقال، وتارةً أُعَبِّرُبلسان الحال.

فطالما تمنَّيتُ أنَّكَ معي في كُلِّ ما أعانَني اللهُ على تحقيقه مِن أعمال حِسيَّة ومعنويَّة، أدَّيْتُها ابتغاءَ وَجْهِ الله، ثُمَّ للصالِح العام قَبْلَ الخاص.. لقد كان لك فيها الحظُّ العظيمُ بعدَ اللهِ سبحانه وتعالى.. فأسألُ اللهَ الرحمنَ الرحيمَ أنْ يتقبَّلَ منِّي كُلَّ عَمَلٍ قُمْتُ به، وكُنْتَ أنتَ - بَعْدَ الله - صانِعَه!!

لقد بَذَلْتُ الجُهْدَ قَدْرَوُسعي وطاقتي.. فعسى أنْ أكون حَقَّقْتُ بعضَ ما تَمَنَّيْتَه لي؛ لأنَّ الرُّموزَ مثلَكَ أُمنيَّاتُهم ساميةٌ سُمُوَّ مكانتِهم.

أَبَتِ.. إنْ لم نَصِلْ.. فنحنُ لا نزال على الصِّراط سائرينَ أنا وإخوتي.. فلن تُشَقَّ عصانا بإذن الله تعالى..

أبي الغالي.. لقد حَظِيَ لساني وشَرُفَ بنُطْقِ وصيتك؛ فنحنُ بِعَوْنِ الله عليها ما بَقِينا.. سنُورِثُها أبناءَنا، كما وَرِثناها.

أبَتِ.. إنَّني أَعيشُكَ.. أَتنفَّسُكَ.. أراكَ في كُلِّ شيءٍ حَوْلي.. في الأماكن في الأشخاص.. إنَّك سيرتي ومسيرتي!!

أدعو اللهَ العَلِيَّ العظيمَ، رَبَّ العرشِ الكريم، ورَبَّ كُلِّ شيءٍ، وخالِقَ كُلِّ شيء.. أنْ يتقبَّلَ عَمَلي هذا قَبُولًا حَسَنًا، وأنْ يَجعَلَه خالِصًا لوَجْهِه الكريم، وأنْ يُكْرِمَنا بمغفرته ورَحْمَتِه التي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ، وأنْ يَجْمَعَنا معكم بفراديس جنَّات عَدْن، مع النبيين والصديقين والشُّهَداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا؛ وآخِرُ دعوانا أنِ الحمد لله رَبِّ العالَمين، وصَلِّ اللَّهُم وسَلِّمْ تسليمًا كثيرًا على سيِّدنا مُحَمَّد، وعلى آله وصَحْبِه أجمعين.

فهرس المحتويات


الحمد لله رب العالمين



الكاتب في سطور



سالم بن عبد الرحمن البلوي

dr.sasbl@gmail.com

الخبرات الوظيفية والمؤتمرات والدورات والبحوث:

- ١٤١٠-١٤٢٠هـ: معلم - دبلوم رياضيات - بمدارس تعليم جدة والعلا.
- ١٤٢٠-١٤٢٤هـ: دراسة بكالوريوس حاسب آلي - كلية المعلمين جدة.
- ١٤٢٥-١٤٣٠هـ: دراسة الماجستير والدكتوراه - تعليم إلكتروني - جامعة غرب فرجينيا أمريكا.
- ١٤٣٠- ١٤٣٦هـ: المشرف على فرع جامعة طيبة بمحافظة العلا وعميد كلية العلوم والآداب.
- ١٤٣٦-١٤٣٧هـ: أستاذ زائر بجامعة السوربون (باريس ١) – باريس – فرنسا.
- من ١٤٣٨هـ حتى تاريخه: أستاذ مشارك – مناهج حاسب آلي – كلية التربية – جامعة طيبة.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.
- نظَّم وشارك في أكثر من (٢٤) مؤتمرًا دوليًّا ومحليًّا.
- نظَّم وشارك في أكثر من (٢٢) دورة وورشة عمل.
- عضو في العديد من الجمعيات العلمية الدولية والمحلية.
- له العديد من البحوث والمشاريع البحثية المحكمة دوليًّا ومحليًّا.